أيـام من عمـري

" رواية "

أيام من عمـري .. رواية

تأليف/أسـامة علي الصـادق

.....

الطبعة الأولـي يوليو ٢٠١١

الطبعة الثانيـة نوفمبر ٢٠١٣

الناشر: المؤلف

موبايل: ٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

.....

تصميم الغلاف:

المهندسة/ ريهام سـهيل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

oelsadek@gmail.com

أيام من عمـري

" روايـة "

تأليف

أسـامة علي الصـادق

نبتدى منين الحكاية

من المتعارف عليه بين الناس على مختلف ثقافاتهم وأهوائهم أن المرأة لها نصيب كبير فى اهتمامات الرجل سواء من العامة منهم أو من الخاصة وأيضا من أصحاب الشأن كأهل الفن والأدب وخلافه.

البعض يكيل لها الاتهامات والنقد وبأنها أساس كل مشاكل المجتمع والبعض يتحمس خطاه ويتفرس فى حكمة الله فى خلقه، من منا معشر الرجال لم تهفُ نفسه ومشاعره نحو فتاة فى بداية مرحلة المراهقة، من منا لم تثِر خياله وفكره فتاة أو سيدة تسير بالطرقات تتهادي بكل نعومة ورشاقة، من منا لم يقف ينظر ويدقق فى تفاصيل وتقاسيم جسد المرأة كلنا فعلنا هذا ومن لم يفعل هذا فهو إنسان غير عادي؛ لكن تختلف درجات النظر والتدقيق وإظهار الإعجاب والرغبة من إنسان لآخر.

من أجل هذا فكرت فى كتابة تلك الرواية؛ لن أبدأ الرواية بتأثير الأم وهى المرأة الأولى والأساسية فى حياة الأبناء والبنات والسبب فى هذا أن هذا التأثير كوني ومن عند الله؛ أي لم يكن لنا يد فيه كما أنه قائم سواء رغبنا أم لم نرغب فإذا لم يكن متواجدا لهلك بنو البشر؛ تلك العلاقة السامية أساسية فى حياتنا جميعا.

بالتالي سوف ينصب تركيزي على المرأة من بداية الشعور بها وبأنها كائن بشري يختلف عن الصديق فى مرحلة الطفولة والصبا وصولا إلى مرحلة المراهقة، التى سأبدأ بها أحداث هذا الكتاب.

كل ما سأرويه من أحداث وقع بالفعل، وفي أماكنها الحقيقية وشخصيات أبطالها أيضاً .. مع تغيير في بعض الأسماء خاصة الفتيات والسيدات حتى لا أخوض في سيرهم الذاتية بما فيها من خصوصية يجب أن تحترم

ورغم إن كل ما تناولته بالسرد ليس فيه ما يشين أو يخجل أى منهن أو يتنافى مع سلوكيات وتقاليد وقيم المجتمع المصري القويم.

***

أنا من أبناء مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية، نشأت فى أسرة كبيرة العدد؛ فقد وصل عدد أشقائي وشقيقاتي إلى سبعة بما فيهم أنا، والدي يعمل بالتربية والتعليم كناظر مدرسة ابتدائي وبالتالي أصبح راتبه قليل مع هذا العدد، يساعدنا على المعيشة قطعة أرض زراعية قريبة من مدينة الزقازيق يقوم أحد المزارعين البسطاء بزراعتها فتعطي عائداً يقسم بينه وبين والدي مناصفة حسب قانون زراعة الأراضي فى تلك الفترة.

تقيم أسرتي بشقة متوسطة المساحة مكونة من أربع حجرات بمنافعهم بالدور الأول ولها بلكونة والشقة تمتاز بأنها صحية؛ تغزوها أشعة الشمس منذ الصباح حتي قبيل الغروب بساعة كما أنها تقع على شارع رئيسي بالمدينة للقادمين إليها من أحد الروافد المتجهة إلى مركز مدينة ههيا والتي تقع على مسافة خمسة عشر كيلومترا.

تقيم بالدور الأرضي أسرة طيبة مستأجرها يعمل مدرسا بالتربية والتعليم حديث الزواج لم تنجب زوجته بعد، الدور الأعلى للشقة التى نقيم بها يقيم فيها المالك ويعمل مدرسا للغة العربية بالمرحلة الثانوي وقادم من إعارة منذ عدة سنوات لأحد البلاد العربية.

تتساوي أسرة المالك مع أسرتنا فى العدد كما أن الأعمار بين أبنائه وإخوتي متقارب إلى حد كبير، نشأت صداقة بين زوجة المالك ووالدتي حيث التقارب متوافر فى كل شيء باستثناء أن أسرة المالك أيسر حالا كما أنهم أصحاب المنزل وبالتالي ينظرون إلينا نظرة المالك للمستأجر.

عام ١٩٦٢ كنت أدرس بالمرحلة الثانوية "ثانوية عامة" والتي تحتاج

إلى مجهود كبير في المذاكرة والتحصيل، لم تكن الدروس الخصوصية منتشرة مثل الوقت الراهن، من يحتاج إلي درس خصوصي كان يتواري خجلا لأنه أقل فهما من زملائه الذين يعتمدون على مجهودهم وكتاب المدرسة، نحن أبناء الموظفين البسطاء ليس لنا مقدرة مادية علي شراء الكتب الخارجية ومن قبلها الدروس الخصوصية ولهذا كنا نتفق كمجموعة من الزملاء على شراء مجموعة الرياضيات مثلا ونقع في سبعة كتب ونقتسم ثمنها بيننا نحن الخمسة، ونتبادل تلك الكتب كل يومين يحصل أحدنا على كتاب متخصص في مادة معينة من الرياضيات.

تسير الحياة بنا سيرا هادئا، خصص لي والدي مصروفًا يومياً قدره قرش صاغ ومن المحتمل إلغاؤه يوما أو بعض يوم تبعا للظروف الاقتصادية وليس لك احتجاج من عدمه فأنت صاغر لتنفيذ أوامر الأب ويمكن استئناف الحكم الأبوي عن طريق الأم التى تحاول إقناعه وقد تفشل وقد تنجح وفى حالة نجاحها يخصم ٥٠% من المصروف فأحصل على خمسة مليمات "تعريفة تمكنني من شراء " شرش " جزر يشبعني بعض الشيء وبه كمية من السكر تغنى عن الحلوى.

مساء أحد الأيام كنت على عجل للتوجه لأحد زملائي حاملا معي كتاب الهندسة الفراغية لاستبداله بكتاب الجبر، نحن في بداية العام الدراسي، على باب مدخل المنزل الخارجي كدت أصطدم بفتاة جميلة في نفس عمري تقريبا، تبادلنا الاعتذارات، رغبت في مواصلة السير، بصوت خفيض سألتني عن فتاة تدعي "سهام " تسكن بالمنزل، أخبرتها بأن هذا هو منزلهم وهي تقيم بالدور الثانى العلوي، طلبت منى مرافقتها إلى شقتهم كي أبين لها طريق السير على السلم شديد الظلمة نظرا لعدم وجود لمبة كهرباء تنير لقاطني المنزل طريق سيرهم توفيراً للنفقات.

تحركت أمامها بحذر وأنا أطمئنها بأن درجات السلم سليم ولا يوجد كسر بأحدها، تبعتني الفتاة حتى وصلت إلى الشقة المذكورة فقمت بالطرق بدلا منها كي أتأكد بوجود أحد بالمنزل، بعد قليل فتح الباب وظهرت منه جارتنا متسائلة: (في حاجة يا أسامة ؟) تحركت صديقتها لملاقاتها فتبادلت الفتاتان العناق والكلمات الطيبة.

شكرتني الضيفة والمضيفة، هممت بالتحرك لمواصلة طريقي للقاء صديقي، أشارت إليّ جارتي بأن طلبت مني أن أخبر عم محمد البقال المواجه للمنزل بأن يرسل لها بزجاجتي مياه غازية نظرا لأنها بمفردها ولا يوجد أحد من أشقائها أو شقيقاتها، أشرت إليها بصحة هذا الرأي وتركت باب شقتها مهرولا نزولا إلى الشارع، توجهت إلى البقال فلم أجد سوي والدته المسنة، أخذت منها زجاجتي مياه غازية وأسرعت بالصعود وطرقت الباب فخرجت جارتي وشاهدتني ممسكا بالزجاجتين فشعرت بالإحراج فطيبت من خاطرها بأن النبي أوصي على سابع جار، أجزلت شكرها وثناءها وغادرت باب الشقةُ مسرعا للقاء صديقي.

لم يمض على هذا اللقاء يومان إلا والتقيت بالفتاة الزائرة في إحدى المكتبات التي تبيع الأغراض الدراسية؛ كان المكان مزدحما وهي راغبة في شراء شيء ما، ما أن شاهدتني حتي طلت من ثغرها ابتسامة رقيقة فبادلتها نفس الابتسامة متسائلاً عما ترغب شراءه؛ أخبرتني بما تريد، زاحمت الشباب وابتعت ما تريد وأيضا ما حضرت من أجله، أشرت إليها بأن تمدني بالنقود فأنا شبهُ مفلس إلا من ثمن ما أتيت لشرائه.

هكذا غادرنا المكتبة وكل واحد منا ابتاع ما حضر لشرائه، تحدثنا بحديث طيب علمت من خلاله أنها تدرس بنفس السنة الدراسية لجارتي التى قامت على زيارتها منذ عدة أيام؛ أي إنها بالسنة الثانية الثانوي، أي

اننى أسبقها بعام، لم أشعر بما قطعته قدماي حتي توقفت الفتاة شاكرة ما قمت به، تساءلت: ألا تكملين سيرك؟ فأشارت إلى عمارة صغيرة تقع بشارع فسيح تتوسطه حديقة كبيرة ويعتبر أكبر شارع فى مدينة الزقازيق.

قلت لها، آه تسكنين بهذا المبنى؟ (أجابت) سؤالي بهزة رأس وأكملتها بأن شقتها الموضوع عليها يافطة طبيب الأسنان الشهير بالمدينة، أكملت حديثها قائلة: أنا نورهان أندريا وأبي هو الدكتور أندريا طبيب الأسنان.

تبادلنا التحية دون مصافحة وعدت إلى منزلي سعيدا بلقاء هذه الفتاة الرقيقة، بعد ما أنهيت الواجب المدرسي جلست أتأمل رفيقة المكتبة وابنة طبيب الأسنان، كنت فى بداية مرحلة المراهقة، ولم تكن تعني لنا مرحلة المراهقة أي شيء سوي الشعور بالرغبة فى محادثة الفتيات لكن هذا الأمر كان شديد الصعوبة نظراً للتقاليد التى كانت تحكم المجتمع والذي كان يعتبر هذا التصرف غير أخلاقي بل ويقابل باستهجان من الأهل والأصدقاء، ظللت هائماً في ذكري نورهان وفتنتها وجمالها الملفت للنظر حيث كان بعض شباب الشارع الذي به محلات الكتب ينظرون إلينا نحن الاثنين والبعض اعتقد بأننا أقرباء نظرا للتقارب بيني وبينها فى قسمات الشكل الطيبة مع اختلاف لون العينين.

يبلغ طول نورهان حوالي ١٥٥سنتيمراً أو يزيد وبنيان جسدها قوى وشعر رأسها كستنائى ناعم التى قامت بقصة حسب موضة تلك الأيام مثل الفنانة سعاد حسني؛ فقد كانت الفنانات ونجوم الطرب هم المثل والقدوة لهذا الجيل؛ كانت هناك صحبة جميلة من بنات مصر يعملن فى السينما من بينهن "سعاد حسني ونادية لطفي وزبيدة ثروت ولبنى عبدالعزيز وإيمان وكريمان وآمال فريد وغيرهن".

يميز نورهان أنف صغيرة وعيون واسعة خضراء اللون وبشرة بيضاء

ناعمة؛ كانت نورهان فتاة رقيقة الحديث تقول همسا ولها ابتسامة رقيقة غير مكتملة لكن يظهر من خلالها أسنانها الجميلة سواء خلقة ربنا أو أن والدها قام بعمله معها، ترتدي بلوزة سماوي وجيب أسمر مساوياً لمستوى الركبة وحذاء أسمر يرتفع عن الأرض بحوالي سنتيمترين كما ترتدي ساعة ذهبية اللون على هيئة إسورة.

بينما كنت أرتدي بنطلون ووتر بروف سهل الغسيل، لا يحتاج للكي وقميصاً نصف كم ضاق على جسدي حيث اشتراه لي أبي وأنا بالسنة الأولي الثانوي وكنت أستبدله بقميص آخر استطعت توفير ثمنه من مصروفي أثناء الأوكازيون العام الماضي، راعيت فيه أن يكون فضفاضا حتي يظل معي دون أن يضيق على مقاسي كما يمكن استخدامه خلال المرحلة الجامعية.

توجهت لفراشي سعيدا مسروراً لا احمل في نفسي إلا كل شيء طيب بلقاء نورهان ابنة طبيب الأسنان الجميلة الرقيقة، قررت بيني وبين نفسي ألا أخبر أحداً من أصدقائي بهذا رغم إننا جميعا نرغب بأن يحدث لأحد منا قصة حب نتبادل الحديث عنها مثل ما نتبادل الكتب الخارجية.

كيف بدأت الصداقة بيننا

الطريق الذي أسلكه في يومي للذهاب أو العودة إلي المدرسة يمر من أمام العمارة التي تقيم بها نورهان وبالتالي كنت أتطلع إلي شرفة منزلها لعلي أسعد برؤيتها؛ هذا ما ورد بخاطري صباح اليوم التالي بعد لقاء المكتبة، في هذا اليوم كنت أسير بين صديقين وحينما اقتربت من منزلها شاهدتها تقف في الشرفة فرقص قلبي قبل أن أتمايل سرورا في الطريق.

حاولت جاهداً أن أسيطر على تصرفاتي وألا يبدر مني أي هفوة أو نظرة يلتقطها الصديقان وأصبح مثار أسئلة أنا في غني عنها، لم يعد بيني وبين منزلها إلا أمتاراً قليلة كنت خلالها أسرق النظرات الخاطفة كأنني أجول ببصري فيما حولي، اعتقدت في بادئ الأمر أنها لن تراني فالشارع يعج بالطلاب القادمين أو المتجهين بطريق السير.

حركت يدها اليمنى بإشارة بسيطة وبسمة رقيقة لحقت بها، لم أقم برد فعل مماثل اعتقاداً مني بأنها تتصرف بتلقائية ولا تخصني؛ كان الهاجس الملازم لي هو عدم اندفاعي نحوها حتي لا تغضب مني وتحمل مشاعرها تلك لصديقتها جارتي سهام؛ فالشباب في تلك الحقبة كان يتمتع بتقديس وإحترام للجيران ويخشى حدوث القيل والقال وهذا في عرف أبناء الأقاليم شيء سيء يعكر العلاقات ويجّرس الإنسان؛ أي يفضحه ويجعل رقبته في حجم حبة السمسم.

أصبحت محاذيا للمنزل والشرفة، كنت راغبا في إلقاء نظرة سريعة خاطفة لكن مازال شعوري يخشي عاقبة هذا ويمنعني من التمادي فيه، فجأة وجهت رأسي جهة الشرفة فشاهدت البسمة التي تسلطت علي عيوني مباشرة فاضطربت ساقاي وكدت أتعثر في سيري مما دفع بأحد أصدقائي

لينبهني بأنني أتخبط بجانبه ويجب عليّ السير بانتظام؛ أعقبها بضحكة عالية فكهه، وعلق الآخر بأن أسامة في هذا اليوم مش علي بعضه ويظهر أن أمه وبخته أو ضايقته.

لم أعلق ولكن احمرار وجهي هو الذي فضح حالي أمامهما مما دفعهما للصمت فقد شعرا بأنهما ضغطا علي الجرح الذي جعلني أتخبط بسببه وهو الدش الذي أحصل عليه من والدتي كل صباح بينما لم يكن هذا هو شعوري حيث كنت أشعر بأنني طائر فى السماء وقد وصل طيراني إلي شرفتها.

خلال هذا اليوم وأثناء الدراسة كنت فى حالة من السرحان مما دفع بمدرس مادة الكيمياء إلي سؤالي فيما قام بشرحه حتي الآن فلم أجب مما ضايقه وعنفني وأمرني بالوقوف في آخر الفصل عقابا على ما حدث معلقا بأنك بدأت في إهمال دروسك رغم تفوقك الذي أعلمه عنك.

هكذا انقلب حالي من السكون والعدم وأصبحت فى حالة من النشاط المستمر مثل النواة وبداخلها الإلكترونات والنيترونات التي شرحها مدرس الفيزياء، فالشرود والسكون وعدم التحدث مع من في المنزل والجلوس فى حجرتي صامتا لا أعرف مقدار الوقت الذي يمضي عليّ وأنا علي هذا الوضع.

كل صباح يتكرر ما سبق وحدث؛ أصبحت النظرات أشد تركيزا مما دعا الصديقين للانتباه؛ في البداية أصابهما الضحك علي هذا ثم أصبحا يحترمان مشاعري بعد أن لاحظا صمتي عما يبديانه من تعليقات فكهة وفكرت بأن أتخلي عن مرافقة الزميلين لكني خشيت أن أصبح بمفردي ويزداد ارتباكي أكثر فأكثر؛ تخليت عن تلك الفكرة ولكن القدر فعلها، فقد مرض أحدهما ولم يتوجه معى ونع الزميل الآخر؛ بل أن الزميل الآخر بعد

أن سرنا مسافة واقتربنا من منزل نورهان تذكر بأنه نسي إحضار الواجب الذي قرره علينا مدرس الفيزياء فخشي العاقبة وعاد لإحضاره طالبا مني مواصلة السير وسوف يلحق بى مستخدما دراجة شقيقه.

اقتربت من منزل نورهان فشاهدتني بمفردي فهبطت مسرعة حتي إذا أصبحت أمام باب المنزل ظهرت من خلاله باسمة مشيرة إليّ بأن أتوقف كانت ترتدي ملابس المدرسة كعادتها تحتضن حقيبة الكتب بوضعها علي صدرها كما كانت تفعل الفتيات فى تلك الفترة وعلمت من بعض السيدات بأن السبب في هذا هو شعور الفتيات بتطور فى الملامح وظهور الصدر فكن يخجلن من هذا فتساعد حقيبة المدرسة في إخفاء معالم الأنوثة اللائي وصلن إليها.

توقفت؛ أقبلت عليّ مصافحة تردد بعض عبارات طيبة لا أتذكرها وأخبرتني بأنها تطلب مني إذا لم أكن مشغولا مساء الخميس بأن أحضر لمنزلهم ونجلس معاً لنتحدث ونستمع لبعض أغاني أم كلثوم علي جهاز التسجيل الذي لديهم معللة هذا بأنها تجلس بمفردها فى كثير من الحالات فوالدها مشغول بالعيادة وأمها مشغولة بالمنزل أو استقبال بعض الصديقات من سيدات الوطن ولهذا أخبرت أمها بهذا ولم ترفض.

أسرعت بالموافقة فشكرتني، أثناء هذا أقبل الحوذي بعربة الحنطور التي سوف تقلها إلي المدرسة، قفزت بكل رشاقة العصفور وجلست بالعربة وعطرتني بإشارة رقيقة من يدها والتي تعني بالطريقة المصرية مع السلامة وبطريقة أبناء الفرنجة "باي باي ".

توجهت إلي المدرسة وأنا أسير دون وعي وشعرت بأن فمي به ابتسامة عريضة وخشيت أن يتمزق من اتساعه من تلك الابتسامة الحالمة، سرت فى هذا اليوم بين زملائي كعصفور نبتت له أجنحة راغبا فى أن يرفرف

ويجرب الطيران كي يغرد ويسمع المحبون لحن الحب الأول، هذا الحب الصادق الذي يؤثر بالجسد مثل ما يؤثر المخدر العام علي الإنسان قبل إجراء أي عملية جراحية ولم يعد شيء يعمل بداخل الجسد سوي التنفس أصبحت هكذا رغم أن باقي أجزاء جسدي مازالت تعمل لكنها ليست تحت سيطرتي فقد سيطر عليها هذا الحب القادم من الشرفة

قبل نهاية اليوم الدراسي سمعت حوارا بين زميلين؛ أحدهما يحذر زميله من قصة الحب التي بدأت بينه وبين ابنة بائع الخبز والذى سبق وأخبره بأن الفتاة لا تحبه ولكنها تبتسم له فقط كي يبتاع الخبز الذي يحضره أباها بالمحل مؤكدا له بأنك لو ذهبت إليها دون شراء سوف تستقبلك بتجهم وعبوس، صمت الزميل وأخبر زميله بأن هذا ما حدث بالأمس؛ فقد تعاملت الفتاة معه دون اهتمام لأنه توجه للمحل لمحادثتها دون الشراء فطلبت منه إفساح المكان كي تعمل وتوفي حاجة الزبائن ولم تعره أي اهتمام أو تنظر إليه النظرات السابقة.

سقطت تلك الكلمات علي قلبي سقوط حجر صوان فوق رأس إنسان ضعيف انتهي من مرضه منذ أيام ومازال في مرحلة النقاهة، ما تقوم به نورهان مماثل لما قامت به ابنة بائع الخبز مع زميلي، نورهان لا تحادثني إلا بغرض مساعدتها فى المكتبة أو تسليتها في منزلها لأنها وحيدة والديها وليس لهم أقارب إلا من عدد قليل لأنهم من الأرمن وعددهم قليل بالمدينة كما لا يوجد شباب في مثل عمرها، لقد شعرت الفتاة بأنني خادم أمين يوم أن توجهت لزيارة صديقتها جارتنا وقمت بحمل زجاجات المياه الغازية إليهن، وعرفت هذا من صديقتها فشرعت تتعامل معي علي هذا الأساس خادم دون أجر ويكفيه ابتسامة بسيطة لن تكلفها أي شيء يذكر، هى ابنة أحد الأجانب وأعتقد أنها أشد نصاحة وقوة من ابنة بائع الخبز.

شعرت بسكين تقطع نياط قلبي وشعرت بدوخة عارضة ليس لأنني سوف أفقد حبا عذريا في بدايته ولكن لشعوري بأنها تنظر إليّ من هذا المنظار وقد أصبحت ضئيلا في عيونها، تمنيت لو إنني لم أساعد جارتي أو أساعد نورهان في شراء الكتب من المكتبة، لقد انقلبت المساعدة إلي خدمة خادم دون أجر، يا لسوء حظي، آه .. لو علم أصدقائي لهربوا من صداقتي وعايروني بأنني أهنت شباب هذا الجيل؛ فمن أجل ابتسامة من فتاة غضة قريبة من عمري أعمل خادما وحاملا ومؤنسا لها، ماذا سوف أعمل بعد هذا.

قررت عدم تلبية دعوتها واحتمال أن تتطور الخدمة لأن أقوم بمسح بلاط الشقة ونظافة العيادة!! ياه " تبقي مصيبة سوده علي اللي خلفوني" كنت أسير بالشارع عائدا إلي منزلي وأتخيل أن البعض يشير إليّ بأن هذا هو الشاب الذي أصبح خادما مقابل ابتسامة مصطنعة من فتاة صغيرة كدت أصرخ وأخبرهم بأنني كنت أتصرف تصرف الإنسان الشهم ابن البلد لكن صوتي لم يخرج من حلقي حتي الاحتجاج لم أستطع أن أقوم به.

في منزل الأسرة شعرت أن أمي تنظر إليّ نظرات فاحصة وشاهدت عمتي التي أقبلت من البلدة لتقيم معنا عدة أيام كعادتها تنظر إليّ بنفس النظرات، بعد الغداء سمعت عمتي تحث أمي قائلة لها: " الواد أسامة سارح ومدهول، ميكنشي بيحب"؟ رفضت أمي هذا التعليل موضحة بأنني مازلت صغيرا وقدماي هما اللتان ترفعانني فيعتقد البعض بأنني أكبر عمرا؛ بعدها ضحكت السيدتان وإستأنفن الحدث والرغى.

اخترقت كلمات عمتي ضلوعي وألهبت جسدي وأشعرتني بضيق لكن الغريب أن شقيقي الأكبر أقبل طالبا مني التوجه للمكتبة لشراء أحد الكتب العلمية التي يقوم بدراستها بالجامعة، اعتذرت له وبأنني مشغول، نظر إليّ

بضيق متمتماً: "يعني شاطر تروح تخدم الغرب ولما أخوك الكبير يطلب منك حاجة تقوم متعملهاشي تعملها" !!

شعرت بدوار وتدخلت أمي وعمتي في الحديث وتساءلن كيف توجه لشقيقك تلك الإهانة؛ أجاب بوضوح قائلا : "البيه كان بيساعد بت صغيرة وبيشتري لها الكتب من شارع المكاتب، نظرت إليّ أمي نظرة فاحصة كأنها تطلب مني توضيحا لهذا، أسرعت بالدفاع عن نفسي وخشيت أن تندفع الدموع من عيني وتفضحني، أوضحت لها بأن تلك الفتاة شقيقة يسري صديقي وأنا أعرفها منذ ثلاث سنوات بحكم زيارتي لصديقي باستمرار طلبت مني مساعدتها كي تحضر ما جاءت من أجله نظرا للزحام الشديد.

طيبت أمي وعمتي من خاطري وأيدتا تصرفي ولكن شقيقي أخبرهما بأن صديقه سليمان هو الذي أخبره بهذا وماذا سيقول عنه الناس حينما يشاهدون هذا التصرف، أجابته أمي بأن أباك يقوم بخدمة المدرسين بمدرسته والمقيمين بالأرياف ببعض الطلبات ولا يجد غضاضة في مساعدة الآخرين، هذا شيء طيب ثم تحدثت مع عمتي في موضوعات أخري توجهت لأخي وأخبرته بأنني سوف أتوجه للمكتبة لإحضار ما يريد؛ لم يشكرني ولكنه قال: وأنت راجع عدي على حسونة الجزمجي وهات جزمتي من عنده لأني بعتها له عشان يصلحها من أسبوع!!

القـرار

مساء هذا اليوم توصلت لقرار طوعي بعدم زيارة نورهان وقضاء بعض الوقت بالاستماع للموسيقي وأغاني أم كلثوم، كنت أشعر بضيق في صدري مما بثه الزميلان بالمدرسة بأنني وما قامت به ابنة بائع الخبز مع أحدهما كما أثارني أسلوب تعامل شقيقي الأكبر معي كما أنبت نفسي على ما سبق وقمت به من مساعدة جارتنا أثناء زيارة نورهان الأولي لها.

صباح اليوم التالي طلبت من صديقيّ أن نسلك طريقا آخر غير الطريق المعتاد لكنهما لم يوافقاني الرأي مما دفعني بأن أقرر أن أقوم بهذا بنفسي، أصابتهم الدهشة من قراري هذا، حاولا إثنائي عن هذا القرار وخلال تلك المناقشة وجدت نفسي قريبا من منزل نورهان وشاهدتها تقف أمام باب المنزل في انتظار عربة الحنطور التي تقلها.

أصبحت على مسافة أمتار قليلة، علت البسمة وجهها الجميل فانعكس هذا عليّ فبادلتها ابتسامتها بأكثر منها وأشارت إليّ بعلامة "باي باي " قائلة لا تنسي غدا فى المساء، نحن ننتظرك، هكذا عبرت تلك المحنة بين استغراب الصديقين اللذين أصابتهما الدهشة متسائلين عن معرفتي بتلك الفتاة وأسرتها فأخبرتهما بأنه توجد علاقة عائلية قديمة ولم أكتشفها إلا منذ يومين.

هذا هو يوم الخميس وما حدث بالأمس حدث اليوم من لقاء عابر وإشارات طيبة بيننا، بالأمس روادنى هدوء نفسي ورفعت مقدرتي على استذكار دروسي بنهم وفهم بل وقطعت شوطا كبيرا في هذا الشأن مما زاد من سعادتي وبهجتي ولهذا ألغيت قرار عدم زيارة نورهان كما سبق وقررت هذا المساء سوف ألتقي بها وبأسرتها ثم نمضي بعض الوقت

نتحدث ونستمع لأغاني أم كلثوم وسوف أشاهد عندها جهاز التسجيل الذي أسمع عنه ولم أشاهده من قبل لأنه مرتفع الثمن ولا يقبل عليه إلا أصحاب المال والجاه.

قبيل غروب هذا اليوم الجميل ارتديت أفخم ما عندي من ثياب وهو القميص الذي اشتريته من الأوكازيون والبنطلون الووتر بروووف ووضعت بعضا من كولونيا حلاقة يستخدمها أبي والبسمة تطل من علي وجهي وتساءلت عمتي إلي أين أتجه بكل تلك الوسامة فقامت أمي بالإنابة عني وأخبرتها بأنه سيلتقي باثنين من أصدقائه كعادتهم كل أسبوع فطلبت مني عمتي أن أقوم على زيارة أسرة ..... فلان وأخبر زوجته بأن عمتي ستقوم بزيارتهم مساء الغد.

غادرت المنزل والشارع والحي وأنا أشعر بأنني طائر في السماء وتذكرت كلمات نورهان لي بأنه حينما أصعد للدور الثاني سوف أجد بابين واحد للعيادة والآخر للشقة وعليّ الدخول من باب العيادة حيث يكون مفتوحا في ذلك الوقت وإذا التقيت بعوض التمرجي أخبره بأنك حضرت لزيارتنا ولا تتأخر عن الساعة السابعة، سوف أنتظرك.

صعدت للدور الثاني وشاهدت باب العيادة مفتوحا ولا أثر لمرضي حيث ينهي الطبيب عمله في السابعة مساء كما هو مكتوب على يافطة صغيرة بجوار الباب، دخلت من الباب ودارت عيناي بداخل الحجرة وحينما هممت بالجلوس إذ بي أشاهد الطبيب والذي لم أشاهده من قبل ولكن هيئته وملابسه تدل علي ذلك.

الرجل طويل القامة ممتلئ نسبيا أبيض الوجه بحمرة يميز رأسه شعر أبيض يرتدي نظارة قراءة، ابتسمت له معتقداً بأنه أقبل للقائي وتحيتي ولكن الشيء الذي لم أتوقعه أن الغضب بدا عليه وحدثني بصوت مرتفع:

- إزاي ولد مس تخترم معاد؟

- أبدا يا دكتور، دا أنا جاي قبل المعاد بخمس دقايق وسألت واحد ماشي في... مقاطعا

- أنت تخكي ليا واخد خكاية .. البابا بتاعك خدد موعد ساعة سته مس سبعه، أنا تأخرتوا ساعه .. أوض "عوض" .. أوض .. شاهدت تمرجى يرتدي مريلة بيضاء وأقبل من حجرة الكشف كتب عليها بافطة صغيرة "حجرة الطبيب"

- تحت أمرك يا دكتور

- هات الساب ده وجهزه، أنا عندي موعد مهم ومس عايز أتأخر، فاخم

- فاهم يا دكتور .. معايا يا أستاذ

- علي فين؟ بتزق ليه .. أله أنت موديني فين .. يا عوض أنا مش اللي أنت فاهمه .. أقبل الطبيب صارخا فيّ

- مس عايز أسمع كلام ولد .. إكفل فم .. هس .. أنا ليا كلام كتير مع البابا بتاعك.

هكذا وجدت نفسي جالسا على كرسي الطبيب الخاص بالمرضي وأشاهد الأدوات من حولي وبسرعة فتح عوض فمي ووضع قطعه من الكاوتش فيه؛ حاولت التحرك، صرخ فيّ الطبيب ونظر بداخل فمي فخرجت منه بعض تعبيرات قصيرة.

- سنان مس كويس؛ فيه واخد ضرس فيه سوس .. أنتِ مس تنضف سنان ولد كويس .. هات أوض .. شاهدت عوض وقد أحضر سرنجة "إبره" من التي يستخدمها أطباء الأسنان .. لم أشعر بها كباقي الحقن، بدأت أشعر بتنميل وتخدير فى شفتيَّ، تركني الطبيب وجلس على مكتبه بداخل الحجرة يقرأ في كتاب، تذكرت موعد نورهان، أحدثه وأنا أشعر بأن فمي به شيئا

ضخما بل ورما وشعرت بأن شفتيَّ أصبحتا مثل شفة الجمل.

- دكتور .. أنا مواعد نورهان وعايز أقابلها .. ترك الطبيب كتابه ونهض وتقدم فى اتجاهي ونظر إليّ من أسفل نظارته وبرقت عيناه الخضراوان متسائلاً:

- انت ولد جاي تلعب مع نورهان .. ماي بيبي مس فاضي .. أنت روخ إلعب مع أولاد زيك فى سارع كوره .. أنت مريض وعندك واخد درس مس نافع .. البابا بتاعك عرفني كده وفعلا أنت تعبان، نظر فى ساعته ثم أعاد وضع قطعة الكاوتش وبمساعدة عوض شعرت بأن الرجل يهز رأسي يمينا ويسارا وأصبح مثل النجار الذي يستخدم كماشة لنزع مسمار من قطعة خشب، سمعت صوته:

- تمضمض ولد .. نظرت بجانبي ووضعت بعض الماء وأخرجته فإذا بدماء، صرخت وارتفع صوتي وزاد من هذا أنني شاهدته ممسكا بضرسي وبه الدماء وكماشة سان استيل لامعة صغيرة الحجم بداخلها الضرس.

حاول تهدئتي دون جدوى؛ لقد قدمت لألاعب ابنته وليس لنزع ضرس وكيف إتفق مع والدي الذي لم يخبرني بشيء، تماديت فى بكائي وحزني وارتفع نحيبي وعوض التمورجي يحاول إثنائي عن ذلك مما ساعد على تنبيه من بالمنزل بما يحدث خاصة أن نورهان أخبرتني فيما بعد أن كل خمس دقائق كانت تتجه لاستراحة العيادة لمشاهدتي ولم تعثر عليّ.

أقبلت نورهان تستفسر من أبيها عن سبب هذا الصراخ والبكاء فشاهدتني ولم تتمالك نفسها من البكاء ومهاجمة أبيها بدفعه وضربه فى صدره وتصرخ بعبارات بلغة أجنبية لا أعرفها، حاول الأب أن يهدأ من ثورة ابنته إلا أنها مازالت مندفعة في البكاء والصراخ، بعد قليل أقبلت أمها تهدأ من روعها، هدأ توترى وأنا أشاهد هذا التصرف ومازلت فى دهشة مما حدث.

سألت أمها أباها بلغة لا أعرفها، أوضح لها ما حدث ويشير جهتي ومازال ممسكاً بالضرس يوضح لهما بأنه قام بعمله وأن والد هذا الشاب هو الذي طلب منه ذلك، استمعت نورهان لحديث أبيها ومازالت غير مقتنعة بهذا التفسير، أثناء هذا ظهر علي باب العيادة شاب يكبرني عمرا وبدنا تساءل الطبيب ماذا تريد فأخبره بأنه جبرائيل ووالده أعطاه موعدا للحضور للعيادة من أجل شكواه المستمرة من آلام الأسنان.

أصاب الجميع الدهشة وسألني الطبيب ومن تكون، أجبته بأنني أسامة وأخبرتك بأنني جئت كي أسمع الأغاني مع نورهان حسب وعد سابق ضرب الرجل كفا بكف متسائلا : يعنى أبوك لم يخبرني بأنك مريض؟ وما اسمه أخبرته باسم أبي فتوجه بنظره إلي الشاب القادم متسائلا هل أنت ابن الخواجة دانيال؟ أكد الشاب علي هذا وأخبره بأنه تأخر على موعده لأنه قادم فورا من محطة القطارات عائدا من الجامعة بالقاهرة.

هنا وضحت الرؤيا للجميع وتبين أنني كنت ضحية سوء فهم من الطبيب، اعتذر الطبيب للشاب طالبا منه أن يعوده صباحا إذا كان قادراً علي تحمل آلام أسنانه فأخبره جبرائيل بأنه يستطيع وأنه عائد تواً من يوم حافل بالدراسة والسفر ومن أجل هذا فهو مرهق ويشكره على وعد بالحضور مساء الغد فى السابعة مساء، غادر جبرائيل العيادة بينما أعاد الطبيب تقديم اعتذاره لي مؤكدا بأنني استفدت من هذا الخطأ حيث إن الضرس الذي قام بنزعه كان مصابا.

أشار إلي زوجته إذا كانت معتعدة للقيام بزيارة أصدقائهما كما سبق واتفقا فأجابته بأنها مستعدة، أشارت إليّ بما يعني هل سنترك هذا المسكين ضحية الخطأ فى الشخص المصاب المراد علاجه؛ ابتسم لها طالبا منها أن تعد مشروبا مثلجا يتناوله أثناء لهوه مع نورهان، تحركت السيدة تعد

المشروب بينما تركني مع ابنته الأب طالبا مني عدم نزع قطعة القطن التي وضعها على مكان الضرس المخلوع إلا بعد نصف ساعة ثم أتخلص منها بعده أتناول العصير المثلج وسيصبح كل شيء على أحسن ما يكون، كما ناولني ثلاثة أقراص طالبا مني أن أتناول قرصا كل ثماني ساعات حتي يزول ألم نزع الضرس.

أقبلت السيدة بالمشروب وكانت ترتدي ملابس الخروج ولحق بها الزوج بعد أن طيبا من خاطر نورهان وقبلها والدها وهدهد علي كتفها كما طيب من خاطري بأن هدهد على خدي السليم وغادرنا الزوجان وأصبحت أجلس أمام نورهان وجها لوجه، وضعت نورهان يدها على خدها كأنها تشاركني الألم، ابتسمت لها فانتقلت عدواها إليها فضحكت، حاولت الضحك فلم أستطع.

أخذت بيدي ودخلنا إلي داخل الشقة وجلسنا بالأنتريه المريح وأعدت جهاز التسجيل وأدارته فانساب صوت أم كلثوم تتغني بأغنية أنت عمري التي أذيعت العام الماضي، كانت الأغنية رقيقة حالمة وموسيقي عبدالوهاب شجية، تمايلت نورهان أثناء جلوسها مع إيقاع الموسيقي وأقبلت فجلست قريبة مني تنظر في وجهي كي تتأكد بأنني لا أتألم، تحدثت معي وفي بعض الحالات كان لحديثها الحاجة إجابة مني فتشير لى بألا أفعل.

بعد قليل نهضت وأحضرت لي المشروب المثلج وتخلصت من قطعة القطن ووضعتها بالمكان المخصص لمثل هذا بحجرة الكشف، تناولت المشروب ببطء وخلال ذلك لم تهدأ نورهان عن الحديث، كان حديثها شيقا ممتعا فلم يحدث لي منذ الطفولة أن جلست أتحدث مع فتاة غريبة على عائلتي، ولا أعلم عنها شيئا كما إنني منذ بداية مرحلة المراهقة لم أنفرد بحسناء أجالسها وأستمع لحديثها والآن أصبحت أمامي تجلس برشاقة

وترتدي ملابس رقيقة ناعمة كثيرة الألوان المبهجة مع جمالها وفتنتها وحلاوة حديثها الذي يتخلله الكثير من اللكنة الأجنبية.

شعرت بتحسن وأنني أستطيع الحديث مما أضفي على اللقاء الحوار المتبادل البريء كأننا طفلان نلهو معاً، صرحت لها بأنني لن أخبر أحداً بتلك الزيارة، أدهشها هذا متسائلة وما دخل الآخرين باستقبالي لك من عدمه؟ أوضحت لها أن طبيعة الشعب المصري تعشق الثرثرة والتحدث عن الآخرين، صمتت وقالت كما تري، حددت اسم صديقتها جارتي فأيدت رغبتي في ذلك.

نهضت راغباً فى العودة لمنزلي فرجتني أن أجلس بعض الوقت لأن والديها سوف يتأخران فى العودة ولهذا ستظل جالسة بمفردها فليس لها صديقة تؤنس وحدتها ولا أشقاء تلهو معهم، جلست صاغراً وطال الحديث بيننا الذي تبدل وأصبح أكثر تقاربا.

شعرت بأنه يجب عليّ المغادرة ؛ فقد تأخر موعد عودتى للمنزل وسوف تغضب أمي من هذا وتوقع عليّ عقابا في الصباح الباكر بالعمل على نظافة الشقة بدلا منها، حاولت نورهان أن أظل معها بعض الوقت لكنني صممت وأخبرتها بما سوف ينالني من عقاب والدتي فضحكت لهذا وكادت الدموع تغادر عيونها الجميلة، نهضت تودعني حتي باب الشقة؛ هبطت درجات السلم بهدوء وفي آخر التقاء النظرات أشارت بيدها بما يعني "باي باي" ثم علا صوتها .. متنساش .. الأسبوع اللي جاي .. ضحكت رغم أنفي معلقاً:

. علي كده بعد شهر باباكى حيقلع كل ضروسى .. ضحكت معلقة بصوت خافت: ح أعوضك بضروس لؤلؤ!!

سرت فى الطريق إلي منزلي وكلمة لؤلؤ تطن في أذني .. ياه يا نورهان

.. كلامك حلو .. ضروس لؤلؤ .. ما أجمل هذا التعبير .. فعلا الجميل يفضل جميل ويقول كل حاجة كويسه.

وصلت المنزل فاستقبلني أخي الأكبر بوجه عابس متسائلا أين كنت؟ (بتُعُر وتلف) حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ لم أستطع الإجابة ولكن الإجابة جاءت منه حيث لاحظ انتفاخ خدي الأيمن فتساءل عما حدث لي وهل تشاجرت، أخبرته بأنني شعرت بتعب وتوجهت للطبيب فخلع ضرسي لأنه مصاب، طلب مني التوجه للنوم والراحة أما إذا كنت في احتياج معاونة فعليك إخبار أمنا وإيقاظها من نومها، رغبت أن تظل أمي فى نومها فهى طوال اليوم تتحرك لخدمة الجميع بالإضافة إلي حديث عمتي المستمر معها.

هكذا توجهت لسريري المتواضع وألقيت بجسدي المنهك فوقه بعد أن استطعت استبدال ملابسي بصعوبة، كان النوم مريحا بكل المقاييس ولم أنتبه لانبلاج نور الصباح إلا حينما سمعت نداء أمي عال الصوت بأنه عليّ النهوض والتوجه لشراء عيش وفول وطعمية وجريدة الأهرام كي يقرأها أبي، كان هذا هو حالنا في المنزل؛ حيث يقع عبء شراء كل متطلباته علي شخصي؛ فلا يجب علي أخي الأكبر أن ينزل بمستواه لهذا الحد كما أن من يتبعني عمرا بنات ولا يجب عليهن التوجه ومزاحمة العامة لشراء ما تحتاجه الأسرة؛ لذا فقد وقع عليّ عبء شراء كل ما يحتاجه المنزل أما ليلا فأكلف بالتخلص من القمامة بتفريغ عبوتها في عبوة كبيرة علي ناصية الشارع وفي بعض الأحيان عليّ حمل شقيقتي الرضيعة حينما تكون أمي محملة بأعباء كثيرة.

مضي علي زيارتي لنورهان أسبوع؛ كنت أشعر بكل معاني السعادة وانعكس هذا علي تحصيل دروسي والمواظبة علي الذهاب للمدرسة بل

المزيد من المساعدة لأمي وعدم الغضب من أوامر أخي الأكبر المستمرة وغير المبررة حتى وصلت بأن ينادي عليّ كي أناوله كوب الشاي الذي تركه بجوار الكرسي الآخر قبل أن يستبدل مكان جلوسه، كل هذا لم أعد أشعر بضيق منه، وهذا نابع من تلك الصداقة الجديدة علي حياتي.

الحب لحن جميل

كثرت اللقاءات بمنزل نورهان وأصبحت أشعر بأنني أحد أفراد الأسرة فالخالة سامنتا والدة نورهان أصبحت تعتبرني ابناً لها كما أن الخواجة أندريا يجالسني فترة الراحة من العمل إذا كنت متواجداً يفتح معي موضوعات شتي سياسية ورياضية عن الدوري العام لكرة القدم ويعبر عن وجهة نظره في الأغاني المصرية المنتشرة تلك الأيام، كان الرجل محباً لمصر والمصريين:

- اسمع أسامة .. أنا جيتو لمصر عام ١٩٤٠ وخرب عالميه بدأت تستعل فى أوروبا، تركت وطني أرمينيا وهربت مع البابا والماما وسقيق أكبر مني بعسرة سنه، دخلنا إلي تركيا ومنها إلي سوريا ثم مصر، تعرفت على زوجة سامنتا في باخره وإحنا جايين من سوريا لمصر، بعدها بكام سنه جبنا بيبي جميل نورهان، أنا درست طب أسنان فى جامعة بأرمينيا واستكملته بجامعة كاهرة، تخرجت وجيتو إلي الزقازيق بلد هادي وناس طيب كتير، سوف أسامة أنا هنا من سنه ١٩٤٤ كنت أنا وسمنتا لسه عرايس، بعدها بواخد سنه جت نورهان.

هنا فى زقازيق جاليه من أرمينيا ومن يونان، إحنا نخب بعض كتير نخب مصر كتير، سعب طيب وراضي بخياته، أخلم بيوم أعود أرمينيا وتكون خره من إختلال روسي وخس كتير، أسوأ خاجه الغربة واختلال أرض وطن، أنا أخب جمال عبدالناصر كتير، سعب أرمينيا يخبه خالص زى سعب مصر.

مازالت العلاقة بيني وبين نورهان علاقة صداقة بين جنس واحد مع اختلاف بسيط هو التحفظ في الكلام وعدم التحلل من ملابس أي منا أمام الآخر، كانت نورهان تتساءل فى كثير من الأحيان، هل أشعر بضيق بأن آتي إليها كل أسبوع؟ كانت إجابتي توضح بأن هذه أكبر سعادة أشعر بها شعرت نورهان بأنني شاب بسيط لا يعلم أي شيء عن الحب وتنهداته فجميع أحاديثي مع الأصدقاء بالمدرسة إما تنصب على كرة القدم أو التحدث عن ملابس البنات اللائي يمرن بالشارع أو أن هذه الفتاة جميلة والأخرى تشبه أم قويق؛ لم يصل بنا العمر والتجربة إلي بدء علاقة حب كما كنا نسمع أو نشاهد في الأفلام المصرية كما أن تلك الأفلام كانت تحدد مرحلة الحب بالمرحلة الجامعية أو بعد التخرج، وبهذا كنا نشعر أننا لم نصل لتلك المرحلة.

في بعض الأحيان كنت أشاهد نظرات ناعسة من نورهان تشعرني بخجل وفورة في جسدي وتدفعني كي أدقق النظر بها أكثر مما سبق منذ بداية تعارفنا، لكني خشيت غضبها مما يدفعها للشعور بالضيق بأنها فتحت باب منزلها لي كصديق وأخ وهى الأجنبية وأتعامل معها بتلك النظرة غير الإنسانية، كانت الأعياد المسيحية فرصة لنورهان كي تشاهد الكثير من أبناء وطنها حيث تسافر مع أسرتها إلي القاهرة وتلتقي بالعديد منهم وبالطبع تلتقى ببعض الأقارب.

حين عودتها من رحلاتها تلك كانت تقص عليّ كل شيء حدث وتعلق على كل ما شاهدته، إحدي المرات أخبرتني بأنها أخبرت قريبتها صوفيا المقيمة بالقاهرة بمستوي الصداقة التي بيننا، أتبعت هذا التصريح بابتسامة عذبة أسعدتني، أكملت حديثها بأن صوفيا تساءلت عما يحدث بيننا أثناء جلوسنا، صمتت وطلبت مني نورهان أن أفسر ما تعتقده صوفيا، أسهبت

فى الشرح بأنها تعتقد أننا نلعب الطاولة أو الكوتشينة والسبعة الكومي نظرت إليّ معلقة:

. "سبعه كومي"!!

نهاية العام الدراسي ندرت اللقاءات لأن نورهان بدأت امتحان النقل من السنة الثانية للسنة الثالثة، بعد هذا بأسبوعين بدأت امتحانات الثانوية العامة والتي كانت تستغرق أربعة عشر يوما كل يوم امتحان عدا يوم الجمعة بعد الامتحانات سافرت نورهان بصحبة أسرتها إلي مدينة الإسكندرية لقضاء وقت ممتع على شواطئه، علمت هذا من اتصال تليفوني معها قمت به من عند بائع الجرائد عم قرني وقد كلفني هذا مصروف يوم ونصف حيث لهف منى الرجل خمسة عشر مليما حاولت الفصال معه ولكنه رفض.

فترة ما قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة قمت مثل كثير من الشباب في تلك الحقبة الزمنية بالاستعداد لتقديم أوراق القبول بالكلية الحربية أو الجوية أو البحرية فى حالة النجاح بمجموع يساعدني علي ذلك.

كنت أقوم بالتدريب اليومي سواء بالعدو لمسافات طويلة بين القرى أو التدريب على التمرينات الرياضية المطلوب الاختبار بها، كانت تمرينات سويدية اشتريت كراستها من مبني الكلية بمصر الجديدة نظير خمسة قروش، كنت أقابل بعض المصاعب في التدريب؛ فلا يتوفر نادي رياضي به حمام سباحة سوى حمام سباحة صغير بالمدرسة الثانوي نظير اشتراك ثلاثة أشهر قيمته جنيه واحد لقيت الكثير من عنت والدي ورفضه دفع لحلوح من أجل هذا الغرض وتفتق ذهن أمي بأن طلبت منه دفع الجنيه على أن أقوم بسداده بالعمل فى جمع محصول القطن وأعمل مثل باقي الفلاحين الذين يستأجرهم بالأرض.

في أحد أيام التدريب بالعدو شاهدت بعض الكلاب نابحة تعدو فى

أثري وقد أخافني هذا التصرف منها؛ فقد كنت أعدو قريبا من زمام قرية قريبة من المدينة لكن سيدة عجوزاً سامحها الله صرخت قائلة حرامي وهنا أسرع القعيد للإمساك بي كما أسرع الكفيف لإرشادهم بمكاني ووصف لملابسي وأسرع الأطرش إلي الإفصاح بما سمعه وانتوته أفكاري من السرقة، أصبحت محاصرا واقتادني أحد الخفراء إلي سلاحليك العمدة، هذا السلاحليك يعتبر في مجتمع القرية كأنه سجن القلعة.

جلس العمدة يفتل شاربه مستفسرا مني عما أقوم به، أوضحت له المهمة، نهض الرجل واقفا مندهشا متسائلاً هل سأصبح ضابطا زميلا لعبدالحكيم عامر وجمال عبد الناصر، أيدت ظنونه وأخرجت كارنيه حمام السباحة وأخبرته بأن هذا كارنيه أعطته لي المخابرات كي أتدرب في أي مكان، لقد تعطلت هذا اليوم، أعلنت له أسفي بأنني سوف أخبرهم بهذا كاد الرجل أن يركع أمامي طالبا مني الصفح وقبل رأسي، وغادرت القرية بعد أن صفحت عنه وبعد أن حملني ببعض الهدايا من البط والأوز وعدد من أزواج الفراخ العتاقي وخبز فلاحي وجبن وعسل وقشدة.

عادت نورهان من الإسكندرية، بعد هذا بيومين ظهرت نتيجة الثانوية العامة، وقد شرفت بالنجاح والتوفيق ولكن بمجموع متوسط يسمح لي بالقبول بكلية المعلمين "التربية حاليا" أو كلية الزراعة جامعة أسيوط، ولهذا كنت أتبادل معها المشورة؛ حيث كانت تعتقد أن كلية المعلمين أفضل من كلية الزراعة البعيدة جغرافيا، وهذا لن يساعدنا علي اللقاء علي فترات قريبة، أخبرتها بأنها سوف تصبح مشغولة هذا العام فقد أصبحت أمامها شهادة الثانوية العامة كما أخبرتها بمحاولة الالتحاق بالكلية الحربية فأسعدها هذا كما أسعد الدكتور أندريا معلقا أن البلد التي تمتلك جيشا قوياً تفرض شروطها واحترامها على الآخرين وتؤمن شعبها.

انشغلت فى اختبارات القبول بالكلية الحربية والكشف الطبي وكشف الهيئة، بعد هذا بأسبوعين ظهرت النتيجة وتم قبولي بالكلية الحربية ضمن الطلبة لهذا العام، كانت السعادة غامرة في بيتنا وبيت نورهان، لم يصب الحزن والوجوم أحد سواي؛ لأن هذا سوف يحد من لقائي مع نورهان والتي شعرت بمدي ميلي نحوها وشعوري بالسعادة حينما أشاهدها أو أسمع صوتها.

التحقت بالكلية الحربية وظللت بداخلها دون الحصول علي إجازة قرابة الخمسين يوما خرجت بعدها وأنا أتلمس الشوارع والحارات كأنني غريب عن تلك البلدة أو كأنني مهاجر سنوات طويلة عن الوطن وعدت لأجد كل شيء قد تغير، هذا ما شعرت به ولكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير هي نورهان التي استقبلتني استقبالا سعيداً بهيجاً كادت فيه أن تحتضنني لولا إنني كنت أرتدي ملابسي العسكرية، ووقفت أمامها فى وضع متصلب فشعرت بأن هذا التصرف لا يجب أن تقوم به.

مضت الشهور ونجحت نورهان في الثانوية العامة، والتحقت بكلية الصيدلة جامعة القاهرة، أقامت بالمدينة الجامعية وهذا أسعدني حيث كانت تتم لقاءات كثيرة بيننا بالقاهرة رغم احتجاج أمي لعدم زيارتي لها كل أسبوع شعرت بحب جارف نحو نورهان وبالتالي بادلتني نفس المشاعر لكن الدراسة أثرت على حريتها وبالتالي على عدد اللقاءات بل واندفاعها السابق نحوي.

***

منتصف العام شعرت بفتور في العلاقة بيني وبين نورهان، فى البداية لم أتبين تأثيره عليّ نفسياً لدرجة كبيرة فبعد أن تعدينا مرحلة المراهقة سوف نكلل مجهودنا بالتخرج والعمل، ويصبح هذا حالنا، رضخت للأمر الواقع

ولم أعد أتوجه للقائها وأيقنت بأنها التقت بأحد الشباب من موطنها استطاع أن يميل قلبها إليه؛ أنهم قوم يمتازون بالوسامة والجمال، ساءلت نفسي وأجبت عليها، ماذا أفعل؟ لن أجبرها على مواصلة حبها لي أما أنا فلي الحق في الحب من جانب واحد رغم ما يسببه لي من ألم حاد.

عام ١٩٦٦ تخرجت في الكلية الحربية، وحصلت على إجازة جميلة قبل الالتحاق بالعمل الفعلي بالوحدات العسكرية المنتشرة في المنطقة الشرقية على قناة السويس أو سيناء أو قطاع غزة أو اليمن، مساء أحد الأيام وأنا أسير على مهل بأحد شوارع مدينة الزقازيق الهادئة علي بحر مويس شاهدتها تسير بصحبة شاب تبين لي أنه جبرائيل، الشاب الذي استبدلني والدها وخلع ضرسي بدلا منه، شعرت بفورة في دمائي وانزويت بأحد الأجناب بعيداً حتي لا تراني؛ ليس خشية منها ولكن رأفة بمشاعرها، لقد أحببتها كما لم يحب أحد من قبل؛ فهذا هو الحب الأول الذي يشبه قلم رصاصٌ خط به علي صفحة بيضاء عذراء فإذا رغبنا في طمسه وإزالته يظل أثراً باقياً منه يحكي ما حدث ولماذا حدث.

تواريت عن بقايا القلم الرصاص الذي خطط خطوطاً واضحة مازالت ظاهرة علي قلبي وعواطفي؛ ليلا في منزل أسرتي هاجمتني المشاعر الفياضة النبيلة التي كانت بيننا، ظلت تلك المشاعر تحيط بى حتي أشعلتها رؤيتي لها منذ ساعتين وهي تسير بصحبة جبرائيل، هاجمتني دموع الأسى والفراق وشعرت ببكاء حار لم أزرفه من قبل فأنا عزيز الدمع لكن لمست عزيز الفراق ودماء القلب النازفة، تقلبت على نار غير منظورة، نهضت وتوضأت وصليت لعل نار الفراق تبرد من حالي وتزول من علي قلبي الذي غله الهجر والنسيان.

صباحا كنت أحسن حالا، تركت المدينة عائداً إلي القاهرة رغم أن

إجازتي مازال بها يومان، قضيت اليومين على ضفاف نهر النيل، أناجيه ويناجيني، أسأله النصح والإرشاد فيخبرني بحال إيزيس وأوزوريس أطلب منه التوضيح فيرسل بى إلي كلوباترا، أيها النيل نجاشي لماذا تفعل هذا بى؟ فأنا التجأت إلي يمك بعد أن التجأت إلي الله، أري إنكم جميعا قد اتفقتم على وأد حبي في بداية عهد الفؤاد، سوف أظل صامداً قوياً لا آكل ولا ألين، لن أعود إلي البكاء مرة أخري، سوف أطلب منه أن يتركني ويعطيني حريتي من هذا الحب وذاك العناء وسأقتفي سيرة المحبين المخلصين وأقول "ضحيت هنايا معاكي وح أعيش علي ذكراكي".

أصابتني حمي البكاء الصامت تلك الليلة حينما شاهدت هديتها لي عبارة عن قلب من الفضة خط عليه بالذهب اسمي واسمها، لماذا ضاع كل هذا؟ لماذا تلاعبت بقلبي وعواطفي وجوارحي؟ إن جراح الفؤاد لا علاج لها أما جراح الدماء فلها علاج، ياليتني ما تعرفت عليكِ ولا أحببتك، لقد أصابني الضرر من حبها أكثر ما أصابني العائد من هذا الحب.

في محيط العمل تم توزيعي علي إحدى الوحدات العسكرية المحيطة بالقاهرة، أحد الأيام بعد أن تأخرت في العمل وكان يوم خميس أقلتني سيارة جيب عسكرية إلي محطة السكة الحديد بميدان رمسيس، ركبت قطار السابعة إلا ربع وهو قطار يبدأ خط سيره من القاهرة حتي يصل بورسعيد جلست في عربة الطعام، هي عربة فاخرة كي أتناول الشاي مع البسكويت أقبل الجرسون يسألني عما أريد فأخبرته كوباية شاي وقطع من بسكويت البلح، سمعت صوتاً نسائياً قادما من الخلف يبلغ الجرسون بأن يجعلهم كوبايتين من الشاي.

كان الصوت واصلا إلي قلبي وليس لأنني، هو صوت أحفظه، وأشم رائحته عن ظهر قلب؛ هذا الصوت استمر معي خمسة أعوام، تعتبر من

أعوامي الجميلة، جلست أمامي تنظر إليّ بعينين خضراوين جميلتين ساحرتين:

. أسامة .. أحبك ..

لم تهزني تلك الكلمة؛ فالكلام سهل ولكن الواقع والرؤيا والأحداث أشد .. نظرت إليها ببسمة ساخرة فقطبت ما بين حاجبيها متسائلة:

ـ فيه إيه؟ معنتش عايز حبي، نسيتني الكام شهر اللي فاتوا وأنا نفسي أقابلك وأكلمك وأسند رأسي علي كتفك وأقولك على كل حاجة

أقبل الجرسون فصمتت وبعد أن غادر أكملت حديثها:

. أسامة .. أنا كنت بأمر بظروف صعبة جداً .. بابا وماما حاولوا يقنعوني بالعريس اللي اتقدم ليا وهوه مش غريب، البابا بتاعه والماما كمان من قرية جنب قرية بابا فى أرمينيا ..

أكمل على حديثها ...

. وتلاقيه عايش في الزقازيق كمان!

ـ فعلا عايش في الزقازيق .. ياه .. يا أسامة محدس بيحس بيا غيرك سوف إحساسك بيا وصل لفين

. بعدين إيه اللي حصل يا نورهان؟

. ما فيس؛ أول لقاء بالمنزل والتاني بره علي كورنيس المدينة، مس سعرت ناحيته بأي هاجه خالص .. مس ينفع أسامة

. طيب مين اللي ينفع؟

. ما فيس غير واخد خبيب اسمه أسامة

. سيبك من البكش ده وخلينا أصحاب .. يمكن ينفع؟

. باقول لك ما فيس غير أسامة

. طيب لما ما فيش غير أسامة بتجربي حظك مع بلدياتك ليه؟

. مس يحصل أبدا؛ لكن تحت ضغط بابا وماما ولما عرفوا إن ما فيس خب خلاص سكتوا.

ظل الحوار قائماً والحديث هائماً حتي وصل بنا القطار إلي مدينة الزقازيق؛ سرنا معا وكنت في حرج وأنا أرافق فتاة جميلة وأرتدي البدلة العسكرية لأن هذا مخالف للتقاليد العسكرية المصرية .. وصلنا إلي باب العمارة فطلبت مني الصعود فشكرتها لأنني متعب؛ حاولت الحصول على موعد سواء باكر بالزقازيق أو بالقاهرة فأخبرتها بأنني سوف أراجع مواعيد النوبتجيات في العمل وأخبرها بها تليفونياً بالزقازيق .. قبل الوداع صافحتها ببرود وعيناها تنظران إليّ محاولة اختراق أغوار نفسي ثم سقطت دموعها وفرت من أمامي هاربة.

عدت إلي منزل أسرتي وأنا أشعر بانتصار عليَ منْ حطمت قلبي وكبريائي؛ ظل هذا الشعور يلازمني حتي دخلت فى النوم .. استيقظت منتصف الليل وأنا أشعر بتأنيب للضمير والحزن الدفين في قلبي لتصرفي القاسي معها، لقد اعترفت لي بكل شيء، ليست راغبة في أحد سواي يجب عليّ أن أقدر ظروفها وأحوالها، ما كان يجب عليّ التعامل معها بتلك القسوة والفظاظة، قررت بأن أبدأ صباحي بالتوجه إلى منزلها أو أتحدث معها تليفونيا من عند عم قرني بائع الجرائد.

نهضت صباحاً وجلست مع والدي والإخوة الذين نهضوا مبكراً علي غير عادة يوم الجمعة كي يلتقوا بى، اعتذرت عن تناول طعام الإفطار وارتديت ملابسي الجديدة الفاخرة بعد أن تخلصت من قميص الأوكازيون والبنطلون الوتر بروف، اتجهت إلي العمارة التي تقطن بها نورهان، مجرد أن صعدت بضع درجات على السلم حتي شاهدتها أمامي مرتدية ملابسها حاملة حقيبة ملابسها.

توقفنا نتبادل النظرات، تساءلت:

. ليه؟ .. بكت بدموع واضحة تلين قلب القاسي العتيد

ـ أنت مس عايزني، مس تهبني .. أمسكت بحقيبتها، واقتربت منها واحتضنتها علي السلم وكاد الحضن يطول لولا أنني تنبهت لسماع صوت أقدام أحد السكان هابطا الدرج، صعدنا إلي شقتها، واستقبلتنا أمها بابتسامة طيبة ومازالت دموع فراق ابنتها منذ عشر دقائق بعيونها تخبر الجميع بمدي حب الآباء والأمهات لأبنائهم.

تبدل الحال وطارت الدموع وتبخرت، وأقبلت الأحلام وتربعت وتطايرت الضحكات بأرجاء المنزل وتناثرت، وتشابكت العيون قبل الأيادي وتحركت ورقصت القلوب سعادة وتمايلت، تناولنا طعامنا وبدأنا طعامنا بالحلو وانتهي بالحلو ولم يتبين لنا هل أكلنا البيض والجبن والبسطرمة أم لا، جلست بحجرتها لأول مرة منذ تعارفنا؛ سمعت قلبها قبل لسانها، صافحت فؤادي قبل أن تصافح يدي، اقتربت منها محاولا طبع قبلة الحب والتصالح وضعت بطن يدها علي شفتي فقبلتها، صبغت حمرة الخجل وجنتيها،عادت برأسها للخلف تستند على ظهر كرسي الفوتيه وأشارت بأصبع السبابة:

. أسامة: يا تكون سبب سعادتي يا تكون سبب غلبي وعذابي .. مس آيز أسمع كلمه، اسكت وخلي عيوني تتغذي بكل مساعر طيبه أهملها " أحملها " لك ، خلاص سكت الكلام.

هكذا عاد الحب والوئام بيننا، أصبح يعتريني سؤال ملح: هل من الممكن أن أتزوج نورهان وهى ليست مسلمة وليست مصرية؟ وأنا ضابط بالجيش المصري وتصبح هناك علامات استفهام حول تلك الزيجات، بل أن بعض الضباط حالهم مثل حالي لكنهم أكبر مني عمراً ورتبة، لقد صادفتهم تلك المشكلة؛ البعض استطاع حلها باتصاله مع القيادة العامة سواء بالمشير

عامر شخصياً أو عن طريق بعض المقربين منه والبعض الآخر فشل فى حلها؛ فالزواج من أجنبية يتطلب الحصول على تصديق وموافقة من وزير الحربية شخصياً .. أنها مسألة في غاية الصعوبة؛ لم أستطع العثور على حل لتلك المشكلة حيث كان صديقاي منذ المرحلة الثانوية واللذان شاهدا وعاصرا بداية قصة حبنا قد تساءل أحدهما أيضا عن صعوبة إتمام هذا الزواج ومن ناحية أخري هل يمكن أن توافق أسرتها علي هذا الزواج بك بعد أن علمت من والدها أن زواج الأرمن يتم بين العائلات المهاجرة من أرمينيا ولا يتدخل الأغراب في تلك الزيجات إلا فى حدود يسيرة.

شعرت بأن مجري دماء الحياة قد بدأ يستعيد نشاطه، وأن ريحانة عطر الدنيا بدأت تشيع عطرها بالوجود، حينما كنت أشاهد نورهان أشعر بأن السحر والجمال يسير علي قدمين، كنت سعيداً ومتيماً بها .. فقد كانت تملك الكثير من نواصي الفتنة والجمال، كنت أتساءل في بعض الأحيان هل مرآة الحب عمياء كما يقول المثل الشعبي لكن تأكد لي بأن كل إحساس لدي سواء من تأكيد أصدقائي لي أو من نظرات البعض ومن سماعي لبعض تعبيرات طائرة تحط علينا أثناء سيرنا بأماكن بالقاهرة حين اللقاء تؤكد لي فتنة وجمال نورهان، كنت أحسد نفسي في بعض الحالات كما كان يعتريني خوف من مجهول قادم في مستقبل تلك العلاقة ولم تكن هناك بوادر تنبئ عن هذا المجهول.

مايو من عام ١٩٦٧

فى آخر لقاء تم بيننا اتفقت مع نورهان علي عدم اللقاء إلا بعد أنْ تنهي امتحان هذا العام وقد قارب موعد تخرجها في العام المقبل، وافقت علي مضض مؤكدة لى أنها تستطيع توفير الوقت التي سوف تمضيه معي بأحد الكازينوهات المنتشرة علي نيل مصر فى منطقة الجزيرة، كنت ميالا إلي الحصول على وقت تفرغ من اللقاءات حتي أتفرغ للتدريب الذي أمر به قائد الوحدة التي أنا أحد ضباطها.

مضي علي هذا الفراق الطوعي أسبوعان، أصبحنا في منتصف شهر مايو من عام ١٩٦٧ وقد تبقي علي امتحان نورهان أسبوعان بعدها تستمر ثلاثة أسابيع وتحصل علي إجازة العام الدراسي، شعرت بميل يدفعني دفعا إلي لقائها، قررت أن ألقاها نهاية الأسبوع القادم، ولهذا قررت السفر إلي الزقازيق للقاء أسرتي حيث مضي أكثر من شهر لم أشاهد والدئ وإخوتي هناك ألتقي بنورهان وأجلس معها ساعتين بمنزلهم أعيد شحن عدسات عينئ برقتها وجمالها وألهب أذني بسماع بعض عبارات الثناء والمديح في حقي كعادتها معي.

منتصف الأسبوع انقلب الحال، ولم يعد هو الحال وكأن لوحاً من الزجاج الجميل قذفه أحد العاطلين بحجر ضخم فتكسر إلي شظايا فألهب أجساد البعض وقضي علي البعض وفضح المستور في عالم النور، إنها أحداث عام ١٩٦٧ ورفع درجات الاستعداد وإعلان حالة الطوارئ ودفع القوات المسلحة إلي سيناء دفعاً دون روية كأن ثورا هاج مرة واحدة يهاجم الناس فخرج عن نطاق السيطرة، دفعت مع جموع الجنود إلي سيناء، لم أستطع أن التقي بنورهان فقد حصلت علي إجازة ست ساعات لا

تكفي الذهاب واللقاء بالأهل بالزقازيق والعودة؛ لهذا قررت التوجه إلي المدينة الجامعية وقضاء ساعة بصحبة نورهان أتشبع برؤيتها وأتعطر من أنفاسها الطيبة، هناك في المدينة الجامعية أخبرني المسئول بأنها في إجازة قصيرة مثل باقي الطالبات بعد الانتهاء من الاختبارات بالمعمل وهن يعددن أنفسهن لامتحان آخر العام ومن أجل هذا فقد أصبحت المدينة شبه فارغة.

عدت حزينا بضياع حلم الساعة أو الساعتين، ولم يعد أمامي سوي واقع الحرب التي بدأت طبولها تدق بعنف ونحن الشباب وقودها وضحاياها، بسيناء حدث ما لم أكن أتخيله؛ لو أخبرني به أحد سواء ما حدث من هرجله وضحايا وخسائر انتهت بصدور قرار انسحاب الجيش لما صدقت ما رأيت، استعدت وحدتنا علي الخطوط الأمامية للعودة إلي المنطقة التي صدرت الأوامر بالعودة لها، لكن كمين لوحدة مدرعة إسرائيلي نصب لنا فاحترقت لواري بمن فيها وسقطت أنا بداخل اللوري مقلوبا على قمة رأسي وأصبحت محاصراً بداخل الكبينة التي أحكمت إغلاق أبوابها بسبب التواء الصاج الخارجي؛ فقد كنت مصاباً بطلق ناري بكف يدى اليمنى ثاني أيام القتال، ظللت علي حالي حتى أقبل بعض الجنود وسمعوا استغاثتي واستطاعوا إخراجي من كبينة اللوري بعد أن كدت ألفظ أنفاسى من حبسي بداخله لأكثر من ثلاث ساعات بوضع معاكس لوضع بني الإنسان.

حدث هذا مساء السابع من شهر يونيو عام ١٩٦٧ ، بعد أن تحررت من حبسي بكبينة اللوري بدأت رحلة العودة، لقد كانت أشبه بالمعجزات وقد حكم علي شباب مصر بأن يلقوا حتفهم سواء من العدو أو من العطش او ضربات الشمس الموجعة أو من تجار المخدرات وهجوم أسراب الغربان المفترس أو ذئاب الليل الجائعة والبعض هاجمته الضباع، لقد كان نهار

سيناء نهاراً ظالماً قاتلاً؛ فمن حرارة شديدة أنبلت الأجساد المحترقة أو من ضوء ساقر ساطع لفترة عشر ساعات فألهب العيون وأحرق عدساتها الحزينة التائهة، هكذا غلبنا علي أنفسنا وظللنا لمدة خمسة أيام دون ماء أو طعام حتي أرسل الله إلينا بأحد عباده من أبناء سيناء الطيبين فروي الظمأ وملأ البطون وهدأت النفوس الملتاعة الجزعة المتخوفة.

اليوم التالي لهذا اللقاء النوراني بهذا البدوي التقينا بفصيل آخر معاكس عنه؛ بدوي سيئ الخُلق والخِلقة؛ طلب منا مئة جنيه نظير مد يد المساعدة كي يوجهنا إلي الطريق الصحيح، لم نكن نملك هذا المبلغ فكل ما معنا قروش قليلة ونحن في بداية الشهر ولم تصل الرواتب العسكرية إلينا، فقد تم الانسحاب ولا نعرف أين نحن وإلي أين نتجه؛ قرر مسعد البدوي الهمجي تخفيض الإتاوة من مئة جنيه واستبدالها بالحصول علي ساعات يدنا نحن المستة وفشلت كل مفاوضات الإقناع بترك ولو ساعة واحدة لنعرف منها التوقيت، لم يرضخ لرجائنا ورضخنا نحن.

سرنا ٥٥ كيلومتراً في فترة زمنية مدتها ست عشرة ساعة تخللها راحتان كل راحة ساعتان ووصل بنا شقيقه الأصغر الذي رافقنا إلي منطقة آمنة علي حد قوله بها الماء والطعام؛ تركنا نعتمد علي أنفسنا حيث كان الله معنا فنحن المستة لا نعرف من سيناء سوي اسمها فقط، سارت بنا الحياة يوم عمل وأيام سوداء حارقة قاتلة؛ شاهدنا خلالها كل ألوان العذاب الذي تحالف فيه بنى البشر مع الطبيعة ضدنا، لقد تحالفت الطبيعة مع الأعداء مع تجار المخدرات مع الذئاب والأفاعي ضدنا من أجل هلاكنا والقضاء علينا وكلما خارت قوانا واقترب الموت منا أنقذنا الله بملائكته الذين يوجهون عباده لمساعدتنا.

كانت سيناء هى حقل للنفي والقتل المؤجل التنفيذ لشباب مصر اليافع

والذي ينحصر عمره ما بين العشرين والثلاثين عاماً وهى أحلي فترة في حياة أي شاب، ظللنا علي هذا الحال ولم نعد نعلم أي يوم نحن وتاريخ هذا اليوم فقد نفضت صعوبة الحياة ذاكرتنا وكل ذكري ولم يعد هناك سوى رمال تنتظرنا للقضاء علينا، كانت نزهات عيوننا التعيسة هى ما تقع عليه من أجساد شباب تهتكت أجسادهم تحت نيران العدو أو جنازير دباباته أو عطشا أو إصابة لم تعالج وسببت لهم التسمم ومات الشاب وأصبح جسده ملقي بالصحراء تلتهمه الضواري وتعبث به الطبيعة.

تعاقب علينا الليل والنهار ونحن لا نعرف ما يحدث حولنا حتى أن قرار تنحي الرئيس جمال عبدالناصر لم نعرف به إلا بعد عدة أيام من أحد البدو صدفة، كنا بعيدين عن الحياة الإنسانية فنحن أقرب إلي الحيوانات الضالة التي تبحث عن الشراب والطعام، لم يعد هناك شيء ما يبين إننا من بني البشر سوي سيرنا المترنح علي أقدامنا التي تورمت وأصبحت عاجزة عن المساعدة والبحث عن المياه والبعد عن خطر الأعداء الذين يقتلون من تقع أعينهم عليه دون رحمة أو إنذار.

كنا نسقط في بعض الأحيان من الإعياء واليأس من النجاة وتخرج بعض الدموع المتحجرة من عيوننا الجافة، كانت دموعاً حارقة فلا توجد مياه ترطب العين والجفن، وصلنا إلى حالة من انكماش البدن، كان من الطبيعي تساقط بنطلون الأفرول مما دفعنا كل عدة أيام إلي تضييق القايش الذي يحفظ البنطلون من السقوط.

شرف للعسكرية المصرية رغم الهزيمة

ونحن على هذا الحال بين كر وفر وخوف وشجاعة مع الأعداء وبعد تحقيق نجاحات لعمل عسكري غير مخطط لكن الله كان معنا فى كثير من الأوقات، لو لم يكن الله معنا لهلكنا في بداية طريق العودة لقناة السويس دخلنا مع العدو في معركتين مجبرين عليها ولم يكن هناك تكافؤ في العدد والعدة:

***المعركة الأولي:**

صباح أحد الأيام وقد أضنانا العطش والجوع، فمنذ يومين لم نشرب شربة مياه وقد أثرت بنا درجة حرارة الصحراء الباردة ليلا فمع العطش والجوع تقلصت أطرافنا وتيبست ومن حولنا صحراء شاسعة لا نهاية لها ولا تدل الطبيعة هنا إننا سوف نعثر علي بدو أو مياه؛ نشرت شمس الأصيل بساطها الأبيض من حولنا، بدأنا نشعر بالدفء يسري بأوصالنا ونحن في انتظار حرارة الصحراء ولهيبها؛ فجأة شاهدنا سيارة جيب عسكرية قادمة في اتجاهنا من بطن الوادي للمرتفع الذي نجلس عليه، اختبأ الجنود وخشينا العدو؛ لكن أحد الجنود اعتقد أنها سيارة عسكرية مصرية؛ نهض مسرعاً مشيراً إليها مناديا على من فيها مردداً " يا دفعه" لكن أحد الجنود جذبه أرضاً وفي تلك اللحظة انطلقت من السيارة المسرعة المتقاطعة علي خط البصر أمامنا دفعة نيران من الرشاش بداخلها وفجأة أطلق أحد جنودى نيران البندقية الآلية في اتجاه السيارة مباشرة، فجأة اشتعلت بها النيران وانفجرت في ثوان قليلة، لم نكن نحسب حساب ما حدث؛ فهذا معناه قتال مع العدو ونحن منذ سيرنا منذ عشرة أيام نتجنب قواته وطائراته؛ نحن لسنا في وضع المقاومة والقتال فكل همنا العودة إلي قناة السويس تنفيذا

للتعليمات بالانسحاب.

بعد انفجار السيارة تطايرت منها جثتان؛ السائق الذي قتل في الحال وتضرج في دمائه والجثة الأخري لمجندة إسرائيلية تعاني سكرات الموت والدماء تنزف من فمها وأنفها؛ تطايرت بعض عبوات كرتون فهجمنا عليها لنعلم ما بها؛ لقد كانت عبوات طعام وشراب، لم نهتم بما يدور من حولنا كنت أشاهد بقايا السيارة المحترقة والتي تدل الإشارة علي أبوابها أنها تابعة لقوات المظلات الإسرائيلية، أثناء التهام الطعام وفتح عبوات الماء المثلج أقبلت سيارة جيب كبيرة الحجم بها ثلاثة جنود؛ أحدهم ضابط والذى فتح نيران مدفعه الرشاش نصف البوصة نحونا؛ إنه مدفع قاتل ورهيب.

إختبئنا جميعاً ونحن نلهث من كثرة العدو، تبادلنا معهم إطلاق النيران لحقت السيارة الثانية بالأولي تدميراً وأصبح المكان به أربع جثث هامدة وفتاة علي وشك الموت، بعد قليل انصبت نيران مدفعية الهاون قريبة منا أسرعنا بالهرب وهبطنا المنحدر لداخل الوادي محاولين تجنب النيران الرهيبة من حولنا؛ كانت القذائف كثيرة وهي شديدة الانفجار من مدفع هاون عيار ١٦٠مم، كان هدفنا البحث عن كهف نختبئ به، بعد قليل وأثناء الهروب شاهدنا كهفاً وكان أمامه حيوان يعوي ومعه ستة من الجراء الصغيرة اعتقدت في بادئ الأمر أنه كلب كبير الحجم ولكن أحد الجنود أخبرني بأنه أنثي ذئب ومعها الجراء الستة، ماذا نفعل وكيف التصرف؟ الأعداء من خلفنا ومن فوقنا وذئب مفترس يحاول حماية صغاره.

أسرع أحد الجنود كي يقتل أنثي الذئب، فى تلك اللحظة أسرعت أنثى الذئب لداخل الكهف وخلفها صغارها، لحقنا بها لداخل الكهف دون أن نطلق عليها نيران أسلحتنا، جلسنا بداخل الكهف بجوار الأم وصغارها لم تنظر إلينا فقد هداها الله إلي أن تبتعد عنا؛ الانفجارات مازالت تطن

بصوتها خارج الكهف، بعد قليل أقبلت طائرة هليكوبتر وبداخلها جندي قناصة يعمل علي رشاش؛ اقتربت الطائرة من الكهف وهبطت قليلا حتي يتمكن القناص من القضاء علينا، أعمل مدفعه الرشاش وفجأة ظهر أحد جنودي وأطلق عليه دفعة نيران من البندقية المحشوة بالذخيرة، سقط الرشاش من يد الجندي الإسرائيلي وسقط جسده وتدلي معلقا بقايش ربطه بالطائرة، أيقنت إننا هالكون، بعد ثوان أقبلت طائرة أخري وقذفت الكهف بصاروخ جو أرض في اتجاهنا، انفجر الصاروخ أمام الكهف مباشرة ولكن لم تصبنا شظاياه، لكن الرمال المشتعلة من الانفجار تناثرت علينا وسمعنا عواء الذئب، بعد تلاشي غبار الرمال تبين لنا أن الأم هلكت ولكن صغارها مازالوا تحت جسدها وقد حمتهم وألقت بنفسها للتهلكة.

أقبلت طائرة هليكوبتر للمرة الثانية وأطلقت صاروخا وقد تأكد لنا الهلاك، انفجر الصاروخ بجسم الجبل الذي فوق الكهف، تساقطت كتل الصخور الضخمة وأغلقت علينا باب الرحمة والنجاة، سمعنا هرج بالخارج وانفجارات متتالية وبدا الصوت يخفت رويداً .. رويداً، تأكد لنا بأن العدو أيقن من موتنا ودفننا، ظللنا علي هذا الحال، أقبل الليل وفرد ستارته السوداء بخارج الكهف، وأصبح الظلام رفيقنا والموت قريباً منا فمن يستطيع إخراجنا من تلك المقبرة المهلكة؟

نمي إلي سمعنا أصوات حيوان بخارج الكهف ثم بدأ يعوى بعد أن فشل في محاولة دخوله للكهف، لقد كان الأب عائداً لأسرته من الذئاب بعد أن أحضر لها الكثير من ولائم الطعام، فشلت المحاولات، هنا صدح الصوت بعواء ذئب رهيب، بعد قليل سمعنا أصوات ذئاب أخري وتزايد العدد وكنا نعتقد بأنها أقبلت لافتراسنا لكن تبدل هذا الظن؛ فقد كانت الجراء بالداخل تحاول الخروج إلي قطيع الذئاب، نهار اليوم التالي هالنا وجود العشرات من

الذئاب بوضح النهار مخالفة لعادتها لأنها حيوانات ليلية مفترسة، بعد محاولات ألقينا بأحد الجراء لها وكانت المفاجأة؛ فقد حنت عليه الذئاب وقامت إحدي الأمهات بإرضاعه؛ كان الجرو يتلوي ألماً من الجوع ومن فقد أمه، أتبعنا هذا بالباقي، جرو يلى جرو حتي اكتمل العدد بالخارج إلي ستة.

ظللنا بداخل هذا الكهف ثلاث ليال بأربعة نهار وفي نهاية اليوم الرابع أفرجها الله علينا بأن أرشدنا لكيفية الخروج عن طريق رؤيا لأحد الجنود بعث الله بها إلينا بأن نقوم بالحفر أسفل الصخور المتراكمة خارج الكهف وسوف تتحرك الصخور وينفرط عقد تماسكها، الحمد لله لقد فرجها الله علينا وسرنا تلك الليلة سعداء بما حققناه منذ أربعة أيام بالقضاء علي ستة من الجنود الإسرائيليين.

*المعركة الثانية:

مضي علي المعركة التي قامت بيننا وبين جنود وحدة مظلات المتمركزة بجوار الطريق الأوسط بسيناء خمسة أيام وبالمصادفة أيضاً دخلنا في معركة مع العدو، أثناء جلوسنا وقبل هبوط الظلام سمعنا صوت محرك دبابة ثم فوجئنا بدخولها الوادي التي تغطيه أشجار النخيل حيث كنا نلتمس الراحة استعداداً للسير، كان من المتعذر مغادرة المكان فسوف تشاهدنا الدبابة، وتقضي علينا في الحال.

اختبئ كل منا خشية الدبابة وأسلحتها الفتاكة، بعد قليل توقفت وهبط من طاقمها ثلاثة أفراد وظل الرابع خلف الرشاش نصف البوصة لحماية زملائه، تبين لنا بأن الدبابة تسحل خلفها ستة من الجنود المصريين وأمروهم بالوقوف وتبين أن اثنين منهم توفيا مما لاقوه من التعذيب والسحل أمسكوا بالأربعة الباقين ووضعوهم أمام جنزير الدبابة وربطوا أيديهم خلف ظهورهم استعداداً للهرس، كنا قد شاهدنا هذا المنظر منذ يومين حيث لقى

ثلاثة عشر ضابطا وجنديا مصريا حتفهم تحت جنازير الدبابات الإسرائيلية وهم أحياء.

كان لابد من التصرف، كيف نختبئ وزملاء لنا سوف يقتلون غدرا رغم أنهم أسري، رتبت جنودي علي إطلاق النار علي الأشخاص الأربعة كان التركيز علي رامي الرشاش خلف مدفعه فوق الدبابة فهو أخطرهم جميعاً لم يتبقي من ذخيرة البنادق سوي اثنتى عشرة طلقة وزعت علينا بالتساوي كي نحمي أنفسنا من هجوم مباغت من الذئاب والضباع المنتشرة ببراري الصحراء.

بإشارة صامتة منى أطلقت النيران بالوضع الفردي حتي لا نستهلك الذخيرة دون القضاء علي الأعداء، تم بحمد الله القضاء علي الأربعة وكانت فرحتنا غامرة، فقد قمنا بعمل مجيد بهذا السلاح البسيط والذخيرة القليلة لكن الله بارك في كل شيء بحيث كان النصر حليفاً لنا، فككنا أربطة الرجال الأربعة وتبين لنا أن بهم رائد وملازم أول ورقيب أول ورقيب وهم جميعا من سلاح المدرعات المصري؛ زودناهم بالماء فقد بلغ بهم العطش مبلغاً، كانت ملابسهم ممزقة وبالوجه جراح كثيرة ورمال غطت العين والأنف لكل منهم، علمنا منهم بأنهم من كتيبة الدبابات التي شاهدنا ثلاثة عشر فردا منها دهسوا تحت الجنازير وأخبرونا بأنهم بعد معركة حامية مع دبابات العدو تدخل الطيران المعادي وأنهي المعركة لصالحهم وتم أسر هؤلاء جميعا بما فيهم الثلاثة عشر الذين قابلوا الله منذ عدة أيام كما أخبرنا قائدهم وهو الرائد وليم شفيق بأن دبابتين للأعداء قادمتان ومعها سبعة من جنودي الأسري.

قدم شكره علي ما قمنا به من معركة لم يشاهدها، لكنه سمع بها وشاهد نتائجها، حاولت إقناعه بأن ينضم إلينا ومن معه لنكمل مشوار الانسحاب

لكنه رفض متعللا بأنه ليس أقل شجاعة منا كي نقف بهذا السلاح الهزيل أمام دبابة قوية التسليح، تركنا واستقل الدبابة الإسرائيلية هو ومن معه، بعد قليل أقبلت دبابتان ومعها سبعة من الأسرى المصريين، أطلق عليهم هذا الضابط الشجاع ومن معه قذيفة خارق للدروع فدمرت إحدي الدبابات فقامت الدبابة الأخرى بفتح رشاشها علي الأسري فقتلوا في الحال، أطلق المصريون بالدبابة قذيفة أخري قضت علي الدبابة الثانية خلالها أقبلت اثنتان من الطائرات الهليكوبتر وتدخلت بالمعركة قام المصريون بفتح نيران رشاش الدبابة علي الطائرات فدمرت إحداها بينما قامت الأخرى بقذفهم بصاروخ دمر الدبابة التي بها الرجال المصريون الأربعة وأثناء مناورة الطائرة الثانية المتبقية اصطدمت بإحدى أشجار النخيل فانفجرت في الحال، كانت معركة عالية القيمة؛ حيث قتل جنودي أربعة من الأعداء وأسهمنا بهذا بأن يقوم رجال المدرعات بقتل ثمانية من أطقم الدبابات وأربعة من رجال الطيران في الطائرتين.

* *من كتاب الناس والحرب* .. لنفس المؤلف

لقاء غير متوقع

صباح يوم عادي مثل كل يوم؛ تحركنا من مكان مبيتنا القريب من واحة ينتشر بها النخيل بكثافة والتي شاهدناها بالأمس، لكن الغروب هبط علينا قبل أن نصل إلي مشارف الواحة بحوالي ثلاثة كيلومترات؛ طلبت من جنودي المبيت خارجها حتى لا يضايقنا القوم بألفاظ وتعبيرات سيئة المعني واللفظ كما تعودنا من بعضهم، في الصباح تحركنا بعد أن تحررت السيقان من التجمد الذي أصابنا من برودة الليل السابحة، هكذا وصلنا إلى مشارف النخيل وأسعدنا سماع أصوات الأطفال وأصوات بعض النساء الصاخبة والمتداخلة مع أصوات الماعز والكلاب كما وصل إلي أنوفنا الجائعة رائحة خبزٍ يعد، شاهدنا دخانا يتصاعد وهذا يعني لصاحب الحاجة أن هناك طعاماً وطالما هناك طعام فهناك أيضاً ماء للشرب.

هبطنا إلي ساحة النخيل نسير بين البدو وعائلاتهم، كنا قد تمرسنا علي هذا الوضع وفي غالب الأحيان نقابل برد فعل سيئ إلي أقصي درجة ومن المتعارف عليه أن البدو يملكون الكثير من نواصي اللغة العربية الغنية بالنعت والهجاء وبعض الكلمات السيئة التي لم يسمع عنها بنو البشر؛ إنها كلمات قاسية على الإنسان وبالأخص إذا كان هذا الإنسان مجروح الكرامة والكبرياء من هزيمة مدوية ومستقبل أسود وطريق عودة غير معلوم والسير ليلاً ونهاراً النوم تحت تأثير برودة تكاد تحطم العظام.

لم يعرنا أحد من البدو التفاتا أو يعطينا اعتباراً؛ لم يهاجمنا أحد منهم بتعبيرات سيئة من نوعية (*عودوا .. بعدوا .. غور يا زلمة ربنا يجطع من وشك الخير .. مصايب تترمي علينا كل صباح .. هادي الخلج الملعونه .. الله إنتجم من عمايلكم معانا .. غور والله اليهودا أحسن منكم ..*

هادي بعض الأنجاس وصلوا .. خفي يا مره وخبي صغارك والوكل ..... إلخ) من مساوئ اللسان.

وقفنا نتلفت يميناً ويساراً ونحن فى دهشة لهؤلاء القوم المخالفين لبعض من شاهدناهم من قبل، لم يهاجمنا أحد كما لم يستقبلنا أحد، نصف ساعة مرت علينا مع هذا العدد الكبير المتواجد من الرجال والنساء الذين يتحركون في الصباح لاستقبال يوم جديد دون أن يشاهدوا ستة من جنود مصر؛ كان هذا شيئاً غريباً وصعباً علي النفس حتي كاد أن يصل إلي فكرنا أننا نرتدي طاقية الإخفاء التي يتندر بها البعض، لقد تعرضنا لحالة من الإهمال الجسيم المتعمد المتقن، ألقينا علي البعض تحية الصباح فلمْ يجب أحد بل لم ينظر إلينا، لقد أصبحنا مغيبين؛ الجندي مصطفي ابن الإسكندرية قرر أن يثير انتباههم فأحدث أصواتاً بفمه والتى تعتبر معيبة والتي تحدث بين أبناء البلد فى الشارع أثناء العراك كما قام بسب وشتم البعض منهم فلم يحدث أي رد فعل.

تبانانا النظرات وتحمس كل منا الآخر؛ هل نحن أحياء أم أموات ونعيش في البرزخ ونشاهدهم ولا يشاهدوننا نسمعهم ولا يسمعوننا نشعر بهم ولا يشعرون بنا، جلسنا واستندنا بظهورنا النحيفة علي جذع نخلة مكسور وضعت أفقياً لهذا الغرض، شاهدنا أحد البدو قادماً فى اتجاهنا يعرض علينا شراء عشرة أرغفة خبز بثلاثة جنيهات وسوف يعطينا عنزة فوقها كهدية، العرض مغر لكن الرجل لم يبدأ حديثه بإلقاء تحية الإسلام أو أي ملة لكنه دخل فى صلب الموضوع، أسعدنا تحرك المياه الراكدة العفنة كما وصل إلي سمعنا عراك لفظى بين بعض النساء ورجال آخرين، وارتفع الصوت ووضحت النبرة وظهرت التعبيرات الفاضحة الماجنة بين كل رجل وسيدة وكلها تدور حول العلاقة الزوجية الفاترة والسيدة تبرر هذا إما بكلام

مستور أو بكلام فاضح مثير؛ تعددت جبهات العراك الاجتماعي ووقفنا نسمع ونشاهد تلك الأعجوبة التي لم نشاهدها أو نسمع عنها من قبل بداخل الوادي أو أثناء الانسحاب؛ شعرنا بأن هؤلاء القوم لديهم نشاط وإحساس رغم الشعور المخالف الذي وصل إلينا حال دخولنا وسط القبيلة.

لم نكن نملك من مبلغ الثلاثة جنيهات سوى جنيهين وخمسة وسبعين قرشا لي نصيب بها بخمسين قرشاً لضابط بالقوات المسلحة بداية شهر يونيه من عام ١٩٦٧، أشار مصطفي ابن الإسكندرية بأنه بالإمكان شراء ما عرضه هذا الرجل بالمبلغ المتوافر معنا، حرك الرجل ذقنه وتركنا بينما علق الجندى مصطفى قائلاً:

. المره اللي هناك عرضت عليّ التمن اللي عرضناه علي الرجل المعفن ابن .....

سحبنا العرض من الرجل ونحن نتجه الآن إلي السيدة التي أشار إليها مصطفي، كانت السيدة تقف بجوار نخلة لا يظهر منها سوي الرأس ويميزها عيون سوداء جميلة وخصلات شعر طويل وصدر يافع دون غطاء يشمله؛ فهذا للعرض على الجميع وكما يقول المثل علي عينك يا تاجر.

شعرت زوجة البائع الأول أن تلك الحسناء وراء إفساد الصفقة، تبادلن العراك اللفظي ولم أكن أتخيل في يوم من الأيام أن يحدث هذا السلوك المشين بين نساء مصريات لكن هذا ما حدث، كانت الألفاظ المتبادلة تخدش الحياء والعفة والشرف مباشرة وبإشارات باليد وبعض الأصوات الماجنة التي تدل على ما يحدث بين المرأة والرجل لحظة الجماع لكن الذي جعلني فى دهشة موقف الرجال الصامت أو الجالس يدخن سيجارة دون اعتراض أو يطلب من احداهن وقف تلك المهزلة وباقي النساء اللائي وقفن يسمعن ما يحدث ما بين مبتسمة لما يقال من كلام يثير الأحاسيس وما بين

متجهمة لأن سيرة زوجها دخلت فى العراك بأنه تعامل مع فلانة أثناء غياب زوجها وهكذا؛ كان الكلام يخالف كل قواعد الكرامة والشرف والدين لكن هذا ما حدث ولم نكن نتوقع أن صمت القبور الذي قوبلنا به سوف يصبح مهرجانا بهذا الوضع وهذا الصخب.

انتهي مهرجان الردح الجنسي الفاضح وفازت به السيدة الصغيرة التي سوف نتعامل معها بشراء خبز وعنزة، تسلل الجنود إلي مكان جلوسها بينما وقفت بعيداً خشية من ذلة لسانها علي شخصي؛ فقد شاهدت مواهب لسانها اللفظية الخطيرة وأين أنا منها، نظرت إليّ السيدة وشعرت بشعاع عيونها يجذبني مثل مغناطيس قوي بعد أن سلطه أحدهم على مسمار صغير فجذبه بسرعة خاطفة، هكذا شعرت بأني متجه نحوها ودفعها هذا للابتسام أشارت بسبابة يدها بما يعني أقبل أيها الشاب الصغير، توقفت حينما شاهدت حركة إصبعها وقد أصبحت أحصل على أمر وفى السابق كنت الذى يصدر الأوامر ونسيت أنني خارج الخدمة الآن وأن الشبكة معطلة وعليك يا أبو عويس أن تعيش وتحيا مثل باقي القطيع من حولك.

تراجعت قليلاً، نهضت المرأة وأقبلت عليّ مرحبة وتجمع الجنود من حولي وأحدهم كان ممسكا بعنزة كبيرة الحجم "جدي ذكر الماعز" والبعض منهم يحمل (طسطاً) صغيراً به دقيق وشعرت بأن الطعام وإعداده وصل لمرحلته الفعلية، طلبت مني بلسان نسائي رقيق أن أجلس بجوار خيمتها حتي ينتهي الجنود من إعداد الطعام، أخبرتها بأنني سوف أباشر عملهم وأجلس بجوارهم؛ أصدرت صوتا وكلمة بلسانها "طقطق" مش ينفع كده، أنت الظابط وهم العساكر، خليك معايا نكلم وتؤنس وحدتي، دار الحديث بيننا وأنا غافل بأنني أسير متجهاً معها إلي موقع الخيمة حيث أشارت، تفضل استرح هنا؛ ثم أسرعت بإحضار شلتة ووضعتها خلف ظهري كي أستند إلي

جذع النخلة؛ لكن الأخطر من هذا أنها وضعت الشلتة ووجهها نحو وجهي مباشرة وقد تعري جزء ليس بالقليل من صدرها فأصبح كل هذا أمامي وأنا الجائع لقطعة خبز فما بالنا بالـ ....

شـيطان أم مـلاك

تحرك جنودي الخمسة إلي الجهة الأخرى يحملون أدوات الذبح والسلخ والطحين؛ يرافقهم الجدي لأداء مهمة طيبة، كما بدت على وجوههم الفرحة بأننا سوف نحيا مثل البشر؛ بل سننهل ونستمتع بالطعام الشهي والخبز الطازج ومياه البئر سوف تطفئ عطشنا الذي لازمنا أياما طويلة حتي جفت الجلود وتشققت البشرة وتيبست العظام والعيون أصبحت ثقيلة الحركة والسمع لم يعد مرهفاً بالإضافة إلي الخوف خشية لقاء العدو الذي نصب الكمائن في أماكن كثيرة بسيناء لقتل كل جندي مصري تقع عيونهم الحاقدة عليه.

السيدة الصغيرة أخبرتني باسمها؛ إسمى " رابحة " جلست أمامي مباشرة بفتحة الخيمة الصغيرة وبجوارها صغيرها الذي بلغ العامين من عمره أو يزيد، بينما كنت أجلس ممدداً ساقايَّ وبخلف ظهري وضعت شلتة من القطن تمنع عني خشونة جذع النخلة الذي تعودت عليه أياماً طويلة أشاهدها تعد الشاي علي وابور صيني يعمل بالكيروسين، كنت في دهشة من ليونة جسدها وتحركها بدلال ورقة ومن حين لآخر تنفحني بنظرة خاطفة صغيرة تربك أوصالي وتجعلني أحاول أن أبتعد بنظري المسدد إليها مباشرة.

أنهت إعداد الشاي وقدمته لي في كوب زجاجي صغير وقد غلفت الكوب بأصابعها الرقيقة البيضاء، شكرتها وهممت بمسك الكوب ظلت أصابعها عليه مما جعلني أقبض علي جزء من تلك الأصابع البيضاء الناعمة، تنظر إليّ محذرة من ترك الكوب فيسقط ويؤثر هذا علي ساقي

لسخونة ما به، أبتسمت لها محاولا إفلات أصابعها من علي الكوب فتتبدل أصابعي مع أصابعها إصبع يلي آخر حتي سيطرت علي الكوب.

عادت وجلست بداخل الخيمة وتحررت من بعض ملابسها فأربكني هذا وجعلني أهمل تناول الشاي لأتناول نظرات نهمة لهذا المخلوق الجميل شعرت السيدة بأنني أركز نظراتي عليها فحاولت إخفاء بعض تضاريس جسدها الفاتن فأثار هذا لعاب نشوتي ورغبتي التي لم أجربها من قبل فعلاقتي مع نورهان كانت سطحية بريئة سامية رومانسية إلي أقصي درجة لم أفز منها بشيء سوى بحضن دافئ على سلم منزلها في الفترة الأخيرة لكن عدا هذا كانت كل علاقتنا عبارة عن حديث هامس ناعم طيب نتبادل فيه نبضات القلوب والأحاديث وإرسال إشارات الحب المتبادل بيننا.

أبدلت السيدة من وضع جلوسها وكأنها تخبرني بأن هذا الجزء لم تشاهده أو تعاينه معاينة مباشرة، تناولت كوب الشاي علي مهل لكن نوازع نفسي الشريرة بدأت تتحرك نحوها راغباً بها ولكن القيود كانت حاكمة قوية تمنع ما أفكر فيه من أفكار شيطانية هي بكل المقاييس ضد الدين والأخلاق ولكن المؤثر كان قوي التأثير علي المؤثر عليه.

شعرت بأنني في حالة غير طبيعية، وارتفعت درجة حرارة جسدي وشعرت بدماء تجري في عروقي مما دفع بهذا لانفعالات تظهر علي أجساد الرجال، أتساءل ماذا أفعل وقد وضعت في هذا الموقف الشائك أحاول أن أستبدل نظرات عيني عنها ولكن عيونيَّ كانت تعودان إليها طواعية، كان التأثير شديداً قوياً، خشيت غضبة رجال القبيلة، فهذا شرف ابنتهم وبجوارنا أبوها وزوجته أي تلك الزوجة ليست بأم الفاتنة التي أمامي حيث لاقت أمها ربها منذ عشرة أعوام.

أشاهد ابتسامة عذبة علي ثغرها الفاتن، وأشاهد أصابع يدها الرفيعة

الرقيقة البيضاء الناعمة والتي لمستهم منذ عدة دقائق فتصيبني الدهشة بأن هذا الجمال وتلك الفتنة تعيش بين الماعز والجمال والأغنام وفي الرمال والحرارة الشديدة بصحراء سيناء القاتلة، أحاول غلق عيوني عنها فأشعر بأن العيون ترفض أمري لها وكأنها تقول لي أيها الأبله: أتضيع عليّ تلك الفرصة كي أتمتع بخلق الله؛ ألا يكفي ما شاهدته من مآسي مؤلمة لأجساد شباب الجيش الملقاة في الصحراء وقد فتك بها العدو وأجهز علي المتبقي منها الذئاب والضباع والنسور والغربان بالإضافة إلي تحلل الأجساد ورائحته التي تزكم الأنوف.

مازالت العيون تتكلم، وحينما يأتي موقف كهذا ترغب في منعي عن التمتع به وإجلاء نظراتي الحزينة السابقة، لا تفعل هذا بى أرجوك، لا تغضب مني فبعد أن أشعر أنني تشبعت ولن أتشبع سوف أغادر جسد تلك الجميلة وعليك أن تعيد النظر إلي جنودك البؤساء، صحيح المثل يقول يعطي الحلق لمن لا أذن له، أحاور عيوني، يا عين كفي هذا وأنا أشاهد بعض رجال القبيلة يتحركون قريباً مني وقد يلاحظ أحدهم ما أنا عليه وهم رجال وسوف يتأكدون بأنني منفعل بابنتهم وراغب بها، تجيبني: لا تحزن يا أسامة وثق أنهم مغيبون ولا يشعرون بك؛ اطمئن أيها الشاب، عيوني تردد: أشعر بأنني أصبحت أحسن حالا نسبياً؛ اتركني لحالي واترك جارتي أذنك كي تستمع بحلو حديثها وصوتها الناعم الرقيق كما اترك أصابع يدك تعبث كما تريد وعليك أن تظل صامتاً علي حالك كأنك جوال دون عيون وأذن وأصابع، اتركني أيها الجوال البائس فأنا في أشد الاحتياج لتلك المشاعر التي حرمت منها، سوف تقول إنك أحببت نورهان عدة أعوام دون أن تذوق حلاوتها فهل منعك أحد، هل منعتك وكانت الفرص المتتالية أمامك أم كنت ومازلت طفلا لم يبلغ الحلم بعد، أنت لا تريد لكن نحن الحواس نريد.

أشاهد جندياً قادماً في اتجاه الخيمة، أرجوكِ يا عين: كفي هذا سوف يفتضح أمري أمام الجندي، سوف يبلغ زملاءه بحالي، كفي يا أسامة أتخشي الجندي ولا تخشاني، إنني الذي أمدك بالبصر والرؤيا ومشاهدة طريق العودة، أسمع صوت أذني تصعق بداخلي، خلاص كفاية دوشه معنتش سامعه الكلام الحلو اللي بتقوله رابحة، كفاية عليّ سماع صوت شخير جنودك وأصوات انفجارات المدافع بل صوتك وأنت تتوسل إلي الخالق بأن يمنحك القوة وتعثر علي الماء، كفي .. أريد الهدوء والسكينة حتي أستمع لحلو الحديث، فقد حرمت من سماع صوت حواء لمدة تعدت الشهر، يا عالم كفاية.

أقبل الجندي جويلي راغباً في الحصول علي بعض أدوات تساعد في سلخ الجدي فشاهد حالي وقد احمرت بشرتي وأذني التي تمددت، ضحك وضرب يداً بيد معلقا:

. ياه .. يا فندم دا أنت استويت جبل الجدي ما يستوي ..

ضحكت رابحة معلقة:

. مع أن النار بعيدة عنه، مش عارفه لو النار قربت منه ح يعمل إيه؟

مازال الجندي يتحدث متهكماً علي حالي:

. دا ح يبوش منك علي طول ..

ضحك وحصل علي ما يريد وغادر المكان وما زالت رابحة تنظر إليّ بنظرات لم أعهدها من قبل، أعتقد أنها نظرات بهيمية جنسية فاضحة، بعد قليل أقبل جنديان آخران يتحججان بطلب شيء آخر، لم يعلقا لكنني كنت أسمع صوت ضحكهما الصامت وحركتهما وهما يتمايلان علي بعضهما البعض.

تنبهت إلي أنني أصبحت أضحوكة ومسخاً يلعب به الناس حتي

جنودي هزءوا بي، قررت التصرف، ماذا أفعل وهذا الانفعال واضح عليّ حالي، ولن أقف بهذا الوضع فسوف أسير بوضع لا يقبل أي رجل أن يشاهده الناس عليه بمثل هذا المنظر، تلوت بعض آيات من الذكر الحكيم ثم عصرت فكري وعقلي وتذكرت الشهداء وما حدث لهم بعدها شعرت بهدوء نسبي مما دفعني لزيادة تلك الجرعة، أثناء هذا كنت أنظر بعيداً عن رابحة التي شعرت بأنني أحاول مجاهدة النفس فأسرعت بإظهار بعض الأسلحة الفتاكة وأقبلت عليّ شبه عارية إلا من بعض ملابس شفافة تثير الغرائز أكثر ما تخفي وناولتني كوب الشاي التالي وأمهرته بعبارات طيبة "بالهنا والشفا يا أسامة .. دا أنت حلو خالص مالص" شعرت بأن الدماء سوف تعود ويحدث ما حدث منذ قليل، كيف أظل علي هذا الوضع وانفعال ثم مقاومة لإزالة هذا الانفعال.

شربت كوب الشاي مغمض العينين رغم احتجاج عيوني ولكن رابحة لم تستسلم وركزت على أذني والتي هى خارج السيطرة فهى مستقبلة دائمًا لكل صوت، شعرت أن أذنيَّ سعيدتان مبتهجتان بما تسمعانه؛ كان القرار الفجائي والسريع هو النهوض من هذا المكان؛ وضعت باقي كوب الشاي جانبا وأسرعت الخطي مغادراً المكان وأنا أشعر أن جزءاً من الانفعالات مازال واضحاً لكن هذا أهون من شيء آخر في علم الغيب.

أسرعت الخطي حتي ابتعدت عن تجمع الناس وتأثير سحر تلك الفاتنة، صرخت بداخلي: (يا رب مش قادر، اعمل حاجه، مش معقول القوة دية موجودة عند البشر ومش معقول الضعف ده موجود عند البعض الآخر، يارب أنت عادل وقسمت القوة بين الرجال والنساء بالنصف الرجال أقوياء بدنياً لكنهم ضعاف أمام قوة وتأثير النساء، لقد اكتشفت أننا معشر الرجال أضعف من قوة النساء وأننا منظر وصوت وبس؛ لكن القوة الحقيقية

تكمن عندهم، ساعدني .. مش قادر .. اعمل إيه في الحاجه اللي عندي؟ الرغبة دية أنت وضعتها بداخلي ولم أكن مخيراً بشرائها من عدمه.)

شعرت بمن يهمس في أذني، عليك بالصلاة، ياه .. قلتها وكأنني عثرت على جاكتة نجاة في عمق البحر بعد أن شارفت على الغرق .. يارب .. حكمتك، أريد الوضوء وهذا يعنى أن تشاهدني تلك السيدة، فليكن .. سوف أتيمم، قمت بالتيمم ووقفت في حضرة الخالق أصلي لأي جهة وبأي طريقة كي أخرج من تأثيرها الذي مازال يطن في أذني؛ رفعت صوتي بالتلاوة رغم أن الوقت ضحي أي قبل صلاة الظهر.

أديت عدداً من الركعات شعرت بعدها أنني هدأت نسبياً حيث كان شيطان رابحة مازال يظهر أمام عيوني ويطن أيضا بأذني، ياه .. كل ده نهضت لصلاة أخري وكانت أحسن حالا، شعرت بأن هذا هو المنقذ لمن هم في مثل حالي، الحمد لله؛ قلتها وأنا سارح في أحلامي مع نورهان فكانت هى الملجأ التالي لإنقاذي من براثن رابحة الفتاكة، سمعت صوت نورهان يحدثني وأنا مغمض العينين " الحلو ليه تقلان؟ خليك معايا تكسب حتسمع وتشوف وتحس بحاجات عمرك ما عملتها قبل كده" تنبهت .. مش ممكن نورهان تقول كده، فتحت عينئ فشاهدت رابحة أمامي منحنية عليّ تحدثني وقد ظهر صدرها كاملا ، ماذا أفعل؟

قاعد هنا ليه؟ بذمتك أنت بتفهم .. تسيب كل الحاجات دية غير المستخبي وتيجي تقعد فى الحتة المعفنة دية، دا مكان مراحيض القبيلة ذوقك عفش، قوم يا راجل، حاولت مساعدتي ولكنني تصلبت وأصبحت مثل الحمار (المأموص اللي مش عايز يمشي) وصاحبه يناوله البرسيم تارة والضرب تارة والسباب له ولمن باعه دون جدوي.

نجح الحمار في قمصه وزعله، جلست رابحة أمامي محاولة إرضائي أو

لأنها شعرت بميل نحوي، وهذا خارج عن إرادتها؛ فهي سيدة محرومة من حب الرجال؛ فزوجها بعيد عنها منذ أكثر من عامين، قطعت حديثها الشجي متسائلة:

. أسامة .. بلدكم إيه في مصر؟

على مضض

. الزقازيق ..

صرخت ورفعت يدها لأعلي وقبلتني قبلة سريعة

. الله .. الزقازيق .. ياه ..

أدهشني انفعالها سواء بالصراخ أو بالقبلة السريعة التي حصلت عليها دون إذن مني.

ـ أسامة .. جوزي أبو ابني واخد عشر سنين سجن وبيقضيهم في سجن الزقازيق العمومي .. نفسي أشوفه وكمان يشوف ابنه اللي اتولد بعد الحكم عليه ..

. إيه سبب سجنه؟

. قضية مخدرات .. والله تلفيق .. لكن ح أقول إيه علي بتوع سلاح الحدود معندهمش رحمة، بص بقي، إحنا طلعنا أصحاب وبلديات وقرايب.

أنظر إليها بدهشة متسائلاً

. كل ده بقي بينا .. مش معقول!!

ـ جوزي في بلدكم وأنا ح أروح له .. اسمع نصيحتي؛ أنت عامل زي الحصان البراوي اللي بيجري في كل حتة ومش عارف مصلحته، أنا ح أمشي معاكم وأوصلكم لقناة السويس وأنت تكمل معايا للزقازيق وتوصلني للسجن أشوف جوزي وبعد كده تروح لأهلك .. صفقة حلوة.

. بالنسبة لمين؟

. لنا إحنا الاتنين

. والجنود

. الجنود يفارقونا أول ما نعدى قناة السويس ونفضل سوا .. حلوة نفضل سوا .. ليا أحلام كتيرة ونفسي تتحقق لكنك صعب خالص، يعني أنت كده مع كل الستات

. أنا مش أعرف ستات، أنا راجل عسكري

. يا ما .. حوش يا حواش .. خوفتني .. بلاش البوز ده وخليك حنين وهيا ماشيه معاك .. وشك سمح وح نبقي اتنين حلوين خالص .. ياه .. يا أسامة

. أرجوكي .. خليكي في مكانك .. تهورك ده هوا اللي مخوفني منك

. برودك ده هوه اللي مجنني .. تعرف لو أنت بتحاول معايا يمكن أخفف شويه أو انكسف!!

. يخرب عقلك يا رابحة .. عايزاني أحاول .. هو أنتي مدياني فرصه عشان أخد نفسي .. سؤال وتجوبيني عليه.

. اسأل يا نور العين

. عملتي الحكاية دية مع واحد من شباب القبيلة؟

. مش أقدر، تبقي مصيبة وأتفضح .. ده اللي مجنني؛ نفسي في راجل ومش قادرة، ماسكة نفسي وإيه، خيمتي جنب خيامهم وبالليل بتبقي هيصه وأسمع أصواتهم، بأكون عايزة أقوم من النوم وأصوت وأقول: يا عالم عايزة راجل .. راجل معفن موافقة .. تصور وصل حالي إزاي؟

. يخرب عقلك .. دا انتي مجنونة

. فعلا أنا بقيت مجنونة بـ أسامة .. ح يكتبوا شعر علينا .. رابحة وأسامة .. أعقبتها بضحكة لو وصلت لأذن أي رجل لترك ما في يده واتجه إليها

أصبحت أنانى سعيدتان بتلك النغمة الرقيقة كما أن عينىَّ تخبران أنني بأنكِ لو شاهدتِ ما أشاهده لتعجبت حينما كانت تضحك وصدرها الجميل يتحرك وأسنانها البيضاء المصفوفة بعناية إلهية فيشع النور من خلالها وعيونها السوداء اللامعة وحاجباها يرتفعان قليلاً بمسافة متساوية كما تتحرك خصلات شعرها يميناً ويساراً، تتساءل الأذن، طيب وصاحبنا السيد جوال عمل إيه؟ ، تضحك العين وتخبرها بأنه جوال ح نقول إيه.

غادرت رابحة مكان جلوسي بعد أن رمقتني بنظرة لا أعرف ما هي لكنها جعلتني أنتفض وأتبعها بنظرات قوية مركزة، لقد عاد إليّ شيطان نفسي مؤنباً تصرفي وضياع الفرصة الثانية، ظللت جالساً، وشعرت بكارثة سوف تقبل عليّ وعلي جنودي البؤساء.

انفض الجنود من حولي

مضت ساعة أعدت خلالها مراجعة الأحداث التي تمت منذ الصباح حتي الآن، لقد تعدي وقت الظهيرة، نهضت أصلي صلاة الظهر التي أديتها بخشوع وتذلل بدعاء بأن يهبني الله القوة لمقاومة سحر رابحة الذي كان طافيا فوق مشاعري وأحاسيسي، كنت راغبا بالإسراع لمغادرة هذا المكان؛ فلم يحدث لنا علي مدار الأيام السابقة مثل هذا السلوك أو مثل ذاك التصرف، كانت علاقتنا مع بدو سيناء ما بين العطف والمساعدة ومابين الشدة والعنف ونهرنا أحيانا كأننا كلاب ضالة.

اليوم هو الخامس والعشرون من شهر يونيو وقد مضي علي اندلاع الحرب عشرون يوماً، أي أننا نسير منذ ثمانية عشر يوماً دون الوصول للهدف بل قد تعرقل الهدف بظهور تلك الحسناء، التي ألهبت مشاعر الجنود أيضاً؛ فقد أقبلوا يحملون الطعام المكون من الشوربة واللحم المسلوق كما أضيف إليه الفلفل الأسود فخرجت الرائحة تغزو أنوفنا الجائعة فسال اللعاب، تناولت العيون الطعام قبل تناول الأفواه؛ إنها نعم الله التي لا تعد ولا تحصي.

تساءل أحد الجنود، ألا يجب أن تتناول رابحة الطعام معنا؟ فقد ساعدتنا مساعدة طيبة ودفعت من مالها خمسة وعشرين قرشاً لتكمل ثمن الماعز التي اشتريناها وأمدتنا بالأدوات التي ساعدتنا علي الذبح والسلخ وإعداد الطعام وكل تلك الأواني أمدتنا بها، أجبته بأن هذا هو أقل شيء نقدمه لتلك السيدة، وهذا هو الشكر والامتنان لمجهودها، فليذهب أحدكم كي يخبرها بأننا ننتظر حضورها لتناول الطعام، أسرع عامر كي

يخبرها بهذا ثم عاد مطأطئ الرأس وأخبرنا بأنها اعتذرت ثم قالت إلا إذا حضر الضابط فيجب عليّ أن أمتثل لرجائه.

أصابني هذا بضيق شديد ومما زاد من ضيقي هو تكالب الجنود الخمسة عليّ بأنه من الواجب عليّ أن أتوجه إليها كي تعود وتتناول الطعام معنا، رفضت هذا متعللا بأنه سبق وأرسلنا أحد الجنود فلم تأبه به كيف أقوم أنا علي هذا، أعتذر عن هذا الرجاء، نظروا إليّ وقد أصابتهم حالة من الضيق ولا يعرفون كيف التصرف، لكن عامر الأهوج صرخ قائلاً: سوف أحمل الطعام إلي خيمتها ونتناوله معها ولتبق أنت مع كرامتك وكبريائك، نظر إليه الجنود بدهشة كما صدمني تصريحه هذا وبسرعة رفع الصينية وما بها من طعام وتحرك في اتجاه الخيمة وتردد الرجال إلي أية جهة يتبعون القائد أم الطعام ورابحة.

أشرت إليهم بالتوجه وتناول طعامهم؛ البعض سارَ مسرعا بينما ظل كلٌ من جويلي وفراج فى حالة تردد، أخيراً تشجعا ولحقا بباقي الزملاء وهكذا أصبحت وحيداً، واستطاعت رابحة أن تجردني من قيادتي بكلمات معسولة وعيون ناعسة وإيماءات رخيصة ألهبت أبدان الرجال، بقيت علي حالي أجتر أحزاني وإهانة كبريائي، أتساءل: ماذا فعلت كي يتخلي عني جنودي بتلك البساطة؟ ألم أتولَ قيادتهم طوال ثمانية عشر يوما بسلام ودخلنا في معركتين ناجحتين ضد العدو، هل يجب عليّ تنفيذ رغبات رابحة بأن ترافقنا خلال انسحابنا وهذا مخالف للقوانين العسكرية ونحن في حالة حرب، لن أتنازل أو أتهاون وليكن ما يكون.

مضي حوالي نصف ساعة منذ توجه الجنود إلي رابحة حاملين الطعم ثم شاهدت كل من فراج وجويلى قادمين في اتجاه جلوسي وأخبراني بأن رابحة تنتظر حضوري لخيمتها كي نتناول الشاي، وقدما لي نصيبي في

العنزة، نظرت إليهما متسائلاً: هل أتيتما لي بالمتبقي من طعام رابحة نفي كل منهما هذا الاعتقاد وأخبراني بأنها رفضت تناوله كما أنها أهانت عامر لتصرفه هذا، جلسا أمامي حتي أنتهي من طعامي ثم نتوجه معاً إلى خيمة رابحة لتناول الشاي، طلبت منهما التوجه إلي الخيمة وسوف ألحق بهما بعد تناول الطعام، أسعدهما هذا وأشار فراج إلي كيس قماش كان معه بأنه يجب عليّ حفظ نصيبي من اللحوم المتبقية بعد الغداء به فشكرته وغادرا الجنديان المكان.

حاولت تناول الطعام لكن المشاعر أفسدت كل شيء، أصبحت كارهاً هذا الطعام الذي أسال اللعاب منذ ساعة تقريباً، تناولت بعضاً منه ووضعت الباقي في الكيس وشربت جرعة ماء، نهضت مغادراً موقع القبيلة وقررت ترك الجنود مع تلك الغانية وعليّ أن أستكمل رحلتي بمفردي، كنت أقاوم هاجس العودة وأتذكر بعض كلمات فراج بأننا لسنا في معسكر وأن الأرض من حولنا هى أرضهم ولهم الحق في السير والتصرف فلا يجب علينا أن نحمل أنفسنا عبئا فوق الأعباء التي نحملها وأننا نسير منذ ثمانية عشر يوماً وكلت الأقدام واحترقت العيون واكتوت الأجساد، برجاء أن تقدر ظروفنا ولنسترح في هذا المكان يومين ثم نكمل رحلتنا بمرافقة رابحة التي تعلم كل خبايا سيناء كي تسهل باقي المسافة حتي نصل لبر الأمان.

كنت أشعر بسعادة وغبطة بعد أن قطعت عدة أمتار فقد كان يعتريني شعور بأنني استطعت التخلص من تأثير رابحة ومن سوء تصرف الجندي عامر معي ومن برود مشاعر جنودي نحوي، شعرت بأنني قطعت مسافة لا بأس بها وبالتالي لن أستطيع العودة إذا نجح الشيطان في غوايتي؛ قطعت مسافة إذا رغبت بالعودة فسوف يقبل الليل، ولن أشاهد موقع القبيلة كما لن أستطيع تحديد طريق العودة معتمداً على آثار أقدام سيري؛ حيث

يوجد العديد من آثار الأقدام والجمال والماعز وقد اختلط بعضها ببعض.

حينما كان تأثير رابحة الفاتن يهيم بى بالعودة إليها يهاجمني شعور بأنني سوف ألقي الاحتقار والمهانة من جنودي؛ لقدُ عدت إليهم ولم أعد القائد الذي يميزه سرعة اتخاذ القرار وتنفيذه، لقد أصبحوا هم القادة وأنا ما عليّ سوي إتباع خطواتهم، هبط الليل ورغك هذا استطعت مشاهدة بعض أشجار النخيل قبل حلول الظلام، سرت المسافة المتبقية بنفس الاتجاه تقريباً حيث كانت تلك الأشجار علي مسافة ثلاثة كيلومترات تقريبا، الحمد لله: قلتها حينما هبطت الوادي الذي تنتشر به أشجار النخيل بكثرة وكان الصمت هو سيد الموقف فلا بدو أو حيوانات أو أصوات بل سكون يام مثل سكون القبور وكأنه يستقبل أحد شباب مصر الذي وقع عليه الاختيار بأن يلقي ربه بهذا المكان.

جلست أرضاً مستنداً بظهري على جذع نخلة قاس متعرج، فتحت عبوة الماء ونهلت منها وأغلقتها وجلست أستعيد ما حدث خلال نهار هذا اليوم الغريب على سمعي ونظري وحياتي، كان شيئا شبيهاً بفيلم سينمائي من نوعية اللا معقول، فالبشر غير البشر والأخلاق مخالفة والآداب منتهكة والدين غائب والفضائح شائعة والرزيلة واضحة، همد بدني واسترخيت؛ بسرعة لمعت عيوني بذكري حبيبتي الصغيرة نورهان، كان الفارق واضحاً؛ فملاك هناك ببلدتي وشيطان هنا قريب مني، أقبلت بعض نسمات ليل رطب فخدرت أعصابي وشعرت بأنني أترنح ويغالبني النعاس وما بين هذا ومابين خشيتي من زيارة خطيرة من مخلوقات الليل التي قد تهاجمني دخلت في سبات.

لم أتبنِ كم من الوقت انتشيت أو كم من الساعات خلدت لكني استيقظت شبه مذعور على صوت قريب مني، فتحت عينيَّ في الظلام

الدامس فشاهدت ما كنت أخشاه، ذئب أسود اللون استطاع أن يأخذ شنطة القماش التي بها نصيبي من لحم الماعز ووقف بعيداً عني مسافة خمسة أمتار تقريباً وصوته يتحشرج برغبته بالطعام، لم أصرخ أو أتحرك وكل ما فعلته بهدوء أنني حركت عتلة أمان الضرب للوضع الآلي وضغطت ضغطة قصيرة مع توجيه ماسورة البندقية في اتجاه الذئب، خرجت الرصاصات سريعة تشق سكون الكون من حولي أتبعها عواء الذئب المخيف وسقط مضرجاً بدمائه بجوار وليمتي المنتظر تناولها صباح الغد نهضت مسرعاً وسحبت الشنطة من أسفل الذئب القتيل ووقفت مزهواً بانتصاري على هذا الوحش الكاسر، شعرت بسعادة وشجاعة وأنا بمفردي أن استطعت قتل ذئب كاد أن يفتك بي.

سمعت عواء ذئب آخر، ارتعدت فرائصي وأنا أعلم أنها حيوانات اجتماعية تتحرك كقطيع لا يقل عن ثلاثة إلى أربعة، شاهدت هذا بنفسي أثناء ملحمة مملكة الذئاب ونحن بالكهف وكيف كان الترابط الأسري الجماعي قوياً بين هذه القطعان من الذئاب، وكيف يهبون لنجدة ومساعدة بعضهم البعض وتكاتف أكثر من خمسين ذئبا من أجل إنقاذ الأم وصغارها وقد نجحوا بالعودة بالجراء الستة بعد أن ماتت الأم.

تحيرت وأخذت أتلفت يميناً ويساراً لأحدد أين العدو القادم، ألهمني الله بأن أنظر إلي النخلة التي كنت أستند بظهري عليها فوجدت أنها مائلة ويمكن لي تسلقها بسهولة وأنا أعلم أن الذئاب من نفس فصيلة الكلاب لا تستطيع تسلق مثل تلك الارتفاعات شبه العمودية فهي ليست كالقطط علقت شنطة الطعام برقبتي وسلاحي وضعته مقاطعاً لي بحيث أصبح السلاح خلف ظهري، قفزت كالهر متسلقاً أعلى النخلة متذكراً نجاحي في مثل هذا الأمر أثناء عبورنا المحور الأوسط ودخولنا إلي جبل المغارة.

بعد قليل شاهدت ذئبين قادمين ووقفا قريباً من زميلهم القتيل كأنهما يسألانه ماذا حدث لك ومن قام بهذا العمل كي ننتقم منه، نظرا لأعلي فشاهداني فعوا أحدهما أي بمعني "انزل يا ابن ... وإلا ح نطلع نوريك شغلك" كان الدافع لهذين الذئبين لوقوفهما أسفل النخلة أنهما يشمان رائحة لحم الماعز، وهذا هو السبب الرئيسي بأن ظلا هكذا حتي ظهور ضياء اليوم التالي كنت خلال ذلك الفترة ينتابني شعور بأنني سوف أسقط من أعلي النخلة، كانت قدماى تهتزان وكادت شجاعتي تخور لكن الله كان معي؛ ظللت علي هذا الحال حتي بدا نور صباح يوم جديد في محنتي يشرق عليّ.

تركت الذئاب المكان واعتقدت أنها تختبئ في مكان قريب حتي إذا هبطت من أعلي النخلة هاجمتني وحصلت علي طعامها الطازج، ظللت بعض الوقت، أثناء ذلك نمي إلي سمعي أصوات مرتفعة فاعتقدت أنها دبابة معادية، تبين لي أنها عربة مدرعة إسرائيلية والتى وقفت قريبا من المنطقة المرتفعة بالوادي الذي به النخيل وأمطرته بنيران رشاشها؛ كنت خلال ذلك أسمع أصوات الرصاصات تمر قريباً مني وأشاهد سقوط أفرع أشجار النخيل بكثرة.

توقفت العربة المدرعة عن إطلاق النار، تحركت مبتعدة حتي لم أعد أسمع أصوات المحرك، أيقنت أنها كانت تقوم بعملية تفتيش عن جنود مصريين وسوف تتحرك لمكان آخر، هبطت بحذر خشية الذئاب والأعداء فى وقت واحد، أرهفت السمع، تحركت شاهراً سلاحي فى وضع الضرب متلفتاً يمناً ويساراً وفتشت المكان فلم أعثر علي أي شيء يثير خوفي ولم أشاهد جثة الذئب القتيل فقد سحبه الذئبين الآخرين وبمخالبهما الطويلة حفرا حفرة عميقة قريبا من النخلة التي أقف علي ساقها وألقيا بجثة قريبهم وأهالا

عليه الرمال قبل مغادرة المكان ثم عوا الثنبان بطريقة مثيرة ومخيفة ثم فارقا المكان، عدت إلي شجرة النخيل التي تسلقتها بالأمس وعلقت عليها كيس اللحوم؛ بحثت عن مكان آوي إليه وأثناء ذلك شاهدت بئر مياه فملأت العبوة ورويت ظمئي بماء مثلج نقي وحمدت الله وجمعت بعض سعف النخيل وصنعت منه عشاً صغيراً أويت أسفله وتلوت الشهادة ورحت في سبات عميق، نهضت وشعرت بأنني أكثر نشاطا وحيوية؛ شاهدت ضوء الشمس وقد كسي المنطقة خارج غابة أشجار النخيل؛ لقد أتي نهار ذاك اليوم لينهي متاعب تلك الليلة السيئة التي أمضيتها بمفردي منذ بداية الاتسحاب.

شعرت بالجوع، أسرعت وأحضرت شنطة اللحم وفتحتها فوجدتها على حالها وكان من الممكن أن تصل إليها النسور أو الغربان المنتشرة في كل مكان؛ شممت رائحتها وشعرت أنه قد بدأ التحلل على اللحم لهذا تناولته قبل أن يفسد ويصبح غير صالح وأنهيت عليه رغم شبعي؛ كنت راغباً بالتخلص منه حتي لا يفسد أو يظل مصدراً لجذب الذئاب مرة أخرى؛ حصلت على جرعات ماء عذب ثم جلست أستعيد أحداث الأمس وأنا في دهشة مما حدث؛ ظللت علي هذا الحال حتي أقبل الليل.

سكن الليل بجواري وجلست هادئ النفس وشعرت بأنني اعتدت العيش فريداً وحيداً معتمداً علي الحي القيوم المدافع والحامي لجميع الخلق والذي قدر كل شيء ووضعه في مواقيته وبأماكن محددة لكل بني البشر انتابتني حالة من الشجاعة والثقة بالنفس، أصبح الليل فارداً ستارته على المكان، قررت الاختباء تلك الليلة بهذا المكان وإذا بقي في العمر بقية أغادره صباح الغد وأسير في حماية ضوء النهار بعيداً عن مفاجآت الليل غير السارة.

بعد الغروب بساعتين أو ثلاث شاهدت ظلال بشر تتحرك قادمة في

اتجاه الوادي، بعد قليل تبين لي من وصفهم بالظلام وعددهم بأنهم جنودي ويتبعهم شيء يشبه الحمار، بعد قليل هبط الركب قريباً مني بحوالي مئة متر، سمعت صوت رابحة تأمر وتنهر جنودي وهم لها منصتون متذللون وطلبت منهم البحث عن الضابط وإحضاره لها بأية طريقة كانت، حاول البعض تأجيل هذا للصباح لكنها نهرتهم وسبتهم بسباب لاذع شديد.

حزنت إلي ما آل إليه حال هؤلاء الأبطال الشجعان الذين قاموا بمعركة ضد العدو في المحور الأوسط وكبدوه خسائر كبيرة، لقد جار عليهم الزمان وأصبحت امرأة بدوية تصدر إليهم الأوامر وهم لها صامتون ينفذون دون احتجاج، تأكد لي بأن الفرقة ضعف حيث كنت مع جنودي قوة يحسب لها ألف حساب ولكن الآن تبدل كل شئ للأدنى.

منتصف الليل نهضت على أصوات سباب وعراك، لقد تسلل عامر إلى خيمة رابحة راغباً منها فانهالت عليه صفعاً وضرباً وسباباً، نهض زملاؤه وتدخلوا بينهما وعادوا به ليجلس بينهم وقد أصابه شعور بالذل والمهانة من تلك السيدة، تبادلوا الأحاديث والليل ساكن فوصلت إليّ كلماتهم البائسة، قال أحدهم لو كان ضابطنا معنا الآن ما حدث هذا لكننا تركناه وسرنا خلف تلك المرأة، لقد أسأنا التصرف وعلينا تحمل مسئولية ما سوف يحدث لنا.

عارضهم عامر منزلا بى كل سباب وسوء قول، اعترضه الآخرون ولكنه تمادى في حديثه السيئ واصفاً شخصي بكل ما هو رديء، وأنني المتسبب فيما حدث له من رابحة؛ التى ترنو إليه ولا تنظر إليّ لأنني جندي وهو ضابط، تسائل زملاؤه: وما دخلنا في هذا؟ تلك رغبتها أتريد أن تجبرها على حبك وإشباع نزواتك، تخير كلماتك ولا تلقي على الآخرين بسوء سلوكك وتصرفاتك، دار حوار ساخن تطور إلي أن تبادلوا رفع الأسلحة علي بعضهم البعض، نهضت رابحة وصرخت بهم وأنهم سوف يرسلون بإشارة إلي الإسرائيليين ويقبلون عليكم ويقتلونكم في الحال لو كان ضابطكم هنا ما حدث هذا،ولكن تصرفك يا عامر أيها الأحمق دفع بالضابط لأن يتركنا وعلينا تحمل سوء تصرفك وغبائك، أحذرك من أي فعل طائش وإلا لن تصلوا إلى عائلاتكم.

كنت أضع يدي علي قلبي من حدة النقاش وتطوره ورفع السلاح وهذا التصرف يعتبر من أكبر الجرائم العسكرية بأن يرفع الجندي سلاحه فى وجه أحد خلاف الأعداء، شعرت بالأسى والسعادة في نفس الوقت، بدوني سوف يرتكبون كل حماقة وقد يقتل نصفهم علي الأقل وتضيع البطولات

التي قمنا بها، قررت تولي زمام الأمور ولكن عليّ أولا أن أظل مختبئاً حتي الصباح بدلا من الظهور إليهم فجأة وقد يسبب هذا للبعض الذعر والخوف.

أطل علينا ضياء صباح اليوم الثالث لوجود رابحة في حياتنا التى استطاعت أن تصل إلي أفكارنا، بل وأصبحت أحد أفراد مجموعتنا إن لم يكن أهمهم على الإطلاق؛ شعرت بأنها سوف تقاومني بشدة يساعدها ويحميها في ذلك جنودي؛ هاجمني شعور آخر بأن الجميع يتمني عودتي أو لقائي وبالتالي سوف يسيرون على نهج خطتي التي بدأتها منذ عشرين يوماً تقريباً.

بدأ الجنود فى اليقظة وقد سبقتهم رابحة بساعة؛ فقد ابتعدت عن مكان خيمتها تحمل عبوة ماء وحصلت على حمام منعش لم يشاهدها أحد سواي ورغم بذاءة لسانها إلا أنها سيدة جميلة إلى أقصي درجة؛ في تلك اللحظة لم أبتعد بنظري عنها، وكأنني راغب بأن أقيم جمالها وفتنتها.

بعد أن جلست رابحة أمام الخيمة بدأت في إصدار أمرها الذي قررته بالأمس، البحث عن الضابط والعودة به بين تردد الجنود الذين صغروا لأمرها ولم تترك لهم الفرصة لتناول الطعام، سار الجنود قليلاً فخرجت من مخبئي فنبح الكلب فتنبه الجميع بوجود غريب فشاهدوني فألقوا ما في أيديهم وأسرعوا في اتجاهي تحية وتقبيلا والسعادة واضحة علي وجه الجميع حتى عامر الذي كان يسبني منذ ساعتين أو أكثر كما تبعتهم رابحة وشاهدتهم يحتضنونني فسارت على منوالهم بأن أخذتني بين ذراعيها بحضن قوي بين ضحكات الجنود وتصفيقهم.

كانت الفرحة عامة متبادلة شملت الجميع، لقد التأم شملنا، أمرتهم رابحة بإعداد طعام الإفطار سهل الإعداد، المكون من الجبن وبعض حبات

طماطم وخبز مشابه للخبز الفلاحى بريف مصر، تناولنا الطعام والحديث الضاحك الباسم وأعقبه تناول الشاي؛ علق جويلي بقوله إن هذا أسعد يوم منذ الانسحاب، طلبت منهم رابحة أخذ دجاجتين من قفص الطيور المرافق لها وبعض الطحين وبعض الأرز مع الأدوات وعمل دجاج وشوربة وفتة وإعداد الخبز، أسرع الجميع للتنفيذ؛ نظرت إليهم تحدثهم وتضغط على حروف كلماتها " اتركوني مع الضابط حتي أنهي موضوع مرافقتي لكم " ظهرت السعادة على الوجوه وسمعت صوت أحدهم يقول بأن رابحة سوف تقنع ضابطنا بهذا الأمر.

خلا المكان من الجنود، نظرت إليّ رابحة نظرة ذات مغزى والتي شاهدتها في أول لقاء أمام خيمتها، ابتسمت وتحررت من بعض ملابسها ووضعت رأسها علي بردعة الحمار ويداها متشابكة أسفل ذقنها متسائلة:

. ناوى على إيه؟

. كل خير

. طيب .. فطمنى .. نور طريقي

. عايزه ترجعي مصر معانا .. مش كده؟ هزت رأسها بأن هذا هو مطلبها .. كويس بس علي شرط .. حدقت بنظراتها وعينيها الخطيرة في شخصي متسائلة

. شرط إيه يا أسامة؟

- بلاش الدلع والشخلعة بتاعتك .. أنتِ حلوة وح تعملي مشاكل كبيرة مع العساكر

- بصحيح .. أنت شايفني حلوة .. ربنا يجبر بخاطرك .. وضعت يدي مبتعدا عنها.

. خليكي بعيد

. كده برضه .. إيه الحكاية؟ هوه أنا عيانة وإلا فيا مرض؟

. رابحة .. أي حركة منك بتقلب كياني؛ خلينا حلوين وغطي جسمك لأنه ح يربك العساكر، نهضت واقفة وصرخت .. هيه .. هيه .. لفت هذا نظر الجنود واستدعي حضورهم متسائلين عن تلك الظيطة فأخبرتهم بأنني وافقت على أن ترافقنا بطريق العودة .. ظهرت الفرحة علي الوجوه وأشار إليّ بعضهم بعلامة التأييد ثم عادوا من حيث أتوا.

تحدثت رابحة إليّ بعد أن سترت جسدها بالجلباب ورغم هذا تركت ثغرة لزوم الإثارة ،

. أسامة؛ إحنا بقينا أصحاب مش كده ..

أجبتها ..

. أخوات .. قالت:

. ماشي، أخوات .. أنا ح أقولك على كل حاجه وده سر ..

أمسكت ببعض الرمال ورفعت يدها لأعلي قليلاً، وجعلت الرمال تنساب كخيط ينزل فشاهدت الرمال تتحرك في جهة ما ولهذا عدلت من جلستها بحيث تكون مواجهة جهة تيار الهواء حتي لا يصل ما تحدثني عنه إلى الجنود.

ـ "*اسمع حكايتي وشوف اللي حصل ليا واحكم بنفسك* ".. حينما كان عمري أربعة عشر عاما توفيت والدتي، بعدها بشهر تزوج أبي واتفق مع خالتي أثناء مأتم أمي أن أعيش معها ومع زوجها عبد المعطي، كانت خالتي سعيدة بهذا فهي دون أبناء حيث إنها لم تنجب رغم أنها متزوجة من سبع سنوات وتبين لها أن زوجها لا ينجب؛ فقد كان متزوجاً من سيدة قبلها ولها أبناء ولم تنجب منه، وطنت نفسها علي هذا ورضيت بما قسمه الله لها، كان زوجها رجلا هادئاً لا يحدث مشاكل ولا يسبب لها أي مضايقات.

سافرت برفقة أحد أعمامي إلي القاهرة وهناك بشقة متواضعة عشت مع خالتي وزوجها، كانت خالتي تعمل بمستشفي أم المصريين حكيمة بوردية المساء، في البداية كان زوجها يقص عليّ بعض الحكايات وبعض الأفلام التي شاهدها، تطور هذا إلي أنه بدأ في قص بعض روايات غرامية ثم تطرق إلي مواقف جنسية بسيطة حتي تطور إلى أنه كان يحكي لي عما حدث بين صديقه فلان وزوجته ليلا .. كانت تلك الحكايات تثيرني وتلهب مشاعري.

تطورت الأمور بيننا إلي أن دخل بى وأصبحت العلاقة بيننا كزوج وزوجة وهي علاقة محرمة بعيداً عن عيون خالتي، عندما شعر زوج خالتي بخوفي وجزعي لتلك العلاقة طلب مني ألا أخبر أحداً بما حدث خاصة خالتي لأنها لو علمت فسوف تخبر والدي وتطردني من المنزل.

اقتنعت بروايته ولم تشعر خالتي بشيء ما؛ تكررت العلاقة وأصبح هذا هو حالنا يومياً، أحد الأيام شاهدته يضع قطعة سوداء في فمه بحجم حبة القمح علمت منه أنها قطعة أفيون واعتاد على هذا، لأن هذا الشيء يساعده على إجادة علاقته بى، أصبح زوج خالتي هو زوجي الحقيقي بينما خالتي تعود من عملها في الصباح فتنام وزوجها في عمله يعود عصراً مرهقاً فنلتقي نحن الثلاثة قبل حلول الظلام نتناول طعامنا الذي كنت أعده بمشورة خالتي.

مضت الشهور والأعوام وأنا أشعر بأن هذا الرجل هو كل شيء في حياتي بل كنت أكره أن يدخل حجرة النوم ليلقي بجسده المنهك من العمل وخالتي بالداخل وكأنها غريمتي وغريبة عليه، مساء أحد الأيام غادر زوج خالتي الشقة للقاء بعض الأصدقاء على المقهي القريب من المنزل لم يمض وقت طويل إلا وسمعت طرقاً علي الباب؛ فتحته فشاهدت رجلا

عرفني بنفسه وبأنه صديق زوج خالتي وأتي إليه بما طلبه منه، وسلمني لفافة صغيرة، غادر المكان بعد أن رمقني بنظرة فاحصة من أعلي رأسي حتي أصابع قدمي.

كان الرجل في بداية الثلاثين من عمره يرتدي جلباباً بلدياً نظيفاً يهذب من شاربه؛ ملامح وجهه طيبة ويتحدث بنفس لهجة أبناء سيناء، بعد مضي عدة أيام وبعد اللقاء اليومي المعتاد الذي مضي عليه أكثر من ستة أعوام أخبرني زوج خالتي بأن زوجته "خالتي" تشعر بأننا علي علاقة توترت وخشيت الفضيحة رغم أنني لم أحمل لأنه عقيم، طرح عليّ رأياً بأنه يوجد عريس راغب بى وبهذا نقطع الألسنة، أوضح أن العريس هو " الشيخ عيد " الذي حضر منذ عدة أيام وقابلك وترك قطعة الأفيون معكِ، لقد شاهدك وأخبرني بأنه معجب بك وراغب في الزواج منك وهو رجل يكسب مبالغ كبيرة من تجارة الممنوعات.

جلست صامتة، ماذا أفعل لو علمت خالتي وعلم أهلي قد يتخلصون مني وأقتل وأدفن في صحراء سيناء الشاسعة، وافقته الرأي فأسعده هذا وكف عن مضاجعتي لأنني أصبحت عروس رجل آخر بعد يومين أخبرني بأن عيد سافر إلي سيناء وسوف يتجه لقبيلة أبى حيث يلقاه ويطلب يدي منه، أصابتني الفرحة بما سوف يحدث، وسوف أصبح عروسا أزف إلي زوج أعيش معه كما أنه شاب وسيم بمقارنته بزوج خالتي ومن المؤكد أنه سوف يسعدني ويمتعني بما يحمله من مقومات تفوق مقومات زوج الخالة.

من أجل تلك المناسبة أقيم حفل كبير بالقبيلة بعد أن أرسل أبي في طلبي بأن أعود للقبيلة، هكذا وجدت نفسي في يوم وليلة زوجة؛ حضر العديد من الأقارب هذا الحفل، طلبت من عيد أثناء خلوتنا أن يبدأ ليلة الزفاف بتناول زجاجة خمر أحضرها له أحد أصدقائه فأسعده هذا، بعد أن

أطاحت الخمر برأسه مساعدته علي أن يبدأ معي علاقته الزوجية، في الصباح تأكد لزوجي أنه دخل بى وكانت سعادته لا مثيل لها؛ طلبت منه تأجيل علاقتنا يومين كي أستريح وأتعافى مما ألم بى، بتلك الطريقة خرجت من هذا المأزق الخطير.

صمتت رابحة بعض الوقت ونظرت إليّ تحاول أن تعلم ما يدور بفكري وأنا انظر ليس لتلك السيدة الجميلة لكن لإبليس اللعين الذي قام بكل تلك التصرفات الشيطانية وشعرت بأنني بجوارها قزم وتلميذ صغير في بداية عهده بالمدرسة الابتدائية، شعرت رابحة بحرج بعد أن أفصحت عن كل أسرارها لي فنهضت تتعثر في سيرها لتعد الشاي ولم تعيد نظراتها القاتلة إليّ ثانية، حدث صمت تام لم يقطعه سوي حضور أحد الجنود يخبرنا بأن الدجاجتين علي وشك النضج وأيضاً الفتة معدة وكل شيء علي ما يرام، أشارت رابحة للجندي إشارة فهم منها بأن يعود لزملائه ويتركها بعض الوقت، غادر الجندي المكان فنهضت لألحق به فأمسكت بملابسي ترجوني الجلوس وأن أكون ستراً وغطاء عليها وألا أفضحها.

انحنيت عليها وهدهدت علي كتفها قائلاً لها إن الله يقبل توبة عباده فما بالنا نحن العباد لا نقبل تلك التوبة، المهم أن تهذبي من تصرفاتك وألا تعودي لمثل تلك الأفعال السابقة، أجابتني بعيون دامعة:

. مش قادرة ، أحاول لكني مش قادرة!!

تركت المكان وأنا في دهشة مما حدث من تلك السيدة بأن تبدأ حياتها كعاهرة وهى مازلت صغيرة تحبو أولي خطواتها كأنثى، سرت متجهاً نحو جنودي الذين نهضوا مرحبين بى، أشرت إليهم بالجلوس فلم يجلسوا إلا بعد أن جلست، تحدث فراج قائلاً:

. الحمد لله رجعت لنا يا فندم، والله زي ما نكون أيتام فترة غيابك عننا أنا

شاعر أن الحب رجع لنا تاني، ربنا يبعد الشيطان عنا.

أمن الجميع على دعواه.

تحدثت معهم موضحاً ما نحن مقبلون عليه وما يجب علينا إتباعه أحدثهم:

- أيها الشباب؛ نحن وحدة عسكرية وحالة الحرب مازالت قائمة، هذا يعني أن القوانين تصبح صارمة، لم يحدث في أحد الأيام أن أوينا مدنيين وبالأخص النساء وهذا في حالة السلم فما بالنا أثناء الحرب، سيقول أحدكم نحن نتحرك وسط المدنيين، وسوف أؤكد علي هذا ولكن هذا التحرك لا يجب أن يدفعنا للاختلاط بهم، نحن لنا وضع خاص ونطارد من الأعداء وبالتالي قد نتسبب في حدوث خسائر بين هؤلاء المدنيين الأبرياء.

وافقت علي أن تنضم إلينا رابحة لغرض واحد وهو اختصار مسافة السير، لقد سرنا حتى الآن عشرين يوماً خلال حرارة سيناء القاتلة، كما يجب ألا تتناسوا أيها الشباب ما قمتم به من بطولة في المحور الأوسط أوقعنا خلاله ثمانية قتلي بالإسرائيليين وتدمير عربتين جيب، يجب ألا ننسي هذا ونضيعه في نظرات شهوانية تتطفئ سريعا لكن يبقي أثرها السيئ زمنا طويلا ومن الممكن أن يصل ما يحدث مع رابحة إلي المخابرات الحربية ونلقي عقوبة السجن وفضيحة بين جنود الجيش بأن قام نفر من الجنود أثناء انسحابهم بعمل فاضح مع نساء البدو ووقتها سوف تتهمنا رابحة بأننا دفعناها إلى هذا، لقد اقترب وقت العودة إلي الضفة الغربية لقناة السويس التي هى هدفنا ومنها ننطلق للاطمئنان علي عائلاتنا ثم ننضم إلي أية وحدة عسكرية ونحن رهن الأوامر.

حاول البعض التوضيح أو الاعتراض فأشرت إليهم بأن هذا الأمر لا نقاش فيه وأنا مازلت عند قراري بترككم معها وسوف تحصلون على نتيجة

هذا، ضحك البعض ونظروا جهة عامر الذي وضع يده على خده مردداً:
. *"ضربتني كام كف ربنا ينتجم منها"* ؛ علقت قائلاً :
ـ إذا رغبت بأحد فسوف تحصل عليه بسهولة وإذا رغب أحد بها أهانت كبرياءه كما حدث مع زميلنا عامر
انفض اللقاء وقد وعي الجميع الدرس ويجب علينا مواصلة الانسحاب كقوة واحدة كما سبق وفعلنا.

فوق الشوك مشاني زماني

بعد حديثي مع جنودي شعرت بتحسن في حالتي النفسية؛ فقد استطعت التأثير عليهم وبأن يصبحوا تحت قيادتي مرة أخري؛ حيث تبادر إلى ذهني بأن لقاءنا برابحة أول أمس قد عصف بكل ما حدث من تكاتف وحب بيني وبينهم؛ بل خشيت أن يتهور أحدهم ويطلق النار علي شخصي ونحن في حالة فوضي عسكرية ولا ضابط فيها ولا رابط.

أقبلت عليّ رابحة تتساءل عما كنت أتحدث به مع جنودي؛ شعرت بأنها كانت فى حالة من التوتر، وأن الحديث كان منصباً عليها، أخبرتها باسماً بأننا كنا نعد جدولا بكيفية قضاء وقت مسل معك، نظرت إليّ والشرر يتطاير من عينيها:

. بتتقور عليا يا أسامة .. ورحمة أمي لأفرجك، عمرك جربت لدغة الدبور الأحمر، أنا ح خليك كده ومش هخليك تعرف تنام، دا أنا رابحة!!

أسرعت بمغادرة المكان فأسرعت خلفها وأمسكت بكتفها محاولا إيقافها، توقفت وتساءلت عما أريده منها بعد أن سخرت منها بتلك الطريقة، أجبتها:

ـ رابحة ؛ أنا أحدث جنودي فيما يخصنا أي فيما يخص عملنا العسكرى وهذا خارج عن اهتماماتك، رغبتي بمرافقتنا ووافقت، ماذا تطلبين مني بعد هذا؟

. كنت بتقول عليا إيه؟

. مش ح يحصل

. أنا ح أعرف وكلهم ح ييجوا يبوسوا يدي ويعرفوني

عند هذا الحد تركتها ساخطاً علي أسلوب حديثها السيئ في حق جنودي، توجهت إلي مكان منعزل وجلست بعيداً أراقب جنودي وهم

منهمكون في إعداد وتوزيع الطعام بالأطباق بعد أن نضج ورائحته غزت الأنفاس، توجهت رابحة إليهم تضاحكهم وتتحدث معهم، كان الحديث بسيطاً؛ كنت أشاهد الجميع ضاحكاً سعيداً، سرح خيالي وطرت مع حلمي الملائكي، مع صديقتي وحبيبتي الصغيرة نورهان، تلك الفتاة البريئة الرقيقة المهذبة التي تتحدث معي بكل حديث طيب وكلمات هادئة، كانت المقارنة بينها وبين رابحة غير متكافئة منْ حسن التربية والأخلاق والبيئة التي نشأ بها كل منهما، كانت الهوة واسعة، أيقنت أن التربية السليمة المعتمدة علي الأخلاق والدين والعلم لها تأثير واضح علي الإنسان.

حضر إليّ أحد الجنود يخبرني بأن الطعامُ معد وهيا نتناوله، رافقته إلي مكان جلوسهم وجلسنا نحن السبعة بالإضافة إلي ابن رابحة الصغير الذي يقارب العامين فجلس على أحد ساقيها تطعمه بيدها، كانت الضحكات لا تفارقنا ما بين طعام شهي وحديث طيب، كان يحدونا الأمل بالنجاة مما نحن فيه كما كان لوجود رابحة الأثر الطيب علي الرجال ببسمتها الرقيقة وجمالها الذي وهبها الله لها.

أعقب تناول الطعام شرب الشاي كما أسمعتنا رابحة بعض الأغاني من الراديو الصغير الذي معها، بعد هذا غفوت أنا وبعض الجنود بعد أن قررت رابحه أن سيرنا سوف يبدأ بعد حلول الظلام كى نتجنب أشعة الشمس الحارقة ولا نصبحُ عرضة لمراقبة العدو وعملائه، كان تخطيطها للسير مخالفاً عما كنا نتبعه حيث فى السابق كنا نسير خلال النهار بالإضافة إلى جزء من الليل فلم يكن من المعقول أن نظل خلال النهار قابعين تحت أشعة الشمس المباشرة فنهلك ونحن على هذا الوضع كما أننا لا نعرف الطريق الصحيح للعودة أو أماكن آبار المياه، أما مع رابحة فكان السير يتم ليلا ولهذا سرنا برفقتها.

منذ البداية كان بادياً أن عامر قد عقد العزم على أن ينال رابحة رغم الكلمات السيئة التي سمعها منها وبعض الصفعات القوية التي لحقت به لكن الفتي كان متأثراً بها لدرجة كبيرة وأعتقد أن السبب الرئيسي في هذا هى رابحة نفسها فقد كانت ترسل إليه ببعض نظرات خاطفة من عيوننا فتلهب مشاعره بالإضافة إلى أنه أهوج ومندفع الطباع.

طلبت من فراج أن يسير خلف الحمار التي تستقله رابحة مع طفلها وقفص الدواجن المحمول عليه، ويمنع اقتراب أي جندي منها وبالأخص عامر المتهور، أما جويلي فسوف يراقب الماعز وكلبها، نحن سوف نتبع سيرهم وطلبت من الجميع الابتعاد عن رابحة حتي نصل إلي بر الأمان حتي لا ندمر كل ما فعلناه، علينا التمسك بالجندية والضبط والربط فكل ما سنقوم به من أفعال وتصرفات سوف يصل إلى القيادة العسكرية سواء رغبنا أو لم نرغب ولا نعلم من منا سيقوم بإبلاغهم بكل أخطائنا ومخالفتنا للقانون العسكري.

تلك الكلمات التحذيرية أفاقت الجنود وعلموا منها بأن من المحتمل أن أحد منا سوف يقوم بإبلاغ القيادة بما حدث ويحدث؛ من هو الشخص لا نعلم لكنها الخيارات التي أمامنا، وما علينا سوي الالتزام بالقانون العسكري، فمازلنا جنوداً بجيش مصر ونرتدي الملابس العسكرية ونحمل أسلحتنا الشخصية.

شعرت أن رابحة هادئة ولا تتدخل فيما أقوم به من قيادة ولا أعلم سبباً لهذا ومن المحتمل أنها كانت تخشي رد فعلي فأتركها مع الجنود وتصبح المجموعة بلا قيادة ويحدث بينهم التجاوزات والأخطاء وقد تتعرض هى وابنها للخطر حين اقتتال الجنود على الفوز بها ومن المحتمل أنها شعرت بأنها ذات حظوة عندي حينما قررت لها حارساً شخصياً يتولي رعايتها

وحمايتها لكن النتيجة النهائية هى السيطرة على الجميع وتنفيذ تعليماتي، لم تكن هناك تعليمات تصدرها رابحة سوي التحرك أو التوقف وما تقرره لنا من طعام.

سارت الأمور طبيعية وقطعنا خلال يومين مسافة أكبر ولم تحرقنا أشعة الشمس؛ كان النهار للراحة تحت أشجار النخيل المنتشرة على الطريق الساحلي القادم من العريش في اتجاه قناة السويس مروراً بمدينة القنطرة شرق، لم يكن هناك شيء يعكر صفو حياتنا سوي توتر عامر ونظراته المستمرة جهة رابحة التي منعت الحديث معه وأكثرت من الحركة والإيماءات الرخيصة والتنهدات المثيرة ولهذا أصبح الضيق والتوتر هو السمة الواضحة علينا جميعاً.

الليلة الثالثة لتحركنا لم يعاودني النوم رغم الإرهاق والسير والمتابعة لجنودي أثناء السير؛ أثناء النوم كانت رابحة تنصب خيمتها وبعدها بعشرين متراً كنت أرقد، وبعد هذا بعشرين متراً يرقد جنودي؛ أي كنت أقوم بعمل عازل في المسافة بينها وبين الجنود، رغم هذا كنت أتنبه علي تحرك عامر أو مصطفي ناحية خيمة رابحة فأنهر من أشاهده متسائلاً لماذا تتحرك لهذا الاتجاه رغم أنني أمرت بعدم ترك موقع نومكم ليلا كانت الإجابة الاعتذار وبأنهم توجهوا لتلك المنطقة كي يعمل "زي الناس" أصرخ به ألا يكفيك تلك الصحاري الشاسعة، أترغب فى إنهاء انسحابنا كمجموعة وكل واحد منكم يتحرك وينسحب بمفرده.

كانت تلك التوجيهات توقظ باقي الجنود وكل واحد منهم يؤنب زميله راغباً بأن نسير ونحترم التعليمات حتي نصل لبر الأمان، تلك الليلة ظللت يقظاً حتي أصابني الضيق والقلق من أثر عدم النوم فنهضت وسرت في اتجاه موقع الجنود وتعديته، جلست مستندا بظهري علي جذع نخلة، بعد

قليل شاهدني أحد الجنود فأقبل متسائلاً عما أيقظني وشرحت له بأنني أشعر بأن شيئاً ما يقرص في جسدي متسائلاً: هل من الممكن تواجد براغيث في الصحراء؟ نفي الشاب هذا، تبعنا باقي الجنود فرادي وكانت الشكوى لنا جميعاً هي عدم النوم وما نشعر به شيء يقرص بأجسادنا يجعلنا لا نرغب في النوم.

تذكرت حديث رابحة حينما أقسمت برحمة أمها إنها لن تدعني أنام وسوف تجعلني أتألم مثل أي إنسان قرصه الدبور الأحمر القاتل لخلايا عسل النحل، هذا هو حالنا؛ لقد بدأت السيدة تنفيذ مخططها، لقد منعتها من الحديث فامتثلت لكنها تتحرك بدلال الآن وتقوم بعمل إشارات بالعين ترسل بها لهذا أو ذاك حتي أصاب الجميع الأرق والتوتر.

تحدثت إليهم بما أفصحت عنه رابحة، وبأنها نفذت تهديدها مما دفع بالجنود إلي الضيق بل وصل الرأي عند بعضهم بتركها ولنسير بمفردنا وسوف نصل إلى هدفنا، كان الرأي صائباً لكني لم آخذ به بين دهشة الجنود وتساءل أحدهم حينما نوافقك الرأي ترفض التنفيذ وتتمسك بها؟ قلت لهم: جنودي الأعزاء، رابحة هذه سيدة قوية وقادرة علي عمل أي شيء، أيد الجميع هذا منذ اللحظة الأولي التي شاهدناها أثناء عراكها مع السيدة الأخرى حينما رغبنا في التعامل معها وشراء عنزة.

هنا مربط الفرس، دهش الجنود، أوضح لهم: أيها الجنود الأعزاء تلك السيدة قادرة علي الانتقام منا، هي الآن تحتاج إلينا ومن أجل هذا تساعدنا وحينما تشعر بأننا تخلينا عنها سوف ترتكب حماقة قد تودى بنا جميعاً كأن تعمل على الإبلاغ عنا للعملاء اليهود أو تتصل برجال المخدرات وتخبرهم بأننا شاهدناهم وعلمنا المغارة التي يقيمون بها وهكذا نصبح معرضين لأي خطر بل قد تتقول علينا وتدعي بأننا تعاملنا معها وأجبرناها علي الرزيلة

وسوف ترتفع همم الرجال بالدفاع والذود عن شرف فتاة من سيناء تجاسر عليها جنود الجيش، يجب علينا تهدئة تمردها ومنعُ سمها من أن ينال منا.

تفهم الرجال ما قلته وأشعرهم هذا بأن تلك السيدة الجميلة في منتهي الخطورة وقادرة علي فعل أي شيء ومن الممكن أن تسلك كل الطرق غير الشريفة للوصول إلي هدفها، من أجل هذا بدأ البرود والضيق من تصرفاتها يتبادر إلى ذهنهم وشعروا بأن الابتعاد عنها غنيمة ومن أجل هذا يجب أن نحتاط ونأخذ حذرنا حتي نصل إلى بر الأمان ونتركها بجوار القناة وبالتالي نكون قد نفذنا تعهدنا معها ونعبر القناة وننهي تلك المأساة التي عشنا بها أكثر من ثلاثة وعشرين يوماً حتي الآن.

أثناء جلوسنا سمعنا حركة مجاورة لنا بعدة أمتار، تنبهنا وجذب أحد الجنود أجزاء سلاحه فسمعنا صوتها، لقد كانت رابحة التي أقبلت وتلصصت علي حديثنا بالكامل، وخشيتنا من أن تقوم بالإبلاغ عنا عندما شاهدت نظرة الاحتقار من الجنود اندفعت بالبكاء كما لم تبكِ من قبل كان بكاؤها مؤثراً بدرجة كبيرة واستعطفتنا بأن نقف معها ونشد من أزرها من أجل طفلها الصغير ورغبتها بالعودة إلي زوجها، تأثر الرجال من هذا البكاء وطيبوا من خاطرها، نهضت بعد هذا مستندة علي ذراع عامر الذي أوصلها إلى خيمتها.

عدنا لمحاولة النوم فشاهدت عامر مازال قريباً من خيمتها، أرسلت بطلب حضوره وسألته لماذا أنت قريب من خيمتها رغم منعي هذا أجابني باستهتار بأن رابحة طلبت منه ذلك، أحدثه: أنا القائد وأنا الذي آمر وليس رابحة، نظرت إلى جنودي قائلاً: جنودي، بالصباح سوف نرحل ونترك كلا من عامر ورابحة، علي إثر هذا خرجت رابحة تقدم اعتذارها وطلبت من عامر تنفيذ أوامر الضابط، هكذا نفذ الجندي أوامري لكن بأمر رابحة وليس

بأمري، تبادلت مع الجنود الآخرين الدهشة وحاولنا النوم خلال تلك الرحلة القاتلة.

اليوم الرابع للانسحاب برفقة رابحة تحركنا بعد أن حل الظلام بالصحراء ولم تعد الرؤيا واضحة، كان سيرنا منتظماً هادئاً لشعورنا بوجود دليل يرافقنا ويجيد عمله لكنه دليل خطر؛ إذا انقلب علينا، هذا جائز نظراً لحالة الشبق التي كانت واضحة عليها بالإضافة إلي حرمان الرجال المصاحبين لنا من مشاهدة النساء والتحدث معهن حتي لو كانت تلك النسوة أشقاء أو أقارب أو جيران، فإن الحرمان من الشيء يجعلك تفكر فيه بما هو مخالف حينما كان متوافراً أو في حالته الطبيعية.

وصلنا إلى الموقع المختار أسفل منطقة كثيفة من النخيل، ألقي كل واحد منا ببدنه علي الأرض بعد أن انتهي الرجال من تقديم المساعدة للسيدة المرافقة وابنها ونصب الخيمة، طلبت من جويلي أن يرقد قريباً من رابحة حتي يراقب أي شيء غير طبيعي نظراً لأنه أقلنا استغراقاً في النوم وقادر على سماع الأصوات الخافتة أو البعيدة أكثر منا كما أنه يستيقظ علي صوت دبيب النملة كما يقول المثل.

حوالي العاشرة من صباح هذا اليوم نهض الجميع يتسكعون كعادتهم بين أشجار النخيل، خلال هذا كان كلّ من عطية ومصطفي يعدون طعام الإفطار المكون من البيض المقلي والجبن والخبز الطازج، بعد قليل عاد فراج ليخبرني بأن بتلك المنطقة بركة مياه واسعة غير عميقة والمياه بها تسعد أي إنسان وتساءل هل يمكنه والجنود الاستحمام بها؟

طلبت منه ألا يفعل هذا؛ فالكثير يأتي لتلك البركة للتزود بالمياه وعليك أن تضع نفسك مكانه لو أنك شربت مياه متبقية من قذارة أجساد الآخرين ما هو شعورك؟ بنفس طريقتنا السابقة نحمل المياه بعيداً ونستحم ونتطهر

ونترك المياه طاهرة عذبة نقية، رافقني فراج إلى مكان البركة وكان منظرها يثير الشجن لنعمة الله في هذه الصحراء بأن تشاهد نبع ماء صاف رائق طعم المذاق تظلله أشجار النخيل الباسقة المحيطة بالمنطقة بكثافة شديدة والمنطقة متسعة بالمقارنة بمناطق نخيل أخري.

مساء هذا اليوم توجهت لعين الماء الرائعة وقمت بالوضوء كي أقوم بأداء صلاة المغرب ثم العشاء؛ فسوف نتحرك منتصف هذا الليل كما قالت رابحة، أنهيت وضوئي ووقفت لأداء الصلاة خاشعاً دون تحديد موقع القبلة التى لا نعرف اتجاهها؛ أثناء هذا سمعت صوت رابحة وقد تحررت من ملابسها الخارجية وظلت بملابس شفافة داخلية، قفزت بعين الماء تسبح مثل سمكة البوري الفضية، كانت تحدث اصواتاً مثيرة شجية أغلقت عينئ عن هذا المنظر المثير الذي كاد أن يخرجني من الصلاة ولكنها استمرت في إحداث أصوات نسائية مثيرة فغيرت من وجهة الصلاة حتي لا تشغلني عن عبادة الخالق.

قبل نهاية الصلاة غادرت الماء، جففت جسدها قليلاً وأقبلت عليّ وأنا جالس أقرا التشهد، ارتبكت وقرأت الفاتحة ثم عدلت محاولا قراءة التشهد وحينما تعذر عليّ ذلك سلمت وخرجت من الصلاة بغرض إعادتها بعد أن تغادر المكان، أشاهدها تقف أمامي وقد ارتدت قميص نوم شفافاً يدير العقل والفؤاد؛ انحنت عليّ وجذبت يدئ لأعلي فنهضت، أصبحت أمامي مباشرة وتحدثت بصوت متحشرج:

. إيه .. مش ناوي تلين؟

. رابحة .. أرجوكي .. أنا مش قادر أتحمل ضغطك عليّ بالطريقة دية وأنا أخشي ربنا والقانون.

لم تجب على تعطفي لها بل وضعت أصبع يدها بين زرايز سترة

الأفرول، عبثت بشعر صدري وجذبتني برفق ناحيتها .. سارت للخلف وأنا أتبعها لاهث الأنفاس .. أردد.. سوف أقع .. سيضيع كل شيء ديني ودنياي وسمعتي، لن أقوي عليها؛ ماذا أفعل؟ توقفت رابحة برهة تستعيد أنفاسها اللاهثة أيضاً، اقتربت مني حتي التقت الأنفاس اللاهثة، تحدثني بصوت قادم من السماء تلتقطه أذناي بصعوبة، سوف أنهي كل شيء معك الآن، يا قاتل يا مقتول، محدش قدر يقف قدامي، شاهدت عيونها أمام عيوني مباشرة، عيون براقة لامعة متفجرة بشيء غامض، شعرت بأنني سوف أسقط من فرط الإعياء كما تفاعل جسدي وحدثت به فورة ألهبت حواسي، اسمع من يناديني، تقدم منها واغترف من هذا النعيم سوف تتالها ولا تخشي عاقبة القانون، هيا موتة وإلا اتنين، كان زمانك ميت من أسبوعين، ادخل بها أيها الشاب واختبر قدراتك ولن يمنعك أحد هيا.

شعرت بحضنها الساخن الناعم، احتضنتها بكل قوة، خرج صوتها يذيب الحجر، أسمع شهيقاً وتنفساً وهواء ساخناً لا أعرف هل صادر منها أو مني، نسيت الدنيا وما حولي، تذكرت الله بسرعة وسمعت نداء أبي يصرخ بي، هل علمتك هذا يا ابن الكلب يا نجس، ح تروح من ربنا فين تنبهت قليلاً ولكن الغواية مازالت، أحاول مجاهدة النفس دون جدوى سمعت صوت أذان صادراً من السماء، تنبهت، بكيت على كتفها بينما تقوم هى بكل شيء بالإنابة عني وعنها وأصبحت أنا خبر مبتدأ رابحة.

أتسائل: يا ربي؛ لقد وقفت مع حبيبك يوسف وهو بشر مثلي ساندته في محنته وأنا أعترف إليك بأنني ضعيف أمامها وإذا لم تساعدني سأصبح فى نار جهنم، يارب قف معي، قف معي، خرجت الدموع غزيرة من عينئ، توقفت رابحة ونظرت إلى متسائلة:

ـ بتعيط ، فيه راجل يلاقي واحدة بتحبه ويعيط، ده كلام، خليك معايا ح

تحس بحاجات عمرك ما حسيت بيها وحتتمتع بحاجات ولا في الأحلام عادت وجذبتني إليها برفق، أعيد الالتصاق بها، جسد ناعم أبيض كالحرير، أملس على ظهرها وكتفيها العاريتين، أشعر بحلاوة لم أشعر بها؛ فجأة شعرت بخشونة آلمت بطن وأصابع يدى، فتحت عينىَّ المغلقتين توقفت وكادت روحي تخرج من جسدي، لقد شاهدت ما لم أكن أتوقع مشاهدته، ظهرها أصبح لونه أسود فاحماً متعرجاً يغطيه شعر كثيف كأنه أشواك.

بداخلي قلت يا لهوي، إيه ده؟ انفكت أعصابي وخمدت جذوتى مبتعدا قليلاً، لكنها تمكنت مني وحاولت عصر وسطي كي أظل ملتصقاً بها أدفعها برفق فتشعر بسعادة؛ حيث كنت أدفعها من صدرها بدلت مكان دفعها بأجناب بدنها، ادفع وهى تجذب، صرخت، توقفت محاولة أن تتساءل لكني ابتعدت مسرعاً للخلف، فى تلك اللحظة شاهدت عيونها الجميلة عبارة عن عيون حمراء مخيفة وشعر رأسها الجميل أصبح متهدلا وقسمات وجهها تشبه وجه ضبع مفترس، عدت مسرعاً للخلف ورفعت يدي اليمني كأني أدافع عن نفسي لأبعد خطراً قادماً عليّ.

وقعت أرضاً وأنا مازلت رافعاً يدي نحو وجهها، صارخاً: ابعدي عني، ابعدي عني، زاد هذا من حنقها فقد غادرت حالة الإحساس عالى القيمة، انحنت أرضاً وكبشت بعض رمال من الأرض وقذفت بها ناحيتي صارخة، يخرب بيت أهلك ، ورحمة أمي أنت راجل مخصي، غور في ستين داهية، لما أنت مش راجل أمال عامل دوشه ليه.

تركتني وأعطتني ظهرها فشاهدت ما سبق أن شاهدته من تعرج بظهرها بلون أسود قاتم وشعيرات طويلة كأنها أسلاك رفيعة، اختفت من أمامي، شعرت أن قلبي سيتوقف عن النبض وحدث لي كرشة نفس كما يقول العامة، أحاول أن أستنشق كمية من الهواء، حاولت النهوض ولكني سقطت

من الإعياء والعرق الغزير بلل ملابسي، أصبح وجهي يغلفه العرق والتصقت به بعض الرمال، نهضت مغادراً فشاهدت جنودي قادمين متسائلين عن سبب الصراخ هل هو صراخي أو صراخ رابحة؟ لم أعد أميزهم، ساعدوني حتي عدت بمعاونتهم إلى مكان قريب من مكان مبيتنا تلك الليلة.

أحضر البعض مياهاً وشربت منه الكثير؛ قام أحدهم وأحضر مقدمة سعف نخيل يهش بها علي وجهي فأنعشت قلبي وبدني المحترق، أشرت لهم بالصمت وألا يتركوني؛ كان الخوف يضرب أطنابي؛ فما شاهدته وما ظهر علي رابحة أشعرني بالخوف معتقداً بأنها عفريت أو جنية البحر التي كنت أسمع عنها في القرية أو النداهة التي كانت تتحدث عنها نساء القرية بأنها تظهر في أول الليل وتتخير شاباً صغيراً تأخذه لمخدعها تتمتع به ليلة واحدة وفي الصباح يشاهده القوم مقتولا أو غارقاً في مياه الترعة.

مضي بعض الوقت وسمعت صوت عامر يتحدث من بعيد يصرخ ويصيح بأنه قرر التخلص من هذا الضابط النجس بالقتل والذي حاول مهاجمتك واغتصابك، تحدثه رابحة وتطلب منه أن يظل علي حمايتها فهى تخشي أن أعود لاغتصابها أو الفتك بها وبطفلها؛ يخبرها بأنه سيظل حارساً أميناً عليها وأنه من الآن رجلها وسوف يحميها مؤكدا كلامه بأن هذا سلاحي وأنا علي أتم الاستعداد أن أقضي عليه وعلي باقي الجنود لو حاول أحدهم حمايته، شكرته بصوت أنثوي مخالف لصوتها الذي سمعته في نهاية لقائي بها، تردد: أنت سبعي ورجلي والحامي لي ولطفلي، لا تترك الخيمة وسأدخل لأستريح من عناء مقاومتي لهذا الضابط الخائن الذي حاول أن يغرر بى.

دهش باقي الجنود من حديثها؛ حين شعرت بالإفاقة طلبوا مني أن

كان في مقدوري الحديث أن أخبرهم بما حدث بيني وبينها؛ أنهم غير معتقدين بصحة حديثها لأنه حديث افك ورزيلة ونحن نعلم عنك كل شيء كما نعلم عنها كل شيء، ولا نعتقد أو نشك لحظة فيما قالته سوي هذا الأهوج عامر، رويت باختصار ما حدث وقد ألجم كلامي الرجال وبالأخص حينما وصلت روايتي للعناية الإلهية وجعلت عينيَّ ومشاعري تشعر برابحة الشريرة المشابهة للجان، انتفض بعض الجنود وخشوا أن تكون تلك المنطقة بها أرواح وأشباح فما حدث مخالف لما نشاهده من فتنة رابحة.

أخبرهم هذا الرجل المؤمن الجندي جويلي الذي كان دائم الصلاة والعبادة بأن ما يقوله ضابطنا هو حقيقة مؤكدة، فقد طلب عون الله وقد فعلها قبلها النبي يوسف الصديق ووقف الله معه، والآية تقول بسم الله الرحمن الرحيم " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " صدق الله العظيم؛ لقد جعلها الله برهاناً وتأكيداً لمن يطلب عونه وقت المحنة ولهذا أرسل الله لضابطنا بمن أزال الفتنة والجمال عن رابحة وجعلها دميمة الشكل كريهة الرائحة حتي يبعدها الله عنه، لقد حضرت الملائكة وقت نداء ضابطنا لله وطردت إبليس اللعين، وأبدلت صورة رابحة بمخلوق كريه مرعب.

بعد هذا الحديث غلبني النوم وشعرت أنني محموم، سمعت الجنود من حولي يتحدثون بأن روح الجان "لبستني" والبعض نفي هذا وبأن الموقف أقوي من مقدرتي علي التحمل، يجب علينا أن نظل بجواره حتي يعفيه الله من كبوته والتي كاد أن يهلك خلالها مع تلك الغانية، أحدهم ناجي الله بأن احمنا مثل ما حميت يوسف وغيره وأخيراً ضابطنا الذي رفض الفسق والرزيلة.

بعد عدة ساعات تنبهت وشعرت بأنني أحسن حالا، أسعد هذا جنودي ودون أن أعلم توجه أحدهم كي يطلب من رابحة إعداد كوب شاي كي أعود إلى حالتي لكنه عاد مسرعاً وأخبرنا جميعاً بأنه سمع صوت رابحة وعامر بداخل الخيمة وتدل أصواتهما على أنه يعاشرها الآن، صمت القوم بينما تحدث مصطفي ابن الإسكندرية معلقاً:

. أيوه يا جدعان، دي نتايه ميه ميه، يا بختك يا عامر يا معفن قدرت تلهف طبق المهلبية

نهره الجويلي وباقي الجنود محتجين على حديثه السيئ وكيف يسعد لوقوع زميل لنا في براثن تلك المرأة، لقد نجحت رابحة مع هذا المندفع المتهور وسوف يدفع ثمن هذا؛ لأنه خالف الله فيما نهانا عنه، البعض قال:

. الله يخرب اليوم اللي قابلناكي فيه يا رابحة، كنا كويسين وراضين بشوية ميه وبعض كسرات خبز جافة أو حتي بأكل السحالي والغربان على الأقل مكناش بنغضب ربنا.

بعد قليل نمت أصوات رابحة وعامر إلينا.

. هايل يا عامر، أنت فعلا أسد، يخرب عقلك مكنتش أعرف شطارتك لا لا أنا متأسفة على كل اللي حصل مني، دا أنا كنت هابلة وبأجري ورا واحد خرع، اخص عليه وعلي اللي جابوه، الواد ده أنا شاكه فيه مش ممكن يكون راجل زي باقي الرجالة.

قاطعها عامر غاضباً بأنه يغار عليها ولا يجب أن تذكر أسماء أغراب أمامه، ضحكت بملء فيها معلقة:

. هما فين الرجالة دوول؟ كل زمايلك النسوان أحسن منهم، تعالي يا حبيبي ندخل الخيمة وح أقولك علي حاجة في سرك.

ضحكا معاً بضحكات بذيئة قذرة، بينما كان الجنود في أشد حالات الغضب

ولهذا قررنا ترك المكان واتجهنا قريباً من البئر لنبتعد عنهم وعن هذا المكان النجس.

أيام صعبة للغاية

لم نتحرك خلال تلك الليلة، فالأحداث كانت في منتهي الخطورة ولولا أن رابحة راغبة في التوجه إلى لقاء زوجها وخشيتها على طفلها لأمرت عامر بأن يطلق النار علينا نحن الخمسة ويقتلنا في الحال، لقد أصيبت السيدة في كرامتها إصابة شديدة من تمنعي عنها وصراخي خوفاً منها بتلك الطريقة، لقد وصلت إلي بداية المتعة ولكن تلك المتعة قطعت عنها وعني حمدت الله لهذا بينما ثارت هى وأصبحت هائجة مثل أنثي الذئب حينما تشاهد مقتل صغارها.

عصر اليوم التالي تحركنا دون حديث ولم يعد هناك من يتولي حمايتها أو مساعدتها، أصبح عامر الكلب الأليف بالنسبة لها، تأمره فينفذ ما تطلبه منه، تجاهلتنا تماماً وأصبحنا نسير خلفهم بمسافة طويلة أي نشاهدهم علي مرمي النظر كما منعت عنا الطعام وشرب الشاي وكل هذا أهدته لعامر مشفوعا بكلمات طيبة جميلة تغلفها بعبارات جنسية حارة وقبلات متبادلة أمامنا ومن أجل هذا امتنعنا عن الجلوس أو النوم قريباً منهم.

تسلل مصطفي ابن الإسكندرية قريباً من الخيمة ليمتع أذنيه ببعض كلمات متبادلة بينهما، لم ألاحظ هذا وعندما علمت بما قام به عنفته علي هذا السلوك، وأخبرته أنهما خالفا أمر الله كما أن عامر خالف القوانين العسكرية وسوف تعقد له محكمة عسكرية يعاقب علي فعلته هذه بالسجن الحربي.

تحدث مصطفي وأخبرنا بأن أذنيه التقطت عبارة من رابحة تخبر فيها عامر بأن المتبقي ٤٨ ساعة للوصول للقناة؛ فلم يتبق أمامنا سوي خمسين كيلو سوف نقطعها في يومين؛ لأن قطع مسافة الخمسين كيلو في يوم

واحد شديدة الصعوبة.

فرح الرجال؛ فلم يعد أمامنا سوي يومين لملاقاة الأهل والبعد عن خطورة الوقوع في يد العدو، أيضاً كنا نلتمس الراحة من كثرة السير والنوم بالعراء، الذي أصابنا بإرهاق وصعوبة التأقلم لهذا الطقس كما أن حالتنا النفسية كانت سيئة ونحن نسمع ونشاهد الفسق أمامنا؛كما أضحى الطعام بتلك المنطقة شحيحاً ولم نشاهد أحداً من البدو نستجدي منه بعض الأطعمة مثلما كان يحدث بعمق سيناء.

وصلنا إلى منطقة جديدة، كانت بشائر الفجر علي وشك البزوغ ألقينا بأجسادنا المنهكة على الأرض مباشرة نحتمي بها ونشبع جوعنا للطعام بنوم لعل الله يرسل إلينا بقبس نور من عنده، أثناء نومي كنت أشم رائحة نفاذة لجيفة حيوان أو إنسان مات وتحلل جسده، غلبني النعاس واستيقظت حوالي التاسعة صباحاً بعد أن طرحت الشمس أشعتها الرقيقة الناعمة قبل أن تشوي أجسادنا المفككة المرتعشة.

استيقظ بعض الجنود من النوم كما نهضت رابحة على غير عادتها وأعدت عدتها لهذا اليوم السار في حياتها وحياتنا بالعبور إلي الضفة الغربية لقناة السويس والاحتماء بالأهل والوطن، أقبل عليّ أحد الجنود يخبرني بأن المنطقة تكتظ بأجساد الشهداء من الجنود المصريين نهضت معه وسرنا حوالي خمسمائة متر، شاهدت العشرات من الجنود وقد حصدت أجسادهم دبابات العدو ثم قامت بدهسهم والشيء المحزن في تلك المشاهد أنهم جميعاً يمسكون بكعب الزمزمية متجهين لبئر الماء كي يحصلوا على جرعة ماء بعد الجفاف الشديد الذي لاقوه مثلنا.

توجهت إلي البئر وشاهدت أشياء لامعة بما يعني أنه زيت أو مادة كيمائية ألقيت به وتذكرت نصيحة أحد البدو الذي نبهني لمثل هذا الأمر

الخطير، عدت إلى جنودي ومازال الضيق وألم النفس بادياً علينا؛ نهض عامر للتريض أمام الخيمة فقبلته رابحة بعد أن أتت على همته معها ببعض كلمات بذيئة وحركات مثيرة بيدها تدل علي سوء الخلق.

جلس عامر ورابحة معاً يتناولان الطعام ومن حين لآخر ينظران ناحيتنا مبتسمين والسعادة تحيط بهما، لقد نال كل واحد منهما بغيته بالنسبة لرابحة فقد همدت شهوتها التي كادت أن تصيبها بالجنون وعامر حصل علي متعته من رابحة والذى كان يجد في أثرها بل أنه حدث مصطفي في إحدى المرات بأنه مستعد أن يدفع حياته ثمناً لأن ينام معها ولو مرة واحدة مما أضحك مصطفي وأخبره قائلاً "دا أنت تمنك رخيص".

تناول العروسان الشاي وارتدي عامر سترة الأفرول وحينما هم بمغادرة باب الخيمة تساءلت رابحة إلي أين أنت متجه يا حبيبي؟ أجاب: بأنه سوف يتجه لهؤلاء الشهداء كي يقرأ عليهم الفاتحة، لم يستطع جويلي الصمت حيث صاح قائلاً: بأن الفاتحة التي ستقرؤها لا تنفع لأنك نجس وعليك التطهر، أجابه عامر أنا أطهر منك يا معفن مما دفع برابحة للتدخل وطلبت من عامر ألا يتفوه بألفاظ سيئة مثل هؤلاء وهى تشير نحونا.

سار عامر جهة الشهداء بينما جلسنا نفكر فيما سوف نفعله هذا اليوم واقترحت بأنه من الواجب علينا التحرك ظهراً حتي نصل شاطئ القناة قبل الغروب كي تساعدنا قواتنا ولا تطلق علينا النيران، صدر مني هذا التصريح حينما أخبرني مصطفي بأنه لم يتبق أمامنا سوى عشرة كيلومترات ونصل قناة السويس، تبادلنا الأمنيات الطيبة راجين أن يكمل الله مشوارنا على خير، وأن تظل عيون الأعداء بعيدة عنا خلال تلك الفترة المتبقية.

أقبل علىّ الجندى فراج يخبرني وهو يشير جهة عامر بأنه يقوم بتفتيش أجساد الشهداء ويحصل علي ما معهم، توجهنا بأنظارنا جهته وتأكد

لنا ما قاله فراج، حينما نظر عامر ناحيتنا وشاهد أننا نراقبه ابتسم سعيداً بغزوته تلك ومارس مهمته بنشاط ودأب، عدنا إلي حديثنا الباسم لكن عينيّ جويلي لم تفارقا عامر خلال سرقته للشهداء؛ حيث كان حزينا ومتألما لما يحدث، طلبت منه الهدوء فالله لن يتركه وسينزل به عقاباً شديداً.

انتهي عامر من سرقته للشهداء، نشاهده قادماً في اتجاهنا؛ توقف فجأة ثم عاد أدراجه كأنه نسي شيئاً ما أو شاهد شيئاً يستحق السرقة أهملنا مراقبته وتحدثنا في أحلامنا حينما يعود كلٌ منا لأسرته، فجأة دوي صوت انفجار وأعقبه صرخة لم تكتمل؛ نظرنا فشاهدنا جثة عامر ترتفع لأعلي وتسقط أرضاً بعد أن مزقها انفجار أحد الألغام التي وضعها الإسرائيليون أسفل أجساد الشهداء، كنا نعلم مسبقا بهذا من بعض البدو الذين نصحونا بتوخي الحذر من بعض المظاهر والأشياء التي سوف نواجهها؛ فحينما نشاهد جثثاً لجنود فمن الجائز أن يكون بأسفلها متفجرات وحينما نحاول تحريكها لدفنها تقضي علينا في الحال بسبب انفجار تلك العبوات، بل وعلينا أيضاً النظر لمياه الآبار فإذا كان سطحها لامعاً فهذا معناه أن الإسرائيليين ألقوا بمواد سامة به.

جرت الأحداث سريعة متلاحقة، فقد نهضت رابحة ونظرت جهة عامر مثلنا فأطلقت صرخة مدوية وولولت قائلة: "مين ح يربي ابنك اللي في بطني؟ يعني أنا ربنا كتب عليّ أربي عيل أبوه في السجن والتاني أبوه مات يا خيبتك يا رابحة ..... "

أصبحنا في حيرة فقد كانت الصدمة شديدة وقاسية علينا، فهذا الشاب ظل يرافقنا لمدة ثمانية وعشرين يوماً ليل نهار لا نرى أو نتحدث إلا معاً فقدناه في لحظة سريعة خطيرة ومنذ أيام ونحن في خصام وضيق من تصرفاته لكنه زميلنا، فجأة شاهدنا أحد ضباط الجيش المصري ومعه بعض

معاونيه من الصف والجنود والذى أتي مسرعاً على صوت الانفجار والدخان المصاحب له، تعرف علينا وطلب من أحد مساعديه أن يأخذ بيد رابحه وابنها إلى منطقة القنطرة شرق لأنه المكان المخصص لعبور المدنيين كما أمدنا ببعض الطعام السريع الجاف وبوصلة سير تساعد على تحديد اتجاه السير، أخبرنا بأن المسافة المتبقية اثنا عشر كيلومترا كما زودنا بزاوية السير التي نربطها علي البوصلة بعد عبور المدق الرملي مباشرة.

هكذا تحركنا والألم يعتصر قلوبنا وتفتت شملنا، فقد توجهت رابحة لجهة أخرى وعامر لاقي ربه وظل جسده بالعراء دون أن يستطيع أحد منا أن يواريه الثري كما كنا نفعل طوال سيرنا منذ ثمانية وعشرين يوماً وهذا اليوم كان الموافق للرابع من شهر يوليو.

•••

لقاء إنساني بمدينة بورسعيد

نجحنا في الوصول إلي الضفة الشرقية لقناة السويس بعد سير مؤلم بمنطقة ملاحات سهل التينة، عبرنا القناة للجانب الغربى بمساعدة رجال هيئة قناة السويس بلنش بحري، تم تجميع بعض الجنود في منطقة الكاب نهاية اليوم حضر أتوبيس عسكري حمل الجميع إلي مدينة بورسعيد وهناك بمستشفي المبرة تم تطهير جراح يدي التي مضي عليها أربعة أسابيع كما تم عمل فتحات ببطن قدمئ لتصريف المياه المتجمعة من عناء السير تلك الفترة.

حصلت على ملابس نظيفة وحمام منعش، كما تناولت الطعام وأويت إلي فراشي مع العديد من الضباط؛ علمت أن هذا المكان مركز لتجميع الضباط العائدين من سيناء، صباح اليوم التالي تناولت طعام الإفطار

وطلب مني المرافقون بأن أتوجه للحلاق، شاهدت حجرة فسيحة أعدت لهذا الغرض وبها عدد خمسة أو ستة من الحلاقين بمعداتهم وأدواتهم وكراسي الحلاقة؛ جلست تحت يد أحدهم وقام الرجل بإزالة الشعر الكثيف الذي سبب لي ضيقا خلال الفترة السابقة.

تمادي الرجل في تهذيب شعري والعناية به ثم عطرني ببعض الكولونيا تحرجت من هذا الفعل لأنه يعني بأن أنفحه بقشيشاً ولم أكن أملك مليماً واحداً، طلبت منه ألا يفعل هذا فأنا لا أملك مالا، توقف الرجل وأخبرني بأن تلك مهمته ويتقاضى عنها أجراً، نظر إليّ مليا وخرجت الدموع من عينيه قائلاً:

- والله وأنا بأقص شعرك بأفتكر ابني الكبير ممدوح اللي راح مع باقي الجنود ولسه مرجعش لحد النهاردة.

بكي الرجل بحرارة وتجمع حوله زملاؤه يطيبون من خاطره.

قبل انصرافي أخرج بعض القروش التي حصل عليها كبقشيش من ضباط قص شعر رأسهم قبلي، حاول أن يعطيها لي وأنا أقدم شكري رافضاً ثم نظر إليّ عاتباً متسائلاً:

- يعني عشان فقير مش عايز تاخد شوية الملاليم دية، والله أنا حبيتك وبأقول لو حدث المقسوم وابني مرجعش أطلب من البيه اللي قدامي يزورني، ربنا يخليك لأهلك، تسمح لي أن أقولك يا ابني، خرجت الدموع ساخنة من عينيه، احتضنته قائلاً:

- ولا يهمك يا بابا، أنا زي ابنك ممدوح، ربنا يرجعه لك بالسلامة شكرني وهدهد على كتفي وأخبرني قائلاً:

- لو جيت بورسعيد تعالَّ زرني، دكاني جنب الشامي بتاع البسبوسة متتساش، أنا عليوة، عليوة المزين، مع السلامة يا ابني ..

وعادت إليه دموعه مرة أخري.

مرت الأحداث وتوجهت مساء هذا اليوم بالقطار الحربي إلي القاهرة وأنا أستعيد الأيام القاسية علي ذاكرتي، كنت في أشد الشوق واللهفة للقاء نورهان، كنت أعتقد أنها سوف تسري عني وتعطيني بعضاً من متاع الدنيا الذي فقدته خلال رحلة الصراع للعودة لمصر ولجيشها، وصلت ميدان العباسية بصعوبة بعد أن ركبت الترام دون تذكرة مما آثار غضب الكمساري الذي ألقي عليّ وابل من الشتائم؛ خلالها التزمت الصمت ثم قدم اعتذاره تحت ضغط واحتجاج الركاب كما أنه رثي لحالي وشكلي وهيئتي والحالة السيئة التي أنا عليها.

الساعة تعدت التاسعة مساء؛ توجهت إلي إدارة السلاح كما أخبروني بمدينة بورسعيد، هناك شاهدت الظلام يحيط بالمكان وأخبرني جنود الحراسة بأن أعودهم صباح الغد حتي يكون الضباط قد حضروا إلي مكاتبهم، كنت في أشد الحاجة للطعام والراحة البدنية، ليس معي نقود ومن أين أتناول طعامي، بسيناء كنا نستجدى البدو لكن هنا في القاهرة سوف يصبح الموقف شائكاً وبالأخص بعد أن أسمعني كمساري الترام بعض الشتائم التي لا تليق.

كانت عزة النفس والكبرياء قد عادت إليّ بعد أن شعرت أنني إنسان بعد أن استبدلت الملابس القذرة وحصلت على حمام وصففت شعر رأسي بعد قصه رغم أنه مازال يضايقني حيث سقط الكثير من الشعر القصير على قفايا وأصبح مثل الأشواك ولم أستحم بعد هذا، توجهت لمبني إداري بميدان العباسية (المؤسسة الاقتصادية) وهو خاص بالقوات المسلحة ومشابه لمحلات عمر أفندي في نشاطه، جلست على سلم المبني وخلدت في نومي هرباً من الجوع والوقت القاتل الذي لا يمضي.

نهضت على صوت خشن يكيل السباب لي ولمن خلفني ويشهر مطواة قرن غزال في وجهي، ارتعدت فرائصي فقد أقبل الإسرائيليون لأسري، كنت مازلت أحيا بسيناء، رفعت يدئ لأعلي لكن صاحب المطواة طلب مني إخراج ما معي من نقود أو ساعة وإلا سوف يمزق وجهي ويقضي عليّ، لم أجبه وظللت رافعاً يدئ لأعلي مما دفعه للسباب مرة أخري اعتقاداً بأني أهزأ به.

قام بتفتيش جيبي دون الحصول على مليم، سبني وبصق عليّ ولعن اليوم الذي شاهد فيه سحنتي الكريهة، أخبرته بأنني جندي غريب عن القاهرة وجوعان، أعاد سبابه لي وبأنه أكثر جوعاً مني وأتي ليبحث عن قروش معي كي يقتات بثمنها؛ غادر موقعي وأنا في دهشة؛ فقد تبين لي بأنني بميدان العباسية ولست بجبال وصحراء سيناء، أثناء سيره شاهد شابا أنيقا يغادر سيارة فيات فأخرج سلاحه وطلب منه جنيهاً فأخرج الشاب جنيهاً وسلمه له، أسعد هذا اللص فنظر إلى مخاطباً بأنه حصل علي لحلوح وختم هذا بسبابي:

. يخرب بيت فقر أهلك.

مضت عشر دقائق تقريباً فعاودني النوم ثانية وقبل أن أستغرق فيه شاهدت الشاب اللص قادماً في اتجاهي، شعرت بخوف وفكرت في الهرب إلى أين أهرب؟ الشوارع فارغة من المارة رغم فصل الصيف بسبب الكارثة التي حلت بمصر، حاولت الفرار لكنه استوقفني وألقى بلفافة أمامي قائلاً:

. اطفح .. تساءلت ما هذا؟ أجابني:

. عرفتني إنك جعان ولضمان والفقر مرسوم علي وش أهلك، قمت أخدت من الواد الخنفس صاحب العربية جنيه وجبت لك سندوتشات كباب وكفتة شكرته وطلبت منه أن يأكل معي لكنه شكرني قائلاً:

. أنا فعلا ح أموت من الجوع لكن أنت باين الغلب والفقر معشش في بيت أهلك، كل ياد وخليك سجيع، تركني قائلاً بأنه سوف يذهب لشراء كوبيتن شاي نحبس بيهم.

أثناء تناولنا الشاي أقبلت سيارة شرطة وهبط منها مخبر وجندي وأشار الشاب الذي سرقه هذا اللص بأن هؤلاء هم اللصوص، لم يتحدث معنا أحد؛ حيث قام كل واحد منهما بدفعنا إلى ظهر السيارة مع بعض المرطبات من سباب وضرب علي الوجه والقفا حتي وصلنا إلى قسم شرطة الوايلي هناك استقبلنا أحسن استقبال ولم نعد نعلم أين نحن وماذا حدث حتي أصبحت الدماء تسيل منا والكدمات تغطي الوجه وباقي الجسد، تقرر عرضنا على رئيس المباحث الذي أدهشه حالنا ولكن رجاله أخبروه بأنهم قبضوا علينا بهذا الوضع، لم يصدق قولهم فهو يعلم قسوتهم وكذبهم وسوء تصرفهم، تعرف الرجل على شخصي وعلم مني الموقف الإنساني الذي دفع باللص إلى السرقة، أفرج عن اللص بعد أن تنازل الشاب عن حقوقه حينما علم بما كنت أقاسيه منذ شهر بسبب الحرب.

جلست مع رئيس المباحث الذي كان برتبة النقيب وتحدثنا معاً وأخبرني بأن له شقيقاً يكبره بعدة أعوام وتساءل أين أنت يا وليم، تنبهت بسرعة متسائلاً: هل يدعي وليم شفيق؟ فأكد لي علي صدق الاسم أخبرته بأنه لاقي ربه أثر معركة شديدة مع العدو وذكرتها له، فاضت الدموع من عينيه لفراق الشقيق الأكبر، بعد قليل هدأت نفسه وأعد مأدبة طعام عامرة تناولنا خلالها الطعام والشراب وصباح اليوم التالي توجه بى إلي إدارة السلاح وقام بإقراضي خمسة جنيهات كما زودني بعنوانه ورقم تليفونه مؤكداً عليّ بأنه يجب زيارتهم كي تراني أمه وزوجة وليم وأقص عليهما بطولة الشهيد.

سارت بى الأحداث وغادرت إدارة السلاح أحمل خطاباً رسمياً موجهاً

لوحدتي قريباً من مدينة السويس مع رفض الضابط المسئول منحي إجازة ولو ليوم واحد كي أعلم أسرتي بأني مازلت على قيد الحياة، كنت أسير بالشارع الواصل بين إدارة السلاح وميدان العباسية وهو شارع قفر شبه صحراوي في تلك الفترة وبه حالياً أكاديمية الشرطة ومبني كهرباء الريف، لم أكن قادراً علي السير من آثار الفتحات التي تمت أول أمس بمستشفي المبرة بمدينة بورسعيد والتي أثرت علي قدميَّ وأصبحت أسير بصعوبة.

جلست علي الرصيف غير قادر علي استكمال الطريق إلى ميدان العباسية كي أستقل الأتوبيس الذى يحملني إلى محطة كوبري الليمون كي أستقل القطار الحربي الذي سوف يغادر المحطة بعد ساعة زمن متوجهاً إلى مدينة السويس، أثناء جلوسي توقفت سيارة مرسيدس بيضاء يقودها سائق وسمعت صوت سيدة تخاطبني من داخل السيارة:

ـ أنت باين عليك تعبان .. حينما علمت بحالي وأنني لا أستطيع السير طلبت من سائقها أن يساعدني ويضعني بالسيارة ويقلني إلى الجهة التي أخبرتها بها.

تجاذبت معي أطراف الحديث وعلمت منها أن ابنها الأكبر ملازم أول بسلاح المدفعية ومفقود بالحرب وتبحث عنه كل يوم، حينما علمت بحالي وأنني عائد بالأمس ولم أحصل على إجازة اقترحت عليّ أن تقوم باتصال تليفوني تبلغ فيه أسرتي بتمام وصولي سليماً بحمد الله، هكذا حصلت على اسم خالي ورقم تليفونه بمدينة الزقازيق، وصلنا إلى المحطة فودعتني بالدموع والبكاء وأنا أبادلها البكاء لكن أهم ما لفت نظري رقم السيارة التي تحمل أرقاماً مشابهة للعام الذي ولدت فيه أي رقم ١٩٤٤ .

توجهت في نفس هذا اليوم إلى السويس وظللت بها لمدة أسبوعين ثم تم نقلي للقاهرة على قوة وحدة عسكرية يتم تشكيلها حديثاً بعد الحرب، منحت

إجازة قهرية أي خارج القانون؛ حيث تلاعب بى القادة يتحججون بالعمل وحالة الطوارئ وشعرت بأن مخالفة القانون واجبة النفاذ في بعض الأحيان حينما يغيب الحق، كنت أسرع الخطي إلي الزقازيق مدينتي راغباً بلقاء الأهل ثم لقاء حبيبتي نورهان.

عودة الروح

بمنزل الأسرة التقيت بأبي وأمي وأشقائي وقد مضي عليّ ثلاثة أشهر منذ آخر لقاء، كنت فى حالة من الإرهاق ورغم هذا صممت على الخروج للقاء أصدقائي، أسرعت الخطي إلى منزل نورهان، صعدت درجات السلم بسرعة تفوق طاقتي الصحية التي مازالت تحتاج إلي عناية وإشراف ضغطت على جرس الباب، قامت أمها بفتح الباب، كادت أن تصرخ لولا إني وضعت يدى على فمي بما يعني لا صوت، كانت السيدة في منتهي السعادة ومتخوفة مما عليه حالي من الإرهاق والنحافة وبعض بقايا إصابات من رجال قسم الوايلي كمكافأة على عودتي من سيناء.

أشارت إليّ بالجلوس بصالة الشقة وطرقت باب حجرة نورهان سمعت صوتها من خلف الباب تخبر أمها أنها متعبة وتتركها لحالها كدت أقفز وأقتحم حجرتها من شدة شوقي لها، تمنعت حياء ولكن أمها أخبرتها بأن شخصاً يهمك أمره موجوداً بالصالة في انتظارك؛ بكت قائلة أنها تهتم فقط بمن فقد بالحرب، ضحكت أمها وهى تخبرها بأن المنتظر هو أسامة، قفزت الفتاة وخرجت مسرعة من حجرتها دون أن ترتدي شيئاً في قدميها، كادت أن تسقط أمها أرضاً، توقفت بصعوبة أمامي وهى تنظر إليّ غير مصدقة أن من يقف أمامها أسامة.

ألقت بنفسها على كتفي باكية مما لفت نظر والدها فخرج من غرفته وشاهدنا على هذا الوضع فاحتج:

- مس كويس دا نورهان، خضن خضن .. تحدثت أمها

- سيبها يا أندريا، هيا مس تعرف خد غير أسامة

- دا من سوء حظ، تعالي أسامة أسوف أسنان عمل إيه بعد خرب

أسرعت بفك يد نورهان عن رقبتي محاولا الفرار لكن نورهان لم تتركني طلبت من أبيها ألا يقربني بعد اليوم، أمسكت بمعصم يدي ودخلت حجرتها وجلست أمامي تتحسس بشرتي وآثار الجروح سواء التي اختفت أو التي مازالت واضحة، تحدثت:

- أسامة؛ مس ممكن ده يحصل، ده صعب، تصور، كنت ح أموت والبابا قال ليا إنك مس راجع، فضلت ابكي وأبكي، أنا منذ امتحان وأنا جالس في بيت، مس أزور حد حتي كنيسة مس روحتو، خلاص أسامة كنت ساعره أن حياه انتهي وراح، سكرا للرب إنك رجعت، تعرف سألت صاحبتي سهام جارتكم وقالت لي إن البابا بتاعك والماما كمان عرفوا إنك بقيت عند الرب.

جلست أمامها أنظر إليها وكنت أشعر بأنني إنسان حدث له اختناق وقام الأطباء بعمل تنفس اصطناعي له حتي يظل علي قيد الحياة، كانت نورهان هي كل حياتي ولم أفكر بزواج منها فهذا غير منطقي لكني كنت أفكر دائماً بلقائها والتمتع بحبها وحلو حديثها ولكنتها الأجنبية رغم أن لكنتها أحسن حالا من والديها.

بعد قليل حضرت أمها حاملة صينية صغيرة زاخرة بسندوتشات الفينو ورائحته الطيبة، من بينها اللانشون والبسطرمة والجبن الرومي والأصناف الثلاثة غير معروفة بمنزلنا ولا أعرف سبباً لهذا؛ إما لأنها ضارة بالصحة أو لأنها في حالة خصام مع الفول والطعمية والبصارة والعسل الأسود والجبن القريش.

أكلنا وضحكنا وعادت أمها سعيدة وقبلتها ونظرت إليّ تخبرني بأنها لم تسمع ضحكات نورهان منذ أكثر من شهرين بعد الحرب مباشرة، تنظر لأعلي مرددة: سكرا للرب، غادرت أمها الحجرة بينما نورهان مثل طفل فقد لعبته ثم عثر عليها فكانت راغبة باللعب والمرح الكثير، لم تعد تتقيد ببعض

القيود التي كانت تلتزم بها أمامى نظراً لأن تربيتها دينية، ولها من المبادئ الكثير والتي تمسكت بها العائلات الأرمينية.

لم أكن أتحدث لأن هذا يعرقلني عن تناول تلك السندوتشات الجميلة ولهذا تركتها تتحدث وتلهو من حولي وتظهر لي بعض قصاصات من مجلات وتخبرني بأشياء ومعلومات لا أعلم عنها أى شيء، أنظر إليها فقط بينما مازلت مشغولا بالطعام الجميل حلو المذاق، لم أهتم بالوقت فالزمن مع نورهان لا يجب أن أهتم به، قطعت نورهان السكون وقالت لي:

ـ الحمد لله إنك مس معاك ساعة، كده كويس مس عايزين نرتبط بمعاد تنبهت أنني تأخرت فرجتني إهمال كل شيء.

دق والدها باب الحجرة ودخل ونظر إليّ قائلاً ممكن تروخ وتيجي بكره تلعب مع بيبي، فاخم أسامة؟ لم تترك نورهان أباها يتحدث وانطلقت ترغي وتزبد بلغتها الأصلية، زمجر أندريا وتدخلت الأم بالحديث، وقفت راغبا فى مغادرة حجرتها، بكت نورهان مما دفع بأندريا إلى أن يهدهد على كتفها ثم انحني وقبلها ونظر إليّ قائلاً: خليك أسامة مس تسيب بيبي لوخده زعلان كتير؛ غادر الحجرة فلحقت به أمها وعادت بعد قليل تحمل مشروباً لنا وشاهدت نورهان ضاحكة باسمة.

بعد فترة سمعنا طرقاً على باب الشقة حيث كان والديها قد خلدا في نومهما، خرجت برفقة نورهان نشاهد من الطارق، كان الطارق هما صديقيّ منذ أيام الدراسة الثانوي والتي نبتت قصة حبي مع نورهان علي أيديهما احتفلا بعودتي وأخبراني بأن شقيقيّ بحثا عني في كل مكان ولهذا فكرنا أين يجداني ومن أجل هذا يطلبان مني العودة للمنزل لأن أمي مشغولة جدا بسبب تأخري.

نظرت إلى نورهان نظرة لها معني؛ هل تسمحين لي بالمغادرة ودون

حديث وافقت وحينما هممت بالمغادرة جذبت يدي نحوها وأعطتني قبلة صغيرة سريعة على خدي؛ تركتها سعيداً ملوحاً وهى بالأحرى حذت حذوى وعدت مع صديقيّ إلي منزل الأسرة.

وصلت إلى المنزل فوجدت أمي في انتظاري واللهفة هى حالها، قبلتني وأخذتني بين ذراعيها واقتربت من صدرها، هذا الصدر الحاني عليّ والذي أعطاني الحياة وساعد علي نمو جسدى وعقلي، تنظر إليّ دامعة متسائلة: ليه يا أسامة شغلتني عليك؟ مش كفاية الشهور اللي فاتت، ربنا كان يعلم بحالي وحال أبوك وأخوتك، اعتذرت لها وأخبرتها بأنني كنت بصحبة بعض الأصدقاء التى كانت نفسي تهوي إليهم والسير في الأماكن التي ترعرعت خلالها وأنا طفل صغير، نهضت بعد أن اطمأن قلبها على عودتي سالماً أثناء الليل كنت أتقلب أحياناً فأشاهد أمي تقبل نحوي كي تشعر بوجودي وتلمس على وجهي وتدعو الله أن يمنحني الصحة والسعادة ويحميني من شرور الحرب ونتائجها.

في الصباح جلست مع أسرتي نتناول طعام الإفطار، كنا نضحك ونتبادل الأحاديث، حاول بعض أشقائي الاستفسار عما حدث لي، لكن والدي طلب منهم عدم فتح هذا الموضوع معلقا نحن أبناء اليوم وربنا يكون معاك أنت وباقي زملائكم كي تستعيدوا الأرض التي احتلت، لن يرتاح الشعب المصري إلا بعد أن ينتقم لما حدث له ويسترد أرضه بالقوة وليس بغيرها.

حوالي العاشرة صباحاً ارتديت ملابس الخروج وتوجهت أتسكع قريباً من منزل نورهان، شاهدت طيفها خلف ستارة حريرية بيضاء لشباك حجرتها، مجرد أن لمحتني أسرعت بفتح الشباك مشيرة إليّ بأن أصعد أسرعت الخطي كي أكتسب بعض ثوان عن سيري المعتاد، شاهدتها تقف

على باب الشقة، كانت تشع ضوءا أبيض كزهرة الفل وقت الصباح ورائحتها تسبقها، هبطت بضع درجات كأنها تريد هى الأخرى كسب بعض ثوان نحن أولي بها، التقت اليدان وقبلها العينان وقبلهما خفقات قلوبنا الطاهرة النقية.

منذ عودتي ولقاء الأمس وهذا الصباح وعين تشاهد نورهان والأخرى أشاهد بها رابحة، كنت أحاول الفرار من ذكري رابحة ثائراً على ذاكرتي بأنه من الواجب عليّ عدم تذكرها في هذا المكان مثلما كنت أكره طيفها يهاجمني أثناء الصلاة، كانت نورهان هى محرابي المقدس بعد محراب المسجد، كانت روحاً طيبة خالصة قبل جمالها الفاتن البديع، كنت أشعر في كثير من الأحيان أثناء سيرنا بالقاهرة قبل الحرب بأن بعض الشباب لا ينظرون إليها مثلما ينظرون إليّ كأنهم راغبون بمعرفة ما يميزني كي أصادق تلك العروس الجميلة التي لم تكن تسير مثل فتيات جيلها؛ بل كانت مثل غصن مال علي غصن قال محلي الوصال للي انتظر الحبيب كنا نتكلم بلغة لا يعرفها الآخرون.

أخبرتني أنها علي أتم الاستعداد للخروج معي والتجول بشوارع المدينة أسعدني هذا؛ فالطيور لا تسعد بالحب داخل الأقفاص لكن حبها ينمو ويصبح طبيعياً خارج الجدران، أسرعت وارتدت ملابسها الرقيقة، عبارة عن بلوزة بيضاء نصف كم على جيب أسمر مواز الركبة وحذاء جميل ابتاعته من الخواجة أرمانيوس بالقاهرة وهو من أبناء وطنها، تحررنا من معسكر البيت، سرنا نتهادى غير متشابكى الأيدىّ فقلوبنا متشابكة وهذا يكفي ولا يشاهدها أحد، سرنا قريباً إلى حدود المدينة فالتقت بنا نسمات قادمة من المزارع المجاورة، صافحت عيوننا بلونها الأخضر كبستان بداخل الصحراء تهفو إليه النفوس.

جلسنا علي حافة جدول ماء قريباً من قرية "ثيبة" القريبة من المدينة

بعد قليل اقتربت منا فتاة صغيرة في عمر نورهان وألقت علينا بتحية طيبة وعرضت خدماتها علينا، قدمنا شكرنا إليها لكنها أبت إلى أن تضيفنا؛ فنحن أمام منزلها بالجانب الآخر من الجدول، أسرعت وعبرت المعدية المكونة من فلق نخيل وعادت تحمل أناء زجاجياً نظيفاً وبداخله لبن أبيض سائغ للشاربين، أسعدنا التحية ومحييها وقبلناها شاكرين باسمين، ظهرت بوادر السعادة الكامنة بقلوبنا فانعكست علي الفتاة الريفية التي أطلقت زغرودة واحدة لفتت أنظار الفلاحين القريبين من موقع الحدث ووقعت علي تلك الزغرودة بكلمات قليلة معبرة: "ألف مبروك ربنا يتمم بخير، بالرفاء والبنين ويسعد أيامكم جادر يا كريم".

توقف بنا الزمن للحدث والحديث، فالحديث نبهنا إلى أننا اقتربنا من حدث اجتماعي مهم وهو الزواج وقبلها الخطبة بل اعتقدنا أننا تعدينا تلك المرحلة فما قامت به الفتاة هو حدث الخطبة وما تلك الأكواب الزجاجية الممتلئة باللبن ما هى إلا شراب الأفراح وبدلا من اللون الأحمر استبدل باللون الأبيض تعويضاً عن فستان العروس الأبيض الجميل، بعد قليل أقبلت الفتاة وبيدها أطباق صغيرة وضعت بكل طبق شيئاً يشبه قطعة الطعمية وغير محدد المعالم ويسيل منه سائل أبيض شفاف، انحنت على نورهان وقبلتها قائلة:

-"ألف مبروك يا عروسة، ربنا يتمم بخير، شوية العسل النحل كليهم بشمعهم، بألف هنا وشفا " لم نكن أنا ونورهان قد شاهدنا شمع العسل من قبل، نظرت نورهان إليّ ونظرت إليها، ماذا يعني هذا لكلانا؟ أعتقد أن شمع العسل هو البديل عن شبكة العروس، لقد تم كل شيء ولم يتبق سوي المأذون ..

آه ، المأذون ، هل سنتزوج علي يد مأذون أو مأذون وقسيس، إنها

لحيرة، صمت ومنعت التفكير ولماذا أفكر ولأجعل التفكير لأهل التفكير والتدبر ولأفرغ نفسي لهذا اللقاء الطيب الجميل؛ فلا يجب عليّ أن أبدده بأفكار ونظرات إلي المستقبل لأنه بيد الله، عادت الفتاة وجلست قريباً منا تنظر إلينا بعينيها السوداوين الصافيتين وتهدل أهدابها رموش طويلة سارحة بليل شديد الظلام فانعكس ضوء عينيها من أسفل رموشها فأصبحُ يشع ضوءا شفافاً؛ تحرك ننى عينها وكأنها قطعة سوداء من أحجار الجنة تجري وتتحرك بداخل إناء من الكريستال الأبيض.

شعرت بأنها راغبة بالحديث، ابتسمت لها وأيضاً نورها، تساءلت الفتاة:

. اسم المحروسة إيه؟ بنعومة طبيعية تجيبها:

. نورهان

. عاشت الأسامي يا ست نورهان، ياه يعني أنتي نورين؟ لا تستطيع نورهان الإجابة، أضيف إليها:

. اللي تحسبيه، وأنتِ اسمك إيه؟

ـ خدماتك فاطنة، أنا مكتوب كتابي علي الواد عوف اللي شغال في مكنة الطحين، أسطى علي مزاجك ويخلي الطحين طالع من تحت إيده ولا البودرة الناعمة، ربنا يحميك يا عوف، أسألها:

ـ بتحبيه يا فاطنة؟ وضعت طرف الطرحة على ثغرها باسمة وأجابت ضاحكة:

. بلاش السؤالات دى يا سي الأستاذ

. يعني كنت عايز أعرف

ـ أجولك وبالفم المليان .. أيوه بأحبه، يا سلام لما كان الواد عوف يطلع يجيب ليا شوية جميز كنت أبجي مبسوطة، الحبِ حلوّ، وأنتم طبعاً بتحبوا بعض؟

ظل الحديث الطيب لبعض الوقت مع فاطمة و شاركتنا الطبيعة في هذا اليوم بحضور فاطمة والخضرة من حولنا وشرب اللبن الطازج وتناول العسل بالشمع، شكرنا فاطمة التي سارت خلفنا بضع خطوات وحدثت نورهان:

. والنبي مش تنسي تعزميني في الفرح وإلا ح تنكسفي مني؟ طيبت نورهان من خاطرها وتبادلت الفتاتان القبلات وغادرنا المكان وعدت أنا ونورهان لمنزلها.

طلبت مني الصعود لشقتهم والحصول علي بعض الراحة، لبيت الدعوة فوراً وصعدت وأحضرت جهاز التسجيل وأدارت أغنية دون اختيار وكانت المفاجأة:

فاكر لما كنت جنبي.. والنسيم يداعب غصون الشجر
والغصن مال ع الغصن قال محلى الوصال للى انتظر
والفرحة تمت للأحباب والغصن عانق حبيبه
وأنا اللي قلبي في حبك داب من غير ما يبلغ نصيبه

•••

جلست بعض الوقت أستعيد أنفاسي وأتحرر من هذا المخدر الساحر الذي ألم بى، نهضت وقمت بتحيتها واقتربت العيون؛ فهذه أكبر تحية وأرق من أى حضن أو قبلة، ظهرت بعض دموع الفرح بتلك العيون الساحرة هربت مسرعاً قبل أن يعود المخدر ثانية ووالدها ينتهزها فرصة وينزع لي ضرساً آخر، عدت لمنزلي وشعرت بأنني أرهقت كثيراً فقد تعدي الوقت في تلك الجولة الأربع ساعات بالإضافة إلي أكثر من ساعة استمتعنا خلالها لرائعة أم كلثوم فاكر لما كنت جانبي..

هكذا قضيت أربعة أيام أعتبرتها من أسعد الأيام التي مضت عليّ منذ نعومة أظفاري وبالأخص أنها جاءت في أعقاب مأساة الانسحاب من سيناء وما شاهدته وقاسيت منه، كنت أعتقد أن نورهان راغبة في إعطائي جرعة حب شديدة كي تعوضني عن الشهور الثلاثة الماضية وجاءني خاطر بأن تلك الأيام السعيدة لن تدوم، هكذا نحن المصريين عندما نسعد ونضحك نتوقف معلقين "ربنا يجعله خير" حيث لدينا اعتقاد بأن شيئاً مؤلماً وحزيناً دائماً ما يلي فترات السعادة والسرور.

عدت إلي وحدتي وبدأ التدريب القاسي الشديد، لقد تحمل جيلنا مسئولية إزالة عار الهزيمة واسترداد الأرض؛ كنا قادرين عليها ولم نشتكِ أو نتألم أو نطالب بميزات تضاف إلينا؛ بل عشنا ظروفا صعبة كنا خلالها نرتدي ملابس التدريب أثناءه وأثناء النزول الأجازات وحالة الجيش رقيقة من ناحية الملابس والاستعداد ومع هذا كنا نحمل معنويات مرتفعة فقدّ حملنا الشعب مسئولية عظيمة وكبيرة، كنت أشعر بأنني أدافع عن أسرتي وعن نورهان بل عن الفتاة الريفية الطيبة التي أسعدتنا يوم لقائنا في قريتهم واحتفلت بنا كأعظم احتفال يتمناه أي إنسان.

بدأ العام الدراسي وانشغلت نورهان في دراستها حيث كنا نلتقي قليلا أثناء وجودها بالمدينة الجامعية، نتجول ونقوم بزيارة بعض الأماكن الترفيهية بالأحياء الشعبية، أصبحت مشاعرنا واحدة بحب الناس والجلوس قريباً منهم كأننا نحاول أن يشاركونا أفراحنا ومشاعرنا، بعد مضي شهر على العام الدراسي توجهت للمدينة الجامعية كي ألتقي بنورهان كعادتنا فأجابني المختص بأنها تركت المدينة الجامعية، حاولت السؤال لكن الرجل كان

جافاً متحفظاً معي؛ تسائل عن علاقتي بها فأخبرته بأنها خطيبتي وكرر تساؤله أتكون خطيبتك ولا تعلم أي شيء عنها، دارت برأسي الظنون فتشجعت وأخبرته بأننا مشغولون بالتدريب على قتال العدو، تساءل أنت مجند بالجيش؟ أجبته بأنني ضابط به؛ انفك لسان الرجل وصرح بما يخفيه واقترب مني وأخبرني بأن الحكومة غير راغبة بوجود بعض الأجانب وتخشي أن يصبحوا عملاء للعدو ولهذا فهي راغبة بالتخلص من الكثير منهم ومن بينهم خطيبتك، احترس حتي لا يجرفك التيار.

غادرت مبني المدينة الجامعية وقد أصبح الطريق سرابا ولا أعلم رقم الأتوبيس الذي ينقلني إلى محطة السكة الحديد، ماذا حدث ولماذا هى وكيف سيصبحون عملاء؟ أسئلة كثيرة لم يستطع قلبي الضعيف بحب الناس وحب نورهان من أن يجيب عليها، أسرعت بالسفر إلي الزقازيق وقصدت منزل نورهان والهواجس والظنون تضرب بعقلي فينتفض قلبي ألما وحزنا، أقف علي باب شقتها، ضغطت على جرس الباب، فتح والدها الباب ولم يقم بتحيتي كعادته وكان عابس الوجه محتقن اللون.

تساءلت ماذا حدث يا دكتور؟ لم يجب وفتح بطن يديه للخارج كأنه يخبرني بأنه لا يعلم، كان واضحاً حالة من الارتباك علي أثاث الشقة فلم تعد في نظامها وترتيبها، بعد قليل ظهرت نورهان وشاهدتني فأقبلت عليّ وبدأت الدموع تظهر في عيونها ثم سرعان ما ظهرت كفيضان عارم من الحزن والأسى، أحاول تهدئتها دون جدوى، كنت أشعر أنها سوف تمزق يدي بأظافر يدها وهى تنتحب وتردد:

. أسامة .. تصور .. إحنا مسكوك في وطنيتنا، سوف البابا بيعمل إيه مع ناس فكراء طيبين، سوف ناس كتير في مصر وإسكندرية أرمن يحبوا سعب مصر، مس ممكن يكون ده حالنا أبدا، تعرف حكومة مصرية منحتنا خمسة

عسر يوما نترك بلاد، ح نروح فين؟ دى بلدى، أنا ولدت هنا، مس ممكن أسامة، أسامة مسُ عدنا ح نسوف بعض، هب مات أسامة هبيبي، كل أصدقاء بالمدينة والكاهرة انتهى، بابا بيفكر يروح أيرلندا والماما تفكر نروح زيورخ وإلا جنيف لكريب من عائلة، مس عارف لخبطه كتير، أسامة أنا أسعر أني خارج مصر ح أموت؛ وضعت يدى علي فمها وقد غلبني التأثر راغبا في البكاء ورغم هذا تحملت وأخبرتها أن كل مشكله لها حل.

غادرت منزلها وسرت بالطريق مثل شخص عائد بعد دفن عزيز عليه أسمع أصوات وأشاهد الناس تتحرك وكأنني أشاهدهم لأول مرة، وجوه عابسة عيون تائه، بشرة مترية، ذباب يصول ويجول، فئران تعربد بالطرقات، كلاب ضالة نابحة، وصلت منزلي والغيوم على وجهي؛ تساءلت أمي ما يضايقك فلم أتحدث بشيء ودخلت أبحث عن سرير ألقي بجسدي المنهك عليه، رحت في نومي لكني تنبهت بعد دقائق، نورهان حبيبتي سوف تغادر مصر إلى الأبد، يارب، ماذا أفعل؟ لقدُ صعب كل شيء؛ ما حيلتي وقدرتي أمام قوة السلطة والقانون.

اليوم التالي مررت علي منزل نورهان وأخبرتني بأن والدها تصرف بالعيادة والأثاث وباعه لطبيب مغمور عرض سعر لا يقارن لكن ما باليد حيلة كما أخبرتني بأنهم سوف يغادرون المدينة بعد باكر إلي القاهرة ويظلون بها حتي موعد السفر وخلال تلك الفترة سوف يقيمون لدي أسرة من الأرمن تزوجت إحدى بناتها من شخصية قريبة من نظام الحكم فأمن وجودهم ولن يصبحوا عملاء، أعطتني العنوان مشددة على اللقاء الأخير ثم اندفعت في بكائها وألقت بجسدها علي صدرى الذى انتفض وكاد ينتقل إليّ ما وصل عليه حالها.

بعد عودتي إلي المعسكر طلبني ضابط أمن الوحدة ليخبرني بأن

ضابط أمن الفرقة راغب بلقائي، لم أتوجس خيفة ولم يراودني أى أشك في شيء ما، بمكتب ضابط أمن الفرقة وهو برتبة رائد أخبرني بأن لديهم معلومات تفيد بوجود علاقة بيني وبين بعض الأرمن بالزقازيق والقاهرة وأعتقد أن هذا محض افتراء، نظرت إليه كي أؤكد له بأنها علاقة قوية وأنني أفضل هؤلاء وكنت عاقد العزم علي الزواج منهم، توتر الرائد وأخبرني قائلاً: ألا تعلم نتيجة ما تعترف به، أجبته أعلم وأنا على استعداد للسجن الحربي أو النفي أو الاعتقال، وهذا يكفيني حتي أستريح من التدريب الشاق وأنام مستريح البال.

صرفني من مكتبه متوعداً بإلحاق أكبر الضرر بى وبعائلتي، غادرت الوحدة دون إذن فقد علمت النهاية ولأفصل من الخدمة وألحق بنورهان أو أعمل أى عمل آخر؛ لقد أصبحت الحياة كريهة ولا يوجد الدافع للسرور والبهجة، لقد قطعوا عنى الحبل السري الذي يمدني بالسعادة، لقد أصبحت الأيام القادمة ليلا دون ضياء؛ أيام شديدة الحرارة والظلمة جافة من كوب ماء مثلج يروى العطش، تغور تلك الحياة ولا أريدها.

اليوم التالي صباحاً شعرت بألم في حلقى، توجهت للمستشفي العسكري فعرقلوا دخولي حتي أحضر اورنيك عيادة من الوحدة فأخبرتهم بأن الوحدة بالجبل وتحتاج سيارة خلال تلك الفترة تزداد حالتي سوءا، أحد الأطباء الكبار علم بما حدث فأمر بحجزى وعلاجي حتى أتماثل للشفاء، ظللت بالمستشفي يومين وفي اليوم الثالث قام بزيارتي الرائد .... مسئول الأمن بقيادة الفرقة وأخبرني بأن جميع التقارير الخاصة بك وبتلك الأسرة لا غبار عليها وإنك خال من أى مسئولية وتعود لعملك كأى ضابط آخر.

أشرق وجهي قليلاً؛ فالتهديد زال لكن ضياع حبي وقلبي مازال في مهب الريح ولم يتبق إلا عشرة أيام تطير بعدها عواطفي وأحلامي مع نورهان.

وداع لا أعلم كيف تم

انهمكت بالتدريب مع جنودي، بعد عدة أيام حصلت على إجازة قصيرة، أسرعت قاصدا العنوان التى سلمته لي نورهان، فيلا جميلة بحي جاردن سيتى، طرقت باب الفيلا الخارجي فخرج الحارس يستفسر عن حاجتي، أخبرته بأنني جئت لزيارة أهل الفيلا، أفسح لي الطريق وعلى الباب الداخلي شاهدت سيدة في العقد الخامس من عمرها تقف كي تتعرف علي القادم يميزها ملامح وجهها الأجنبي والملابس الخفيفة التي يفضلها الأجانب.

ابتسمت لي مرحبة:

. أخلا مسيو أسامة!! أدهشني هذا وأنا لم أقابلها من قبل

. أهلا مدام

ـ تفضل .. أفسحت لي الطريق وتبعتها فقابلني بهو فسيح مرتفع السقف ويغطي أرضيته خشب الماهوجنى ويغطي بعض أجزائه سجاد متسع المساحة ينم عن غلو الثمن كما شاهدت العديد من كراسي الفوتيه القيمة على هيئة مجموعات متجانسة يقترب كل نوع من بعضه ليكون حجرة مستقلة يتوسط هذا مائدة صغيرة جميلة مزينة برسوم منحوتة بالخشب وبأعلى ثريا تتلألأ بها الأنوار، دقائق عدة وشاهدت الدكتور أندريا قادماً باش الوجه فنهضت لمصافحته الذى صافحني بحرارة وأشار إليّ بالجلوس فجلست بعد أن جلس.

نظر إليّ وأصبحت عيناه لامعتين من التأثر متسائلاً:

. جيتو تسوف بيبي؟

- أيوه يا دكتور .. أنا حزين لفراقكم وفراق نورهان .. طيب الرجل من خطرى وهدهد علي كتفي قائلاً:

- اسمع أسامة، دوام خال من المخال، خكومة بمصر تعملتو لخبطة كتير سوف خكومة تقلع مصريين من بلدهم زى ما أنا بأقلع واخد ضرس مس كويس بس إخنا كويس، مس كده؟

- أيوه يا دكتور، أنتم كويسين لأنكم مصريين وحبيتو مصر زى المصريين بالضبط.

- أنت ساب كويس أسامة وتعمل في مصر واخد ناب يعمل عمل كويس في بق عيان، أنت مخهم "مهم"؛ توقف عن الحديث فقد أقبلت نورهان شبه ممرعة مرحبة بى وصافحتني بكلتا يديها ونظرت إلى والدها وأشارت له بإشارة من عينيها الجميلتين وأعقبتها بكلمات قصيرة

- مس هتأخر بابا، ساعتين وأرجع تاني

لم تنتظر إجابة والدها وأسرعت بى إلي خارج الفيلا ووقفت أمام الباب الخارجى وعادت تمسك يداى بكلتا يديها باسمة ضاحكة مرددة بصوت ضاحك سعيد

- أسامة، النهارده يوم من عمرى، فاكر عبدالهليم وزبيدة ثروت في فيلم يوم من عمري؟ آايزه كده

- دا معناه ضحك ولعب وجد وحب

- أيوه ضحك ولعب وهب وبلاس جد!

ضحكنا لهذا التعبير، أسرعت الخطي وأنا خلفها ومازالت ممسكة بيدى حتي خرجنا إلى الشارع الرئيسي الموازى للنهر وعبرنا الطريق بسرعة، وقفنا علي كورنيش النيل وأشارت إلى فلوكه بالنهر وطلبت أن نستقل إحداها سرنا حتي مرسي الفلايك فرحب بنا أحدهم، طلبت منه أن نقوم بنزهة

نيلية، تساءل الرجل:

- فلوكه بالمجداف أو بالشراع؟

تبادلنا النظرات حيث إن تلك المعلومة لم نكن نعلم عنها شيئاً؛ لهذا تطوع الرجل لأن يعلمنا بأن الفارق هو السرعة فإذا رغبتما في التنزه بهدوء وعلي مهل فالمجداف أفضل، أشارت نورهان برغبتها في هذا النوع صاح الرجل:

- جابر، واد يا جابر، تعالي مع العرايس فسحهم واوعي تزعلهم، فاهم ياد

أقبل شاب في مثل عمرنا وقام بتحيتنا تحية طيبة وساعدنا علي الركوب وقام بتوجيه القارب حتي منتصف النهر، شاهدنا كوبرى الجامعة يقترب منا ونقترب منه، أسعدني هذا كما أسعد نورهان، جلست ملاصقة بى ثم سألت جابر؛ أيمكنها الشرب من مياه النهر، ضحك الفتي باسماً معلقاً:

- أيوه يا مزمازيل، أحسن حاجة تعمليها، تعرفي اللي يشرب من مية النيل مش من الحنفية وسافر بره لازم يرجع مصر تاني، دي حكمة مؤكدة وأعرف ناس كتير سافرت ورجعت وعرفت منهم أنهم نفذوا الوصية دية!!

لم تنتظر نورهان استكمال الشرح والتعليق حيث انحنت وغرفت ببطن يدها وحصلت على جرعات متتالية من المياه وتنظر إليّ في كل مرة وقبل أن تشرب تعلق:

- دى عسان مصر الهبيبة، دى عسان واهد هبيب، ودى عسان بلد طيب كتير اسمه زكازيك، وقفت عند الأخيرة ثم قالت ودى عسان واهد ضابط هلو كتير وياهبه، علقت متسائلاً:

- طيب يا نورهان؛ مش قلتي في الأول عسان واحد حبيب، يعني فيه واحد غيري؟

- اسمع أسامة، أنا مس عندى غير واهد هبيب؛ أنا زي ساديه "شادية" مس أقدر أهب اتنين عسان مس عندى كلبين، سوف إيه السبب فى الحب

الكلب وإلا العين؟

أنهت شرابها وجلست بجوارى بباطن القارب وطلبت مني أن أجذبها ناحيتي؛ فقد شعرت برغبة قوية بأن أحميها من المستقبل القادم والتي تخشاه هى وعائلتها، ظل القارب يجوب بنا صفحة النيل الفضية وبعض رزاز قوارب ولنشات بحرية تقترب منا فتعطرنا بتلك الرزات الطيبة.

قبل الغروب عاد بنا جابر إلي المرسي سعيداً بتصرفاتنا الطفولية أو الصبيانية؛ فقد كان يخشي سوء التصرف، وهذا يضايقهم في العمل وهم أبناء الصعيد الذين يتمسكون بالمبادئ والقيم، دفعنا ما طلبه منا وزيادة إكرامية لما قام به معنا وأمتعنا وأسعدنا، تبادلنا النظرات وسألتها:

. إيه؛ تحبي تروحي فين؟

. أروحه إيه، بص انا عايزه هاجه

. إيه؟ حاجة تكلي؟

. أكل إيه؟ أنا آيزه، أنا آيزه

. أيوه

. عايزه أبوسك بس مش عارفه ليه ومش عارفه فين؟

ضحكت قائلاً " يا لطيف .. يا لطيف" مسكت بيدها وعرضت عليها:

. إيه رأيك نروح خان الخليلي؟

ـ هلو كتير، أسرعنا إليه بتاكسي فوصلنا بعد أذان المغرب، تركتها على قهوة الفيشاوى الشهيرة وتوجهت للمسجد كي أؤدى فرض الله، عدت وشاهدتها تجلس ببراءة الأطفال تنظر للباعة والشحاذين بكل اهتمام وبسمة السعادة تكاد تطل من عينيها، حينما شاهدتني ابتسمت وأشارت إليّ بالجلوس بجوارها، حضر الجرسون فطلبت شاياً بالنعناع كما طلبت نورهان شاياً أخضر، بعد قليل حضر الجرسون يتهادى يحمل صينية صغيرة يعلوها

إبريقان أو "برادان" باللون الأبيض وأكواب من الزجاج من تحف خان الخليلي وعبوة السكر وكوب به أوراق النعناع الأخضر، تركنا وقام كل واحد منا بوضع كمية السكر المناسبة؛ تناولنا الشاى بهدوء وتمهل؛ مازالت عيناها تتابعان المارة والسائحين الجالسين من حولنا وقامت بشراء بعضاً مما يقوم الباعة الجائلون ببيعه.

شعرت أن الوقت هرب منا فقد كنت غير راغب في إطالة زمن تلك الفترة الجميلة لشعورى بأنني سوف أفتقدها بعد أيام قلائل، نبهتها إلي أن الوقت مضيُ مسرعاً، لم تجب سوى بابتسامة، كررت ندائي لها بأن الوقت قد أزف، مالت عليّ قائلة لقد قلت لك إن هذا اليوم ضهك ولعب وهب أجبتها ألا تضيفين الجد، اتركه يا أسامة فسوف يقبل بعد عدة أيام وسوف يتهسر كل منا أن ضيعنا بعض دكائك.

ظللت جالساً أنظر إليها محاولا إشباع عيوني الجائعة لفتنتها ورقتها كنت أشعر بأن عيوني مثل شخص شرب ماء مالح، يشعر كل فترة وجيزة بحاجته للشراب، لقد كانت عيوني هكذا راغبة أن تعيد النظر إلى نورهان حينما كان يهاجمني طيف فراقها تكاد عيناى تدمعان ولكني كنت أتماسك.

نهضت وأشارت إليّ قائلة، الجد، نقوم بقي .. تحركنا وأوصلنا التاكسي أمام الفيلا؛ أخبرتني أن مدام عصام صاحبة الفيلا أمرت السيدة "ديفالي" بأن تراقب القادمين للفيلا من إحدى النوافذ الجانبية وشاهدتك وأنت تحدث البواب فأسرعت تخبر سيدتها التي أقبلت عليّ باشة الوجه تخبرني بوصف تفصيلي عن شكلك وحجمك وهيئتك فأخبرتها بأن هذا هو أسامة الذى أنتظر قدومه ومن أجل هذا فقد استقبلتك السيدة "ديفالي" مرحبة فقد علمت عنك كل شيء.

وصلنا إلي باب الفيلا ومرقنا من خلاله وأغلقه الحارس خلفنا، أمسكت

نورهان بيدى وسارت بجانب الفيلا وبأحد الأجناب أعطتني قبلة صغيرة وعلقت: هذا هو الهب .. إذا لعبنا وضحكنا ثم جد برجوعنا وأخيراً الهب أضحكني تعبيرها وتصرفها، دخلنا إلي بهو الفيلا حيث كان أندريا وزوجته في انتظارنا، كان عابس الوجه ومجرد أن شاهد نورهان تحسنت حالته وانقشعت عن وجهه غيوم الغضب فأقبل باشا، واحتضنها وقبلها عدة قبلات بعدها توجهت لأمها تقبلها وبدا للجميع بأن ابنتهم أمضت وقتاً جميلاً سعيداً.

علق أندريا بقوله، أسامة لو تأخرتوا كمان سبع دقائق كنت بلغت بوليس أن فيه واخد خطف ابنتي وراخ بيها الصعيد، ضحكنا لهذا وطلبت الإذن بالمغادرة فنهضوا جميعا في وداعي وأخبرني أندريا بأنهم سوف يغادرون الفيلا متجهين إلي المطار يوم الثلاثاء القادم مساء وسوف تجتمع بالكنيسة الأرمينية بالقاهرة جميع العائلات سواء من سيسافر أو من سيظل وإذا أمكنك الحضور فسوف أكون مسروراً، علقت نورهان:

. بابا؛ أسامة سوف يهضر بكل الطرق، أنتظرك أسامة.

كررت نورهان ما حدث بحديقة الفيلا لكن بقبلة طويلة صفق لها أندريا وأمها بينما كسى الخجل وجهي، أكدت لهم بأنني سوف أحضر؛ غادرت الفيلاُ مسرعاً للخارج، كادت الدموع أن تنهمر من عيوني؛ فسوف أحرم من كل هذا الحب.

يوم من عمري "الجدّ"

كنت أطلب من الله بألا يقبل يوم الثلاثاء وليظل يوم الإثنين ممتداً لمدة عام، مساء يوم الإثنين استطعت إقناع القائد بأني في حاجة للنزول باكر والعودة صباح الأربعاء، طلب مني البحث عن بديل كي يقوم بمهام الخدمة التي أنا مكلف بها، استطعت إقناع أحد الزملاء بهذا بعد أن رفض الجميع رجائي، لقد قبل هذا الزميل القيام بأعباء الخدمة حينما لاحظ التأثر في عينيَّ وتساءل هل الأمر جد خطير؟ لم أجبه بل أجابته بعض قطرات من عينيَّ، نهض مربتا علي كتفي قائلاً: ولا يهمك يا أسامة، انزل وأنا سداد.

صباح الثلاثاء قمت بزيارة سريعة إلي أسرتي بالزقازيق حيث كان ينتابني شعور بأنني لن أستطيع زيارة أسرتي بعد فراق نورهان لفترة طويلة غادرت الزقازيق ظهر الثلاثاء متوجها إلى الكنيسة؛ وصلت إلي المكان وهناك شاهدت جمعا غفيرا بداخله، زاغت عيناى بحثاً عن نورهان، لم أستطع مشاهدتها لكن جبرائيل أقبل عليّ مصافحا وأمسك بيدي حتي وصلنا إلي حجرة فسيحة وفتح بابها بهدوء فشاهدت نورهان تجلس مع مجموعة من الفتيات من بنات الأرمن، بهدوء غادر جبرائيل الحجرة وأغلق بابها بعد أن أشار إليّ بما يعني تقدم وتشجع، لم تكن نورهان مواجهة لباب الحجرة ولهذا لم تشاهدني ولكن بعض الفتيات نظرن إليّ، إحداهن دفعت نورهان في ركبتها فالتفت ناحيتي وحين شاهدتني نهضت مسرعة وألقت بنفسها علي صدري باكية.

كانت دموعها مؤثرة لدرجة كبيرة كدت خلالها أن أفقد تماسكى وشجاعتي التي ظلت طوال الطريق إلي الكنيسة أشحذ همتها

وكلما تذكرت هذا الموقف خلال الأعوام الماضية حتي اليوم أشعر بما حدث لي ولها مساء هذا اليوم الحزين، هدهدت علي ظهرها وكتفها، شعرت بشهيقها ومازالت باكية، التف البعض من صديقاتها حولنا يطلبن منها بلغتهم ألا تبكي وكل شيء قابل للعلاج، أعتقد بأن أذنها أصابها الصمم فقد ظلت علي حالها وأنا شبه مقيد الحركة مستكين لهذا الوضع المؤلم علي نفسي، بهدوء بعدت ما بيني وبينها وأمسكت بيدها وأخذت بها إلي أريكة كبيرة وجلسنا متقابلين نتبادل النظرات التائهة، أقبلت إحدى الصديقات حاملة مشروباً لنا، لم تنظر إلي الصديقة بينما قدمت شكرى لها، ناولتها كوب العصير فلم تشاهده، قربت حافته من شفتيها فلم تشعر به، ظللت احاول أن تشرب فلا تشاهده ولا تشعر بما أمسكه بيدى.

وضعت الكوبين بجوارى ووضعت يدىَّ علي ركبتيها أنبهها .. نورهان تجيبني:

- أيوه، سمعاك، كول يا أسامة، افضل اتكلم، آيزه أسمع صوتك وكلامك يفضل في ودانى لهد ما أروه في أي هته، المهم اتكلم.

- نورهان؛ ح نتلاقي تاني، صدقيني والآية القرآنية بتقول "إن بعد العسر يسرا" .. تحاول فهم تلك الكلمات، شرحت لها بهدوء أن الله سوف يجمع الشمل ونلتقي، عيناها تتساءلان:

. إزاي وفين وامتي؟ لا أجيب بكلمة بل أجيب بما يعني اتركيها لله.

أقبل بعض الأقارب ينظرون إليّ وإليها ولسان حالهم يتساءل: كيف ترغبين بهذا الفتي وقد رفضت بلاده وجودنا وأكرهتنا على المغادرة، كانت العيون بائسة النظرة ضيقة الفكرة عميقة الكره لكن الشباب من الجنسين كانوا أكثر شعوراً وإحساساً بمشاعرنا؛ حيث مازالت نورهان تبكي صمتاً وعيناى بهما دموع حارقة لامعة راغبة بترك مقلتي لتخرج وتعبر لمن حولي

عن حالي، جاهدت النفس والبدن وقاومت كل تخاذل.

أقبل والداها محاولين مساعدتها على الوقوف؛ لقد حضرت السيارة التي سوف تقل الأسرة إلي المطار، شعرت بأن الخوار أصابها ولم تستطع النهوض، أشرت إليهم بتركها لى وسوف أساعدها علي الوقوف تشابكت أيدينا وسرنا إلي خارج الحجرة ومنها إلى فناء الكنيسة الداخلي ومنها إلى الباب، كانت تسير تنظر ناحيتي، وهذا من حسن الحظ فلو شاهدت وشعرت أنها تغادر المكان لتصلبت ساقاها.

نقف الآن أمام باب السيارة يحيط بنا رهط من الأقارب والأصدقاء والدموع هي حال الجميع، من حولنا أسمع عبارات طيبة متبادلة بين أندريا وبعض الأصدقاء كما تبادلت والدتها العناق والبكاء مع الصديقات، حاولت دفعها لداخل السيارة لكنها تمنعت، حاول والداها مساعدتها فبكت وارتفع صوت نحيبها وزادت الدموع، أصبح الموقف يائساً حزيناً حساساً، كنت راغباً بالوصول لنهاية لهذا الموقف وسوف يعوضني الله ويريح أعصابي أخيرا جلست بداخل السيارة بالمقعد الخلفي وظهر نصفها العلوي من الشباك وأمسكت بيدى والسائق ينبهها وينبهني إلى خطورة ذلك، حاول جبرائيل وبعض الأصدقاء جذب يدى وتخليصها من يديها فكانت هناك صعوبة أشعر بأن يدي بدأت تنفك عن يدها ولكني كنت أشعر في نفس الوقت بشيء يمزق ذراعي اليمنى.

سارت السيارة ببطء ومازلت ممسكة على جزء من ذراعي حتي اقترب من الكف، أحاول تخليصها فقد شاهدت آثار جروح بساعدى وبدأت الدماء تنزف، مازالت تصرخ تطالبني بألا أتركها، تستجير بى بألا أتركها، هطلت دموعي لرثائها ومناشدتها لي بأن أفعل شيئاً، أردد بداخلي: لقد أصبحت خرقة بالية لا أستطيع الدفاع عن حبي وحبيبتي، تخلصت يدي من يدها

ومازالت تصرخ باكية معبرة ببعض عبارات لا أفهمها، تلوح لي بيدها وأنا ألوح لها، شاهدت السيارة وقد ابتعدت عني عدة أمتار، شعرت بشيء قاس يقبض علي قلبي وضلوعي وباختناق في التنفس، أسرعت أعدو خلف السيارة بين نداء البعض بألا أفعل هذا حتي لا أثير شجن الفتاة، لكن الصمت كان رفيقي فقد أسرعت الخطي لاهثاً وهى تشير إليّ بأن أقترب محاولة القفز من شباك السيارة مما أثر علي اتزانها وأصبحت السيارة تتحرك ذات اليمين وذات اليسار؛ انعطفت السيارة بمنحني ولم أعد أشاهدها، وصلت إلى ناصية المنحني فشاهدتها علي بعد مئات الأمتار ولم أعد أميز نورهان بل أسمع أنين بكائها.

خمد بدني وجلست على الرصيف القريب مني ودموعي تناجي كل محب وأشجاني تواعد قلب الحبيب؛ أفكر فيها قبل أن أفكر في نفسي وأتساءل ما الحل؟ لم أستطع العثور عليه، سمعت صوت بكائي حاولت الخروج من هذا البكاء، لكني لم أستطع، شعرت بمن يضع يده على كتفي نظرت فشاهدت رجلا كبيراً في العمر تميزه لحية بيضاء ساعدني علي النهوض، سار معي مواسيا حتي وصلنا إلى باب مبني ودخلت برفقته وشاهدت العديد من الناس ونساء بأعداد كثيرة والكل باك؛ أدهشني هذا وتساءلت وأنا أنظر إليه، هؤلاء يبكون الفراق؟ أشار إليّ بما يعني هذا صحيح؛ مازالت دهشتي وأتساءل: من أين أتي كل هؤلاء وهم مخالفون في المظهر والشكل عمن تركتهم بالكنيسة، اعتقدت لحظتها أن مصر كلها تبكي فراق نورهان، وهذا أقل شيء يعبرون به عن الخسارة من فقد تلك الرقيقة الجميلة طيبة الخلق، بعد قليل أقبل عليّ البعض يشد من أزرى مصافحا مهدهدا علي يدي اليمني "البقية في حياتك" !! أردد .. يا نهار اسود، لقد ماتت نورهان وأكيد سقطت من السيارة؛ ازداد بكائي حتي صاحبه

صوت بائس، بعد قليل حضر ثلاثة من الشباب ورافقوني لأحد الأجناب وأحدهم نظر إليّ نظرة نارية متسائلاً: أنت ابن مين فيهم؟ لم أجبه فأمسك بتلابيب قميصي وكاد يخنقني لولا تدخل الاثنين الآخرين اللذين معه وقاما بزجره ومنعه من هذا التصرف، بهدوء تساءل الآخر من هي أمك؟ هل هى فريدة أم نظيرة؟

تركت المكان مغادراً لكن أحدهم استوقفني طالباً مني أن أجيب عن سؤاله؛ أخبرته بأن هذا لا يليق ونحن في هذا الموقف العصيب وما دخل أمي بسفر نورهان ووفاتها، نظر إليّ الثلاثة بدهشة وظهر الضيق على الوجوه، طلبوا مني الإفصاح عن اسم أمي وهم يعلمون أن أباهم كان مزواجاً، أشير إليه بأن هذا لا دخل لي به، أحدهم أقسم برحمة أمه إنني لن أحصل علي مليم من ميراث والده.

شعرت بأن الأمور تداخلت، تساءلت من تكونون، أجابني أحدهم بأننا نحن الثلاثة إخوتك لكن من أمهات ثلاث غير أمك، أدهشني هذا نافيا أنهم أخوتي، حاول أحدهم التعدى عليّ بالضرب لأنني أريد الحصول علي الميراث بمفردى، أقبل الرجل الطاعن في العمر الذي شاهدني بخارج المبني وسار معي لهذا المكان الذي تبين لي أنه مستشفي، طلب مني بهدوء أن أخبرهم بشخصيتي ولن يتعرض لي أحد منهم.

تحدث معه أحدهم بقوله يا عمي؛ هذا الشاب راغب في الميراث بمفرده، أقبلت سيدة ترتدي ملابس الحداد حينما سمعت هذا، أمسكت بطرف شعرها بأنه لن يحدث وسوف تقتلني إذا حدث هذا، تركت المكان هرباً للشارع فلحق بى اثنان، أحدهما كتفني والآخر عبث بجيوبي حتي عثر علي حافظة نقودى، شاهد الكرنيه العسكري وقرأ الاسم وشاهد الصورة طلب من شقيقه تركي وناولني الحافظة راغباً بأن أوضح له كل ما حدث

بقليل من الكلمات شرحت لهم حالي بعد فقد حبيبتي التي سافرت للخارج وأن من تقولون إنه عمكم هو الذي اصطحبني للداخل.

ظهرت البسمة علي وجهيهما وقدما لي الاعتذار للخطأ الذي حدث حيث توفي والدهما منذ ساعتين وكان دائم الزواج ولهذا اعتقدوا بأنني شقيق لهم من إحدى زوجاته، قبلونى مقدمين كل أسفهم راجين من الله أن يطيب من خاطرى لفقدى الحبيبة وتركاني بالشارع بعد أن كدت أن أضرب أو يبطش بى.

كأن ما حدث قد أرسله الله لي كي يبعدني بعض الوقت عن حزني علي نورهان؛ حيث سرت بالشارع متجهاً لمحطة الأتوبيس وأنا أتذكر هذا الموقف والخطأ الذى حدث من أن شقيق المتوفى حينما شاهدني أجلس علي رصيف المستشفي أبكي بكاء حزيناً أعتقد بأنني ابن شقيقه من إحدي السيدات الذي تزوج بها وأسرته لا تعلم حيث إن هذا حاله قبل أن يلقي الله.

عدت إلي مكان استراحة الضباط بالعباسية، قضيت ليلة كلها كوابيس استدعت الضابط المقيم بالحجرة المجاورة لي أن يحضر أكثر من مرة كي يوقظني، سمعته في إحدى المرات يحدث أحداً خارج الغرفة " بأن الضابط أسامة أعصابه منهكة ويظهر أن قائده مبهدله وموريه النجوم في عز الضهر" ابتسمت لهذا التحليل الذي يبديه المصريون لكل حدث ولكل تصرف، فمنذ ساعات يعتقد البعض بأني ابن المتوفي، وهذا الزميل يعتقد بأن قائدى يضايقني بأوامره لكن قلبي كان به شيء آخر لا يعلم عنه أحد إلا الله.

قبل أن يغلق الله بابا يفتح شباكا

صباح الأربعاء عدت إلى الوحدة وكل من شاهدني شعر بأن ورائي كارثة قد حدثت لي أو لأحد أفراد عائلتي، البعض صمت ولم يفاتحني فيما تعرضت له والأقرب مني صداقة حاول أن يتحسس موطئ الحزن، أما زميلي الذى تولي عني القيام بالنوبتجية فقد هاله ما رآه وطيب من خاطرى طالباً مني عدم الحزن وربنا يرحم الجميع.

ظل حالي هو الوجوم والصمت والسكون، لم أكن قادراً علي مجاراة الآخرين في الحديث والضحك فقد كانت صدمتي قوية، نورهان لم تغب عني سوى ثلاثة أشهر خلال حرب عام ١٩٦٧ ولكن الآن سوف تغيب عني إلى الأبد رغم أنها وعدتني بإرسال عنوان منزلها بعد أن يستقر بها المقام، أخبرتني أنه خلال شهر على الأكثر سوف ترسل لي بعنوانها بخطاب علي عنوان منزلي بالزقازيق.

كان هذا هو الأمل الباقى والذي أتشبث به، سوف أبادلها حبي وعواطفي عن طريق الكتابة بعد أن كنت سعيداً وأبادلها حباً مباشراً خالصاً تتعانق فيه الأنفاس والأرواح، لكن لكل جواد كبوة راجياً من الله أن يزيل تلك الكبوة عني بأقصى سرعة فيكفي كبوة الهزيمة والتدريبات الشاقة التي نقوم بها وعبوس أبناء الشعب في وجوهنا؛ أفلا يكفينا ما حدث؟ لكنهم أيضا راغبون بإنزال أقصي العقاب النفسي علينا.

هذه هي ليلتى الأولي التي أقضيها بالوحدة كضابط نوبتجي؛ جلست في الحجرة دون ضياء فقد آثرت الظلام حتي أستطيع السفر إلي قلب الحبيبة فالقلوب تتعرف علي بعضها، تتبادل الحب الطـــاهر من علي بعد مئل

الأحلام التي يشاهدها النائم في منامه؛ شعرت بالدموع وحمدت الله إنني بمفردي؛ حيث كان يعتريني الخجل من الدموع والبكاء، فالذى لم يجرب الحب العفيف الذى سطرت أول خطوطه بقلب وعقل الشباب لا يستطيع أن يقدر تلك المواقف الإنسانية ويعتبرها نوعاً من الضعف والهذيان البشري.

لم أشعر إلا ببعض كلمات تخرج من فمي بصوت مسموع أبث خلالها حبي ومشاعرى وما حدث إلى نورهان، بعد أن انتهيت نهضت وأضأت نور الغرفة، أحضرت ورقة وقلما وكتبت ما جال بخاطرى منذ دقائق حيث قلت:

{ حبيبتي .. كم هي صعبة تلك الليالي .. التي أحاول فيها أن أصل إليك .. أصل فيها إلي شرايينك وقلبك .. كم هي شاقة تلك الليالي .. كم هي صعبة تلك اللحظات التي أبحث فيها عن صدرك ليضم رأسي }

{ نورهان .. الشوق إليك يقتلني .. دائماً أنتِ في أفكارى .. وفي ليلي ونهارى .. صورتك محفورة بين جفوني وهى نور عيوني .. هل عيناك تنادى عيوني .. هل يداك تحتضن يدىَّ .. لقد أطربت همسانك أذني }

{ نورهان .. أيعقل أن تفرقنا المسافات وتجمعنا الآهات .. يا من ملكت قلبي ومهجتي .. يا من عشقتك وملكت دنيتي .. حبيبتي .. أحلم }

{ نورهان .. أنا أعلم أنه إذا أحببت شيئاً بشدة فأطلق سراحه .. إن عاد إليك فإعلم أنه لك .. وإن لم يعد فإعلم أنه ليس لك من البداية }

{ قدرى أن تكوني أجمل أقداري } .. { حبيبتي .. أنا أعتبر حبنا ماض مضى وفات .. حب زرعته في قلبي ومات .. سوف أقمّي عليكِ عينيّ .. سوف أطوى حبي وشوقي إليكِ .. لن أندم علي أيام حبي إليكِ }

بعد أن انتهيت من كتابة تلك الكلمات ظللت جالسا لفترة لا أعلمها ولكني شعرت بأن نبضي سوف يتوقف .. فردت جسدى على السرير استعداداً للقاء الخالق فلم يعد في مقدورى أى شيء أفعله.

خلال هذا الشهر الذي كنت أنتظر فيه خطاب نورهان توجهت مع صديقي عادل إلي مستشفي القوات المسلحة كي يسلم شقيقته سيادة النقيب ... بعض أغراض لها، هناك جلست منفرداً مع بعض المرضي بعنبر قسم جراحة المخ والأعصاب، كان هذا التوقيت هو يوم العاشر من شهر أكتوبر من عام ١٩٦٧ .. مازلت متذكراً هذا التاريخ حيث كان قد مضي أربعة أيام علي تاريخ ميلادى في السادس من أكتوبر من عام ١٩٤٤ لقد أتممت ثلاثة وعشرين عاما وقبل هذا بيومين سافرت الحبيبة نورهان إلى خارج مصر بلا عودة.

لفت نظرى بالمستشفي شاب يرتدى ملابس النوم ينام علي سرير وتوجد عصابة علي عينه اليسرى ولا يتحدث ولا يلتفت لأحد من العاملين بالمستشفي، مجرد أن شاهدته شعرت بأن هذا الشاب هو ابن السيدة التي أقلتني منذ ثلاثة أشهر من ميدان العباسة إلى محطة كوبرى الليمون في أعقاب عودتي من سيناء.

حاولت الحديث معه وسألت مسئولة القسم عنه وحصلت علي بياناته وقمت بعدد من المحاولات التي أثبتت في نهاية الأمر أن هذا الشاب هو ابن للسيدة وصدق حدثي؛ كانت تنقصني معلومة مهمة، كيفية الحصول علي اسم وعنوان تلك السيدة؟ كل ما أملكه من معلومات هو رقم ونوع السيارة، خطر ببالي أن أستعين بالنقيب عاطف شفيق شقيق الرائد وليم شفيق الذي استشهد في سيناء أثناء مقاومة العدو، هذا النقيب هو رئيس مباحث قسم الوايلي والذى استضافني بمكتبه وأقرضني خمسة جنيهات كاملة.

من أجل هذا توجهت إلي لقائه، كانت السعادة تغمرنا نحن الاثنين وقمت بزيارة أسرته بمنزله في اليوم التالي والتقيت بوالدته أم الشهيد وليم

وكان لقاء دافئاً يغلفه الحزن لفقد ابنها والفرحة والسعادة لما قام به نحو وطنه، كما تعرفت على زوجة الشهيد وليم السيدة روز الجميلة وابنه الرضيع عزيز الذى جاء إلي الحياة بعد أن لاقي والده ربه منذ عدة أشهر.

تسلحت بالبيانات التي حصلت عليها من عاطف شفيق، اتجهت إلي فيلا السيدة وداد والدة الشاب طريح مستشفي المعادى، في بداية الأمر لم تتعرف عليّ وبأنها نقلتني بسيارتها بعد خروجي من إدارة سلاح المشاه إلى محطة السكك الحديدية، بالإضافة إلى أن ابنتها الكبرى تعاملت معي بخشونة اعتقاداً منها بأنني كاذب أو نصاب أو شيء من هذا القبيل فقد سبق وأن أمدتهم إدارة سلاح المدفعية التي يعمل بها شقيقها ببيانات تؤكد وفاته بينما أنا الضابط الصغير أؤكد لهم أنه مازال علي قيد الحياة، أثناء إستعداد الأم للتوجه للمستشفي للتأكد من أن هذا الشاب ابنها من عدمه ظللت جالساً بحجرة الصالون مع ابنتها الكبرى وتدعي علا، نظرت إليّ نظرة طيبة بعد أن فارقها العبوس والتجمد وحديثها الجاف معي؛ قالت لو ما أتيت تخبرنا به حقيقة لا أعرف كيف أكافئك علي هذا، لكن الأيام سوف تثبت لك أن علا تقدر كل صنيع طيب ولن نستبق الأحداث.

هكذا دارت عجلة الأحداث مسرعة وثبت صدق حدثي وتوقعي وكانت فرحة أسرة الشاب الفاقد للذاكرة مؤقتا عارمة وعاد إلي أسرته ولم تكتف الأسرة بذلك بل ضمتني السيدة وداد إلي أبنائها وأصبحت تردد:

. منذ أسبوع لم يكن لدى سوى علا ودينا والآن لدى أسامة ومدحت، أشكر الله علي نعمته.

كان لحنان تلك السيدة والتى ألقبها بماما وداد من أكبر المشاعر الإنسانية التي شعرت بها خلال تلك الفترة إن لم أقل أكثر المشاعر أمومة بعد حنان أمي، لقد أغدقت عليّ كل حب وحنان مع ابنها المصاب وابنتيها

لهذا العطاء، أصبحت أتلقي كل حب من تلك الأسرة النبيلة، لقد عوضني الله خلال أسبوعين من سفر الحبيبة نورهان بحنان تلك الأسرة، تذكرت الحكمة اليونانية القديمة والتي تقول بأن الله قبل أن يغلق باباً يفتح شباكاً حتي تظل رحمته ورعايته باسطة ذراعيها علي الجميع.

لا أعرف ولا أعلم كيف كان لقائي بتلك الأسرة؛ لقد كان بلسما لجراح كثيرة بدت تهاجمني منذ ما حدث لي بسيناء ثم ما حدث بعد هذا من أيام منذ سفر نورهان والأزمة النفسية التي كادت أن تطيح باتزاني ومشاعري، لم يكتف القدر بهذا بل أضاف أسرة جديدة بحنان آخر وهى أسرة الشهيد وليم شفيق، فقد أغدقت ماما مارى بحبها عليّ أيضا كما زاد شقيقه الأصغر النقيب عاطف من حبه وحنانه إليّ بل زاد ووصل هذا الحب إلي روز زوجة الشهيد وليم، كنت أقبل طفله الرضيع عزيز وأردد بداخلي: سبحان الله، فرغم أن الطفل لم يتعد عدة شهور لكني كنت أشاهد فيه صورة البطل هذا الرجل الفذ الشجاع الذى دخل إلي قفص الموت بكل رحابة صدر ولم يرغب في ترك المعركة رغم أن الفرصة كانت متاحة أمامه.

لم تمض شهور قلائل إلا وأصبحت أحد أفراد أسرة ماما وداد، فقد أصبحت ابنها المدلل بالإضافة إلي تدليل واهتمام كلّ من علا وشقيقتها الصغرى دينا ومدحت الهادئ الصامت الذى كان ينظر إليّ نظرات طيبة باسمة بما يعني بأنك أيها الضابط الصغير ساعدت في عودة الهدوء والسكينة إلي الأسرة حيثُ عدت وأصبحت أعيش بين أفراد أسرتي.

أصبحت علا أكثر تقرباً لي؛ فقد بدأ التعارف بيننا بسوء فهم وغضب ومن أجل هذا رغبت بأن تعوض سوء الحديث معي في المرة الأولى إلي نوع من الشكر والامتنان لما تم، كانت تنظر إلى أمها وهى جالسة تحمد الله وترفع يديها تضرعاً لله بالشكر والثناء والحمد وتقبل ظهر يديها لما تم

فتعود أنظار علا إليّ ثانية كأنها تخبرني بأنك أيها الشاب الغريب عنا كنت السبب بعد الله فيما نحن فيه وفي تلك السعادة التي أشاهدها على وجه أمي الحبيبة.

في البداية كنت أشعر بأن ما تقوم به علا هو تصرف عادى من إنسانة رقيقة تقدم لي الشكر لما تتمتع به من الخلق الرفيع سواء من الداخل أو نابعاً من أوامر أمها بأن يقوم الجميع علي العناية والاحترام والحب لأسامة، لقد أصبحت أحد أفراد الأسرة المفضلين، بمضي الوقت شعرت بأن علا تطيل النظر في شخصي وتتحدث إليّ بحديث هامس عن الأغاني المفضلة لها والأفلام وبعض تعبيرات رقيقة، شعرت بأن هذا التصرف مخالف لما تقوم به دينا معي، فدينا تشاغبني وتداعبني بصوت عال أمام الآخرين أما علا فحديثها يصبح همساً بعد أن يصبح المكان خالياً، في بعض الحالات كنت أقيم نظرات علا التي أشاهدها بالنظرات التي كنت ألاحظها علي نورهان ورغم التقارب الواضح من نظرات الاثنتين إلا أن ما تقوم به علا نحوى لم يقربني منها مثل ما كان يحدث من مشاعر نحو نورهان؛ كنت أشعر بأنني أخ وصديق لها مثل شقيقتها دينا.

في الإجازات التي كنت أحصل عليها من ميدان المعركة كانت والدتها تطلب مني ومن علا الخروج والتنزه مركزة حديثها لعلا بأن تقوم بإسعاد ابني أسامة فقد قضي أربعة أسابيع صعبة بين النيران والانفجارات وفي بعض الحالات تطلب من السائق عم عبده أن يقلنا للتنزه إما بالتوجه إلي مدينة القناطر الخيرية أو سفح أهرامات الجيزة، كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أستقل سيارة مرسيدس بسائق وبجوارى تجلس علا التي كنت أعتبرها أختي مثل دينا، في تلك المناطق الترفيهية كانت علا تتخلى عن تحفظها في بعض الحالات لبعض من تصرفاتها وتنطلق بعفوية الشباب والمرح إلى

محاولة التسابق معي بالعدو وحينما تشعر بالإعياء كانت تضع يديها على كتفي وتدقق النظر في عيناى.

في البداية لم أعبأ بكل هذا، نظرا لأن شقيقتها دينا تكثر من تلك المشاغبات ورغم هذا كنت أعتقد أن علا هى خليفة أمها في الوقار والحكمة وبحكم السن فإنها متزنة عن دينا كما علمت بعد هذا بأنها تكبرني بعدة أشهر؛ أى أنها أكثر إتزانا مني كما يتبادر للذهن مقياساً علي المثل القائل " أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة ".

مضي علي تعارفي بتلك الأسرة الكريمة الطيبة التي فتحت قلبها وصدرها قبل أن تفتح باب فيلتها لي أكثر من عامين، أحد الأيام ونحن معاً نجلس علي أحد أحجار الهرم الأكبر دنت مني علا تحدثني:

. أسامة .. أنت حاسس بيا؟

. طبعا .. أهو أنتي قاعده جنبي ولابسه بلوزه بيج و .... بضيق تعلق:

. بأقولك حاسس بيا .. مش بأقولك شايفني وإلا لأ، أنت مش فاهم السؤال وإلا بتلف وتدور.

تنبهت وتأكد لي أن ما تقوم به ما هو إلا نوع من الحب والرغبة مثلما كانت تفعل نورهان لكن نورهان أصبحت مثل الماء الذى دخل عبوة فارغة فملأ المكان وأصبحت الزجاجة ممتلئة عن آخرها ولا تسمح بسائل آخر للدخول؛ أجبتها:

. أيوه يا علا .. أنا حاسس بيكي .. صمتت قليلا ثم قلت:

. بس أنتي مش حاسه بيا

. إزاي تقول كده .. أنا حاسه بيك وبكل حاجه بتقولها وبتعملها بس شاعره أن فيه حاجز بيني وبينك؛ تفتكر إنك خايف أن ماما تعرف أو إخواتي أني بأحمل لك كل تقدير ومشاعر و .. .. مش قادره أقولها .. أكمل:

ـ وحب؛ ضحكت ونظرت لأسفل وداعبت بأصابعها الرقيقة حافة أحجار الهرم كأنها تخبر الجد الأكبر بأننا أحفادك نتبادل المشاعر الطيبة والحب الطاهر والمخلص بجوار هرمك الذي شيدته من أجل أحفادك كي يقبلوا ويتبادلوا المشاعر الرومانسية الجميلة.

منذ تلك اللحظة وحتى مساء اليوم التالي تأكد لي بأن علا تغدق عليّ بكل مشاعر الحب وأصبحت عيونها فاضحة لمشاعرها وقد بدا هذا واضحا علي نظرات ماما وداد ودينا لها ولهذا اعتراني الخجل خاصة إنني كنت مثل إنسان جائع ورغم الطعام الشهي المتوافر أمامه أصبح غير راغب فيه لأنه اعتاد علي نوع آخر محدد يسيل لعابه وشهيته.

جلست مع علا في فرندة الفيلا نتناول مشروباً انتظاراً لعودة شقيقتها دينا من الجامعة كي نتناول الطعام معاً؛ تساءلت:

. أسامة ألاحظ دمعة حزن كامنة بعيونك، هل لهذا سبب؟

صمت قليلا وأنا أنظر إليها وزادت دمعة الحزن وشعرت الفتاة بأنها أسخنت جراحاً عميقة بنفسي، أسرعت وقدمت اعتذارها، شعرت بأن علا في تلك اللحظة هي البديل عن ماما وداد أو أنها نورهان التي كنت أناجيها وأعرض عليها كل متاعبي وضيقي، أخبرتها بقصة حبي الغضة الأولي في حياتي مع نورهان وعادت بى الأحداث للماضي وزادت دموعي وتأثرت بها علا فشاركتني الدموع والأحزان وطيبت من خاطرى وأقبلت دينا وتوقفنا عن الدموع والمشاعر المؤثرة، ليلا حيث المحبين في يقظة من لهيب الحب والأشجان شعرت بسعادة لما طرأ علي السطح من مشاعر نبيلة بيني وبين علا؛ تلك هي المفاجأة السارة لي والحقيقة المؤكدة بأن علا صاحبة الفضل وكأنها تخبرني بأن تلك مكافأتك لأنك أدخلت البهجة والسرور علينا جميعا وكما سبق وأخبرتك في أول لقاء بأنه لو حدث ما نتحدث عنه لا تعرف

كيف سأكافئك أيها الشاب الصغير، نعم يا علا لقد كانت مكافأتك لي من الحجم والعيار العالي القيمة بالإضافة إلى ما أشعر به نحو أمك الحقيقية وأمي الروحية ماما وداد بل نحو أخي الأكبر مدحت بعد عودته لأسرته بل زاد من بهجة علاقتي بك تلك الشقية الصغيرة دينا والتي مازالت تدرس بالجامعة، دخلت في نوم هادئ بعد ما أزرفته من دموع أمام علا حينما هاجمتني ذكرى نورهان.

لقد عطرتي حياتي يا علا بأغلى عطر وأنعمت عليّ مع أسرتك بهذا الحب الخالص، لقد أصبحت الابن المدلل ولا يستطيع أحد أن يرفض لي طلبا، رغم أنه لم يكن لي أى طلبات، فقبل أن أفكر فيما أرغبه وأتمناه كنت أجده أمامي مشفوعًا بكل ابتسامة طيبة وقلب رحيم كريم، لقد كانت الأسرة تتمتع بكل مقومات الطيبة سواء من يسر المال أو كرم الخلق أو الحب بين أفراد الأسرة، لقد وضع الله السماحة والجمال والهدوء علي وجه ماما وداد ورغم ما يميزها من جمال ورقة وذوق عال في اختيار ملابسها الأنيقة إلا أنها كانت أقرب في التواضع عن الترفع وقد حذت ابنتاها حذوها كما أن مدحت ابنها كان مثالا للخلق الرفيع.

بدأت جراح سفر نورهان تهدأ توابعه وآلامه وكنت في كثير من الأحيان حينما أجد أن مشاعرى تدفعني نحو علا أتوقف معتقداً بأن هذا نوع من الخيانة أو أنه لعب عيال وأنني لا أعرف في الحب كلمة واحدة ولكن ثبت أن كل هذا هراء، فالإنسان يحتاج إلي العوض حتي ينسي الألم وجذوة الفراق، نعم؛ لقد كان عطف الأسرة وقصة الحب التي نمت بيني وبين علا سبباً رئيسياً في اندمال جرح سفر نورهان، لم أخفي شيئاً فإن الحقيقة العارية الواضحة هى أجل شيء عند الإنسان الصادق مع نفسه قبل أن يصدقه الآخرون، لقد ظل شبح سفر نورهان معي حتي كتابة تلك السطور وبعد أن

تزوجت وأنجبت؛ تلك الذكرى الطيبة كانت واضحة الأثر ولهذا لم تفارق خيالي وجوارحي وليس لي ذنب في هذا فقد سبقت نورهان ما تلي ذلك من تعارف وعلاقات إنسانية كما أنها تسللت إلي قلبي الأبيض الصغير الذى لا يعرف سوى حب الناس جميعاً، فلم يتسلل هذا الحب وتلك العاطفة إلى نوازع أخرى مثل الرغبة في الجنس الآخر وليس هذا ذنبها أو ذنبي لكنه قدر من الله.

كل شهر تقريباً حينما أسافر إلى البلدة أسأل والدىَّ هل وصل خطاب لي والنتيجة لا، توجهت إلى مكتب بريد المدينة وهناك التقيت بساعي البريد للمنطقة التي تعيش بها أسرتي وهو رجل كبير في العمر ويحمل طيبة أهل ذاك الزمان، سألته فأخبرني بأنه لا توجد خطابات لك من الخارج لكنه استوقفني وتوجه بصحبتي لأحد الموظفين وسأله، فتح الرجل دفتراً وظل يبحث عن أسماء من وصلت خطابات لهم من الخارج حتي عثر علي اسمي، نظر إليّ قائلاً: وصل خطاب باسمك و"صودر" أتساءل بلهفة صودر! لماذا؟ هز رأسه علامة عدم المعرفة، كادت أعصابي يصيبها الانهيار؛ لقد ضاع آخر أمل بالتعرف علي مكان نورهان كي أواصل حنيني ومشاعرى نحوها، لقد أوفت الفتاة بوعدها ولكن أجهزتنا المسئولة دمرت كل غصن وبرعم نابت.

خارج مكتب البريد هدأ ساعي البريد الطيب من خاطرى وأخبرني أن العديد من الخطابات المماثلة ترسل لجهة أمنية ما ولا تعود ولا نعرف ماذا حدث لتلك الخطابات، نظر إليّ معلقاً:

. إنها الأوامر، لا تغضب وسوف يساعدك الله.

كان هذا الخبر من أشد الأزمات، التي أطاحت بهدوئي ثانية، لا أعلم كيف التصرف، كنت راغباً بأن أبث أحداً شكواى لكن لمن، لقد سافرت

التي كنت أبثها شكواى، أصبحت وحيداً وهي وحيدة وكل ما عليّ فعله هو الدفاع عن الذين دمروا أحلامي المشروعة؛ يقتلون حباً نديا ويجلسون في مكاتبهم يقطعون كل رابطة بين أبناء البشر.

عدت من البلدة وشعرت علا بأن شيئا ما أصابني بالضيق؛ ابتسمت لي ابتسامة مصطنعة وقالت: أسامة سوف أحاول أن أعوضك بعض الشيء عن نورهان؛ لتعلم أنه لا يوجد شخص يملأ فراغ شخص آخر.

بعد تلك الجملة شعرت بأن علا أصابها شيء من الضيق قد يؤثر علي علاقتنا وأنا مثل الغريق الذى يتعلق بأى شيء يساعده علي النجاة، أريد من يملأ فراغ نورهان كما قالت علا لكنها أكدت أن هذا لن يتم؛ فلا يوجد شخص لديه القدرة أن يملأ الفراغ بنفس الكيفية التي كان يحيا بها الآخر خاصة فيما يتعلق بأمور الحب وأسراره.

اليوم التالي شعرت بأن علا تتصرف معي بطريقة عادية، مازال أمامي يومان إجازة أعود بعدها لوحدتي بمدينة القنطرة غرب؛ حيث الاشتباكات الدامية تدور رحاها بين قواتنا والأعداء، أشارت إليّ علا بأنه يمكننا الخروج معاً نسير على كورنيش النيل القريب من مكان الفيلا بمنطقة الروضة غادرنا الفيلا وتعمدت أن تمسك بيدى ونسير هكذا، بل كانت تحرك يدينا للأمام والخلف "مرجحه" وتطربني ببعض أغان لشادية ونجاة الصغيرة وتمرح وزادت من جرعة الضحك والابتسام حتي سمعت قلبي يضحك قبل فمي، نظرت إليّ معلقة:

- أسامة؛ ده اللي كنت أحب أشوفه منك، ضحكتك البريئة الطيبة؛ سيبها لربك وما تحملش هم وربنا هوه اللي بيعالج ويعوض وح يساعدك ويساعد كل الناس على الخروج من المشاكل.

نظرت إليها وعيناى تحاولان تقديم كل شكر علي مشاعرها تلك وسألتها:

ـ هل ضايقك ما أفصحت عنه؟ أجابتني ببسمة رائعة وعينين لامعتين ضاحكة:

ـ أحسن حاجه عملتها، مش عارفه أقول لك إيه؟ دخلت قلبي بسرعة لإخلاصك أولا ولصراحتك ثانياً.

سارت الحياة علي نهج واحد متسق، العمل المخلص بجبهة القتال والسعادة تشملني مع جنودى الأوفياء المخلصين لما نقوم به من تكبيد قوات العدو للخسائر فرفع هذا من هاماتنا أمام أنفسنا قبل الآخرين كانت الإنجازات متتالية كما أن الله قد حمانا وسخر قدرات أخرى للدفاع عنا ضد طيران العدو الذي استهدف وحدتي بغرض الإجهاز عليها لما سببته من خسائر وإزعاج لقواته بالقنطرة شرق.

سار هذا بالتوازي مع علاقتي الأسرية بعائلتين تكنان لي كل حب ومودة، عائلة ماما وداد بحي الروضة على نيل مصر العظيم وعائلة ماما مارى بحي الظاهر بوسط القاهرة بالإضافة إلي صديقي المخلص عادل دعبس الذي منحه الله التفاؤل وحب الناس فعطف عليّ دون قصد لكن هذا الشعور كان له تأثير قوى علي معنوياتي، لقد جد جديد عليّ وهو فقدى لهذا الصديق؛ فقد انتقل من الوحدة إلى وحدة أخرى وسافر في دورة تدريبية إلي الاتحاد السوفيتي "روسيا" وأصبحت دون رفيق ودون ونيس حقيقي لكن سرعان ما ظهر البديل.

ضابط احتياط شاب قائد فصيلة دبابات مجاور لسريتي بمدينة القنطرة غرب المدمرة، تصادقنا بعد أن تعارفنا، كان محمود خميس من الشخصيات الجميلة التي أثرت في جزء من حياتي خلال تلك الفترة، شاب مثقف متعلم يعمل معيداً بكلية العلوم جامعة الإسكندرية كما إنه من أبناء الإسكندرية وما يمتاز به شعب تلك المدينة من الرقي والتقدم وحسن اختيار التعبيرات أثناء الحديث وعدم التدخل المباشر في الشئون الخاصة.

أحد الأيام توجهت لمدينة بورسعيد مع القائد من أجل التعاون العسكرى مع وحدات القطاع هناك، بعد أن انتهي اللقاء الخاص بالعمل استمر لقاء آخر خارج العمل يتخلله غذاء؛ انتهزت تلك الفرصة وغادرت الاجتماع باحثاً عن محل أو دكان عم عليوة المزين الذي التقيت به منذ أربعة أعوام ساعدني البعض ودلوني عليه؛ كان المحلُ مغلقا، أحد جيرانه أخبرني بأنه منذ شهرين وهو لا يعمل نظراً لظروفه الصحية وحينما علم برغبتي للقائه أمدني بأحد العاملين لديه الذى دلني على منزله بالمدينة.

لقاء طيب مع هذا الرجل وأسرته، لقد فوجئ ومن معه بزيارتي تلك والتي كانوا يعلمون كل ما دار من حديث وأشجان حين عودتي من سيناء والتلاحم النفسي والروحي مع هذا الأب الذى فقد ابنه الأكبر خلال حرب عام ١٩٦٧ ، أسعدهم جميعاً حضورى، وتأكد لهم بأن ممدوح ابنه أصبح مفقوداً وفي عداد الأموات، هناك تعرفت علي السيدة زوجته وابنه الأصغر الذي يقارب اثني عشر عاماً من عمره وابنته العروس سحر ذات الثامنة عشر ربيعا.

شعرت بود وحب مع تلك الأسرة وكنت راغباً بالمكوث لديهم بضعة أيام بناء علي رغبتهم وهذا ما طلبوه مني بكل عطف وكرم لكن العمل العسكرى فوق كل رغبة وفوق كل دعوة، تركت الأسرة وشعرت بأن هناك عائلة جديدة اقتربت مني واقتربت منها، لقد كان هناك تأثير واضح للجميلة سحر علي مشاعرى، أصبح حالي مثل حالي أثناء الانسحاب من سيناء فقد كنت دائم استجداء المياه والطعام من الآخرين، لقدُ عدت إلى تلك الحالة بعد انسحاب نورهان من حياتي؛ لقد أصبحت كثير استجداء عواطف وحب النساء فلم تكفني علا وشقيقتها وماما وداد وماما مارى وروز بل كنت أطلب المزيد، كان فراغ نورهان كبيراً ولم أكتشف هذا إلا بعد سفرها فلم

يستطع كل هؤلاء غلق هذا الجرح العاطفي والنفسي.

حينما كنت أختلي بنفسي وأراجع تلك العلاقات كان يهاجمني شعور بأن كل تلك العلاقات لا تدخل في مضمون الحب الذى كان بيني وبين نورهان وبالأخص مع علا؛ فبعد أن اعترفت لها بكل شيء زادت من وتيرة علاقتها بى وسكن في يقيني بأن كل هذا نوع من العطف والرثاء لما أصابني؛ فقد تكاتفت جميع النساء والفتيات اللائي التقيت بهن من أجل هذا الهدف، يجب أن نعالج جروح أسامة النفسية فقد سبقتها جروح نفسية وبدنية من آثار انسحاب عام ١٩٦٧ أعقبها هذا الجرح الغائر الذى لم يستطع مقاومته فأصبح ينزوى حزناً علي ما فقده.

في نفس الوقت كنت أعتقد أن ما يعتريني هو شعور إنساني طبيعى ولست شاذاً عن الآخرين؛ كيف أسلم ببساطة وسهولة بقتل هذا الحب الذى نما يوماً بعد يوم وشهراً يلي شهر وعاماً بعد عام، لم ينمُ مسرعاً حتي إذا ذبل مسرعاً لم أشعر به لكنه نما مع نمو عقلي وبدني، لو كانت نورهان هي المتسببة في قتل هذا الحب لما احزنني هذا بمثل تلك القوة والشدة لكنها على الحب حافظة على العهد ومستمرة وكادت أن تنهار أثناء سفرها، حينما يعود لفكرى وعقلي يوم الوداع القاسي المؤلم يهاجمني شعور بالألم تكاد معه أن تنفطر عيناى دمعاً علي حالي وحالها، لأنها غادرت المكان والزمان وتركت القلوب والأبدان والمشاعر والأحاسيس دون عاطفة وتلك من أصعب الحالات التي يلاقيها أي إنسان؛ إذاً لم يكن عطف تلكم النسوة والفتيات بشيء أكرهه لكن الجميع أدرك بأن هذا واجب عليهن، لقد نظرن إليّ بأنني واحد منهن وحياتي أصبحت أمانة بين أيديهن، من أجل هذا قامت كل واحدة منهن بما يمليه عليه الواجب حسب عمرها وعلاقتها بى لقد أغدقت عليّ علا بما لا أستحقه من حب ورعاية واهتمام، لقد تبدلت

صورة العطف والرثاء التي كنت أظن أنها تدفعها لهذا حينما كنا نتنزه بوسط القاهرة وإذا شاهدت عيوني متجهة نحو فتاة أخرى يصيبها هذا التصرف بكل ضيق وألم، إحدى المرات فاتحتني في هذا حانقة على هذا التصرف.

امتلأت عيوني بالدموع المتحجرة، شعرت الفتاة بأنها غرست نصل سكين حام في قلبي، بعد أن هدأ حالي أخبرتها بكل أسف واعتذار بأنني كنت أعتقد أنها نورهان فهى شديدة الشبه بها، نظرت إليّ بكثير من الدهشة وأصابها اعتقاد بأن لوثة عقلية قد ألمت بي؛ كلما شاهدت فتاة بها بعض التشابه من الملبس أو الحجم أو لون شعرها اعتبرتها نورهان، لحقت بفكرها أخبرها بأن هذا نوع من المسكنات!! نظرت إليّ بدهشة قائلة:

. كل الذى أمامك مش مكفيك، ياه .. دا أنت طماع

. أبدا، أعطيني العذر يا علاء فأنا مازلت في حالة من الترنح؛ لكن ثقي أن حبي لكِ عال القيمة ومكانك بقلبي محفور لا يمسسه أحد.

صمتت وكأنها رغبت في غلق هذا الموضوع، واعتقدت بأنني إنسان بائس وغير مستقر العواطف والأحاسيس ولتحاول الأيام القادمة أن تثبت لها عكس ذلك، وإذا لم يحدث فهو أخ غير شقيق ولن تخسر إلا بعض الوقت التي تقضيه معي.

كنت شبه طواف علي المنازل الثلاثة، لابد لي من زيارة ماما مارى كل شهر، كنت أشعر بمتعة حينما أشاهد تلك الأم العظيمة ودائماً ما تتحدث عن بطولة ابنها وترفقني بتلك البطولة رغم إنني كنت مختبئاً خشية الأعداء لكن البطل المغوار مع ثلاثة آخرين من سلاح المدرعات قاموا بعمل مجيد يضاف للعسكرية المصرية؛ حينما أشاهد عزيز ابن الشهيد وليم كانت تنتابني السعادة بأن أباه يشاهده من أعلي من فوق سبع طباق ويسعد لحاله، أكيد يقدم الشكر لي لما قمت به من إبلاغهم بما قام به نحو وطنه

كانت تغذيني ابتسامة روز؛ تلك السيدة الجميلة والتي لم يصل عمرها الثلاثين عاماً وأنظر إليها وأفكر: لقد كان وليم رجلا محظوظاً حيث تخير زوجة جميلة وموتاً باقياً للحياة، أيضًا كانت روز تبادلني نظرات السعادة بأن هذا الضابط الصغير هو من أخبرها ببطولة زوجها وجعلها فخورة كما أنه حضر وفاته وآخر من حدثه وصافحه ونظر إليه ومن أجل هذا كانت هى وماما مارى يكثرن من النظر إليّ من أجل هذا الغرض، لم تعد نظراتهن تربكني مثل السابق فقد أوضحت ماما مارى هذا وطلبت مني ألا يصيبني الضيق من تلك النظرات التي تشبع حبهن للشهيد وليم ولذكراه أتساءل: كيف يصيبني الضيق من تلك النظرات الطيبة الرقيقة والبسمة التي تغلف الوجوه.

كان ينقصني زيارة أسرة عم عليوة؛ فهو مازال قابعاً في بورسعيد، أحد الأيام تحايلت علي القائد بأنني أحتاج لزيارة بورسعيد لشراء بعض مستلزمات للجنود ووافق علي هذا، أخذت السيارة الجيب وبعض الجنود وتركتهم يتجولون بالمدينة بعد أن تركوني أمام منزل عم عليوة الذى فوجئ مع أسرته بحضورى وزادهم هذا سرورا وغبطة؛ لكن سحر كانت الأكثر بهجة وفرحة بتلك الزيارة، لقد كانت الفتاة شبه مقيمة بالمنزل لا تخرج إلا لأمر مهم وشديد؛ لم يكن لها من الصداقات والأقارب الكثير فقد هاجر العديد من العائلات المدينة ولم يتبق سوى بعض المهن المطلوبة ومنها والدها فظل مع أسرته، والتى سمحت له السلطات العسكرية بذلك وكانت لصيقة بالشهيد ممدوح وفقدته، من أجل هذا شعرت بأن الله عوضها عن الفقيد بوجودى وعن صحبة الفتيات من صديقاتها واللائي كن يتجاذبن معها أطراف الحديث عن الأغاني والأفلام والموضة المنتشرة في تلك الفترة، كل هذا شاهدته سحر في الشاب الذي تحدث مع أبيها بأنه ابنه الذى فقده ومن

الممكن أن يخرجها من حالة الجمود العاطفي

أما عن حالي فقد ظللت في حاجة لمزيد من الدعم العاطفى الإنسانى فلم أكتف بكل تلك الصداقات السابقة وكأنني أطالب نساء وفتيات مصر بالالتفاف من حولي لعلاج أثر الحب الذي ضاع مني دون ذنب اقترفته أو اقترفته الحبيبة، قضيت عدة ساعات مع أسرة عم عليوة واختلطت بهم واقتربت مع عواطفهم وأحاسيسهم، شعرت بان تلك الأسرة المتواضعة اجتماعياً ومادياً لها طعم آخر غير أسرة ماما وداد الثرية مادياً واجتماعياً.

كانت هناك مفارقات واضحة بين العائلتين، فالأمور هنا بسيطة والجلوس أرضاً والحديث الضاحك وتناول الطعام علي الطبلية ونوعية الطعام التي تغزوها روائح البصل والثوم والمخلل؛ كانت الحياة قريبة إلى نفسي فهى اقرب إلى مجتمع العائلات المتوسطة بالشرقية وهذا مخالف لما عاصرته في فيلا دينا فكل شيء بحساب والطعام لابد من تناوله وأنت ترتدى ملابس الخروج ولا جلوس أرضاً، وعليك تناول الطعام مستخدماً الأدوات الخاصة بذلك من الشوكة والسكين والملعقة ولا يجب تناول الشوربة أو الشاى بصوت مسموع حين رشف تلك السوائل، كانت قيوداً رقيقة لكنها تصبح في بعض الأحوال ثقيلة على الإنسان الذى يشبه طائراً راغباً بالطيران حباً في الحياة لمن أشرق الحب على حياته في وقت مبكر من مرحلة الشباب.

تطور الأحداث

ازدادت العلاقة قوة ومتانة بيني وبين علا، لقد تخطينا مرحلة الحلم المفقود الذى ضاع بسبب سفر نورهان، فقد اقتنعت علا من تلقاء نفسها بأنني غير مذنب فيما حدث؛ بل شعرت بأنني إنسانٌ مخلص في حبي لمن أعطتني قلبها؛ لهذا فقد سلمت لي مفتاح قلبها بكل ثقة وبكل سعادة دون أن تتدخل في النوايا.

كانت ماما وداد من أهم الأسباب التي دفعت بعلاقة الحب بيني وبين علا للأمام وبدون هذا الدفع كنت سأشعر بأن ما بيني وبين علا نوع من الحنان والعطف والمروءة ورد الجميل، لكن ماما وداد كانت تشجعنا علي هذا بل تطالب علا بأن يقلنا السائق إلي بعض الأماكن الترفيهية الجميلة التى كنت أحبها وأرغبها ولكني كنت أخشاها نظراً لارتفاع تكلفة ارتيادها.

أما عن دينا الشقيقة الصغرى التي كانت تنظر إلينا ونحن نتحدث همساً بكل سعادة؛ كانت تنتظر أن يتعلق قلبها بمن يستحقه، لقد كانت دينا صورة من ماما وداد في الرقة والجمال والطيبة التي وهبها الله إليها بينما علا كانت خمرية اللون يميزها الطول وتناسق في تقاسيم الجسد بالإضافة إلي صوتها الساحر أثناء الحديث وضحكاتها القليلة الباعثة علي الحياة والتجدد.

في بداية الأمر لم يكن مدحت سعيداً أو مسروراً بتلك العلاقة ولكن حدث تغير تدريجي، بدأ هذا التغير بعد أن تم علاجه بمركز تأهيل القوات المسلحة ووضع عينا صناعية مكان المفقودة أعقب هذا قيامه بالعمل بإحدى إدارات القوات المسلحة، عمل لا يحتاج إلى مجهود بدني بل يعتمد

علي الفكر والثقافة؛ لقد ابتعد عن الخدمة بالتشكيلات المقاتلة أو العمل بجبهة القتال وصعوبة الحياة والعمل الشاق والتعرض لمخاطر الإصابة من طائرات الأعداء، فبعد أن ينتهي من يوم العمل يعود عصراً إلى منزله يتناول طعامه ويحصل علي راحته بحجرته مستلقياً علي سريره، انصب كل هذا بأن أصبح طبيعيا بعد أن تصالح مع نفسه ولهذا لم يعد كارها للحياة أو البشر.

أضيف إلي كل هذا خطوة مهمة في حياته وحياة أي شاب أو فتاة فقد وفق في اختيار شريكة الحياة؛ حيث تمت قراءة الفاتحة على ابنة خالته المهندسة سعاد التي تخرجت حديثا؛ لقد كانت الفتاة غاية في الرقة والجمال وأضافت الكثير إلي شخصيته وأبعدته تماماً عن جو الحزن والكآبة التى كانت تسيطر عليه وتدفعه إلي الضيق والتبرم وتمنعه من الضحك أو عدم السرور الذى كان من صفات كلّ منى وعلا ودينا تشاركنا فيه ماما وداد في أوقات كثيرة.

توطدت العلاقة بيني وبين علا وأصبح موعد إجازتي هو نفس موعد إجازتها من العمل وأصبحت تعد برنامجاً ترفيهياً للتجول وزيارة بعض الأماكن الأثرية المهمة أو مشاهدة الأفلام الحديثة، بل كانت تزودني ببعض خواطرها التي قامت بكتابتها منذ نهاية أجازتي الماضية حتي أعود بها إلى عملي كي أظل متذكراً حبها ولا أنساها، لم تكن تفكر أو تعتقد بأنني سوف أنظر لأخرى لأننا في موقع عسكري وليس به سوى رجال ومدافع وذخائر وقنابل تسقط علينا يومياً.

كانت علاقتي بعلا قد وصلت بعض خيوطها إلى أمي التي كانت تحاورني دافعة لي كي أتزوج فقد كانت تخشي حدوث مكروه لي ومن أجل هذا كانت تفكر بأنني لو تزوجت وحملت زوجتي وحدث مكروه فسوف أترك

ذكرى تسعدها وتبرد نار الفراق، من أجل هذا حينما كانت تعلم بعض أخبار ومعلومات عن زيارتي فيلا دينا كانت تشد من أزرى دافعة لي باتخاذ خطوة إيجابية نحو بناء علاقة صحيحة تنتهي بالزواج وبالتالي تحقق غرضها التي دائماً ما تفكر فيه خشية من فقدى لحياتي أثناء المعارك أسوة ببعض الشباب التي سمعت عنهم.

دفعني هذا لتخطيط رسالة أرسل بها من وحدتي مع أحد الجنود كي أخبر علا بأنني قادم لزيارتكم بالإجازة التالية وسوف أتخذ خطوة إيجابية نحو التقارب بيننا في طريقنا للخطبة ثم الزواج، الجندى الذي تخيرته من بين جنود المؤهلات العليا التي وصلت للقوات المسلحة وكان جندياً متحركاً ونشيطاً يقاربني عمراً بل كان يجالسني كثيراً في أوقات الفراغ وأعلم أنه من عائلة طيبة.

أخبرته بأنني أنوى إرسال خطاب معه ووصفت له المنطقة فقاطعني بأنه يعرفها شبراً .. شبراً؛ فله علاقة حب غرامية مع فتاة هناك وأسهب في ذكر المعلومات التي كانت متطابقة على علا بالتمام والكمال واسمها واسم شقيقها ووصف لشخصها، انقلبت أحوالي إلى وضع سيئ للغاية وشعرت بنصل حام يقطع في قلبي وأحشائي؛ فمن تخيرتها تبين لي بمحض الصدفة أنها على علاقة بهذا الجندى الذي أشاد بالرابطة التي جمعتهما وسرد بعض ما يحدث من تصرفات بين الشباب حين الابتعاد عن أنظار الآخرين.

أصابني هذا في مقتل واعتذرت للجندى بتأجيل تلك المهمة لوقت آخر لكنني تكتمت كل شيء عن الشخصية التي نويت إرسال الخطاب إليها ومزقت الخطاب الذى نويت إرساله، بعد هذا تعمدت تجاهله والابتعاد عن أي لقاء يجمعني به علي انفراد حتي لا يعود لسرد حديثه الذى أخبرني به قبل ذلك.

انعكس كل هذا علي علاقتي بعلا وبالتالي أصبح البرود في العلاقة مسيطراً علينا وهي لا تعلم السبب في هذا التغير الفجائي، حاولت أن تبحث وتسأل وتخمن وتستنتج معولة هذا السلوك لظروف العمل القاسية التي نقوم بها لكن هذا الحال دام شهورا عدة حصلت خلالها علي عدة إجازات كما إنني كنت أقوم علي زيارتهم في الصباح والعودة في نفس اليوم إلى أسرتي بالزقازيق مخالفاً العادة التي سرت عليها منذ بدء علاقتي بهم بأن أقيم يومين على الأقل في ضيافتهم، أحزن هذا السلوك ماما وداد ودينا بل مدحت وخطيبته، أصبح الجو العام بالفيلا كئيباً دون فرح وضحك مثل السابق، كنت أحاول التظاهر بالتحدث والضحك معها لكن هذا التظاهر تبين لهم أنه مفتعل وليس نابعاً من داخلي ولا يعبر عن مشاعري؛ فهي تصرفات مخالفة لما اعتادوه مني.

حاولت علاج هذا الشرخ العاطفي في حياتي دون جدوى، أعطيت لها العذر، وبررت لها كل تصرف عاكساً الوضع بأن الكثير من الشباب يبدؤن في إقامة علاقة عاطفية مع فتاة ثم تتبدل الأحوال ويحدث نفور وعدم انسجام وبالتالي تنفك تلك العلاقة، لأجعل هذا مثل باقي العلاقات بين الشباب ولا يجب عليّ محاسبتها وعقد المحاكمة لما فعلته قبل أن تلتقي بي، لقد فضلتني عن العديد من الشباب الذى حاول خطب ودها وكان هذا باديا حينما كنا نتجول بوسط القاهرة؛ لقد كانت ملفتة للنظر بجمالها الطبيعي دون مساحيق وبملابسها المتناسبة والمتناسقة وباديا عليها حسن الاختيار والأناقة وغلو الثمن.

أسررت بكل تلك الانطباعات إلى زميلي وصديقي النقيب حسن بالوحدة التي نعمل بها، كنت أعتقد أنه إنسان له تجارب؛ حيث كان على علاقة بجارته وتم خطبتها منذ عدة أشهر؛ كان يعود من إجازته سعيداً هائماً

بحبها وجمالها وهى ابنة الثغر مثله، كان يسير علي بساط من الحب والأشواق بل كان يسرع كل أسبوع لمدينة القصاصين أو الإسماعيلية ليحادثها تليفونياً حتي يسمع صوتها فيعود بعدها منتشياً إليّ فيخبرني بمشاعره وأحاسيسه.

كنا نتبادل الأسرار ولا يعلم أحد من باقي الزملاء بأى أخبار عنا في هذا المجال فهو مجال حساس، ولا يجب أن يعلن على الملأ ويعرفه كل من هب ودب، لهذا أخبرته راغبا بالاسترشاد برأيه خاصة حينما لمح في عينيَّ بعض ومضات حزن وألم؛ فهو صاحب تجربة، كان من رأي حسن إنني ليس لي الحق في أن أفتش عن ماضيها، وما هو ماضيها أو ماضي أى شاب أو فتاة في مرحلة العشرينات، إنه ماض مشرف توج بالتخرج من الجامعة والعمل بعدها لنطلب الكمال بالارتباط بالشخص الذي مال القلب إليه، أرجوك هدئ من حالتك ولا تضع خيالات حزينة أمامك تضايق بها نفسك والآخرين.

حاولت الأخذ بنصيحته وكلما التقيت بها شاهدت هذا الجندى الذى كان زميلا لها بالجامعة يبادلها الكلمات الحلوة المعسولة بل أشاهده يسير متأبطاً ذراعها سعيداً منتشياً بهذا الملاك الذي يسير علي قدمين، شعرت إنني وضعت نفسي ووضعت الأسرة في مأزق لا حل له؛ لقد تشابكت خيوط الضيق والتبرم خاصة أنهم لا يعلمون ما أعلمه وأحزنني هذا، فلو علموا بالأمر لاستطاعوا أن يتفهموا مشاعرى أو قد يدفع هذا بعلا لتدافع عن نفسها لكن أن يحدث برود عاطفي فجأة فهذا ما ضايقهم، حاولوا أن يبحثوا فيما بينهم عما كدر صفو تلك العلاقة ولم يصلوا لأى نتيجة.

جلست على خط القناة بمفردى بداخل الملجأ الذي يقع تحت سطح الأرض بعدة أمتار لحمايتي من قصف مدفعية وطيران العدو .. ليلاً

السكون هو السمة الواضحة بهذا المكان وليل الشتاء الحزين حيث يعتكف البشر والطير تجنباً للبرودة والعواصف الرملية الشديدة والأمطار الغزيرة كان زميلى حسن يقضي إجازته الميدانية بالإسكندرية وأنا جالس بالسرير أقرأ رواية وأسمع موسيقي هادئة من محطة إذاعية لهذا الغرض، تنبهت إلي ما حدث من علاء شعرت بأنها الخيانة والغدر بعواطفي وأحاسيسي خاصة بعد أن شعرت بأنني في أشد الحاجة إليها كي أعوض فقد حبي الأول لنورهان؛ خرجت مني الكلمات الحزينة كي تهيج مشاعر الغضب حتي إذا وصلت إلي ذروتها هدأت ثائرتي وخمد بركاني المتفجر حيث كنت أردد:

"" عندما تحب شخصا بجنون وتجعله حياتك التي تحياها، تخلص له بشدة، تعيش معه حياة أخرى تماماً في عالم وردى رائع جميل ترى العشق بعينيه وتبادله النظرات المجنونة؛ فجأة .. تصطدم بصدمة قوية من الواقع وتتألم بشدة، أرفع رأسي إليه أنتظر أن يخفف عني الألم، أستعيد الوعي لأعلم أن الصدمة والصفعة القوية كانت منه وليست من أحد آخر حسب أمنياتي، أنتظر .. وأنتظر دون جدوى؛ عندها تمنيت الرحيل بصمت .. ورحلت .. فلقد اكتشفت أنه الشخص الوحيد الذى وثقت به بعد حبي العذرى المفقود بعد سفر نورهان .. لقد كان هذا الشخص منافقاً كاذباً، أتقن الدور فخدعني .. إنها ممثلة بارعة عرفت كيف تستطيع سلب قلبي الطيب الذي نام قرير العين، وأصبح ساكنا محاولا أن يستبدل الحب الهارب بحب آخر قريب .. لهذا تمنيت الرحيل بصمت؛ ورحلت ..... ""

أحد الأيام جلست مع ماما وداد بعد أن غادرت علا الفيلا للقاء صديقتها؛ حاولت أمها أن تثنيها عن هذا وبين تصميمها على الخروج ومحاولة ماما وداد بأن تظل ولا تخرج كنت صامتاً وكأن هذا الأمر لا يعنيني من قريب أو بعيد مما آثار ضيق الفتاة وجعلها تصمم علي الخروج

والتنزه مع صديقتها مرددة *"من فات قديمه تاه"* لقد عصفت تلك الجملة بكياني وشعرت بسكين تقطع في أحاسيسي ونياط قلبي الحزين *"من فات قديمه تاه"* آه لقد عادت للقاء الحبيب ، وخلال الفترة السابقة كانت فى حالة هدنة من تلك العلاقة أو أنها شعرت أنه أفضل مني.

حدثتني تلك السيدة العظيمة متسائلة:

ـ ماذا يضايقك يا أسامة؟ أنت تعلم علم اليقين بأنك ابني الذي لم أنجبه وباقي أفراد الأسرة إخوتك وكلهم يحبونك ويقدرونك وطوال فترة عملك بجبهة القناة ونحن نردد الدعاء لله يحفظك ويحميك وأن تعود إلينا سالما معاف نجلس معك ونحتفل بوصولك؛ فقد كنت تشع شباباً وحيوية وبسمة رقيقة وكلمات ضاحكة، كنا جميعاً نسعد بها؛ إذا تصرف أحد من أبنائي بما يضايقك فيجب عليك أن تخبرني فأنا ربة هذا المنزل وكلكم أبنائي أحبكم جميعاً ومشاعرى نحوكم متساوية.

كدت أندفع وأخبرها بما بثه هذا الشاب في أذني عن علاقته بعلا لكنني تذكرت كلمات النقيب حسن القصيرة القاطعة " إياك أن تخبرها أو تخبر أحداً من أسرتها بما سمعت، فإذا كنت غير قادر علي العيش مع هذا المنافس الخيالي فعليك أن تكون حصيفاً مهذباً ولا تضع إصبعك في عيونها أو عيون أسرتها؛ إن هذا من أشد التصرفات إيلاماً أن تخبر من أحبوك ووثقوا بك إنك تتشكك في سلوكهم وأخلاقياتهم، انسحب أيها الفارس بهدوء دون أن تترك جروحاً لن تندمل".

مضت الأيام بائسة من حولي وأنا أبحث عن بصيص أمل يساعدني علي تخطي تلك المحنة، حاولت تعويض هذا بزيارة ماما مارى و روز والجلوس معهم والتمتع بحديثهم الشيق خاصة بعد زواج الرائد عاطف شقيق وليم، كانت السيدتان في حاجة ماسة لمن يدخل علي قلوبهم البهجة

والسعادة وأن يكون هناك وجه جديد يأتي فيبدد حالة السكون المطبق عليهن.

لم تشبعني تلك الزيارات؛ حيث كانت ماما مارى تهاجمها الأمراض على فترات متعاقبة كما أن روز مشغولة في العناية بابنها عزيز، لم أجد بالمنزل من هو في عمرى أو أجد الصحبة الجميلة التي تمثلها علا والشقاوة والضحكات المغردة التي تنشرها دينا بيننا، كان هناك خلاف بين العائلتين بالإضافة إلي أن منزل ماما مارى يخيم عليه الضوء الخافت ولا يسمع به أصوات غناء أو موسيقي حيث لا تستمع إلي الراديو.

لم يتبق أمامي سوى عائلة عم عليوة لكنهم يعيشون في بورسعيد وليس من المعقول كل فترة أطالب القائد بالتوجه إلي بورسعيد من أجل شراء بعض المستلزمات رغم أن المسافة بين الموقع وبورسعيد أقل من خمسين كيلو، كأن الله أراد أن ينير لي بعضا من قبس ضوء يبدد ظلمة حياتي العاطفية والإنسانية، طلبني القائد للتوجه إلي بورسعيد كي نعيد بعض الترتيبات مع قائد القطاع في حالة نشوب حرب.

توجهت معه والسعادة هى حالي حتي أن زميلي حسن غلبته الدهشة والاستغراب من كيفية المرح والسرور لمرافقة القائد لعمل شاق يستلزم منك نهار اليوم بأكمله، لم يكن حسن يعلم بصلتي بتلك العائلة؛ في بورسعيد تكرر اللقاء السابق، قضيت معهم أربع ساعات طيبة جميلة قامت خلالها سحر بالشدو والضحك وأسعد هذا الأسرة مما دفع أمها إلى السرور ونظرت إليّ بدهشة لهذا السلوك معبرة عن وجهة نظرها بأن سحر دائمة الصمت والسكون، علقت سحر بأن أخي أسامة حين حضوره يسعدنا جميعا مما دفع عم عليوة إلى تأييد قولها مؤكدا علي أن تلك هى مشاعره أيضا.

كأن الله دفع بسحر لأن تغدق عليّ بالحديث الجميل الساحر كي

تعوضني عن حالة الجفاف العاطفي الذي هزمني أمام قسوته وطردني من جنة الحب والحنان التي كنت أعيشها مع عائلة ماما وداد، تحدثت الفتاة كما لم تتحدث من قبل وزادت جلستها الطويلة معي ولم تشارك أمها أعمال المنزل، شعرت أمها بأن أبنتها سعيدة بهذا الضيف الذي يقبل عليهم كل عامين تقريباً فتركتها لتلك الحالة وهى باسمة سعيدة تحرك رأسها بعلامة الدهشة كل فترة حينما تشاهد ابنتها منطلقة بالحديث معي تجاذبني الحكايات والنكات التي سمعتها من صديقتها الوحيدة بالمدينة.

غادرت بورسعيد بعد أن حصلت على جرعة حنان ومودة كبيرة ولن أقول جرعة حب فقد كنت أنظر إلى عائلة عم عليوة نظرة العوض عن الابن المفقود ممدوح، كأنني العوض عنه كما قال هذا منذ عدة سنوات في أول لقاء بيني وبينه يوم أن قص شعر رأسي وتبادلنا الأشجان والدموع والعلاقة الإنسانية الفريدة التي تجمع الآباء بالأبناء.

أسرعت الأيام من الوتيرة، شعرت بأنني لست راغباً في التوجه لمنزل ماما وداد حيث كنت أشعر بأن علا تحاول استفزازى ومضايقتي بينما كنت صامتاً هادئاً رغم ما قاسيته من ضيق من سوء تصرفها الذي أصبح واضحاً لأى إنسان بأنها تكرهني لأبعد الحدود؛ حاولت ماما وداد تعويضي عن هذا العنت، لكنها لم تستطع ومن أجل هذا قررت مقاطعتهم وضربت بكل حب بيني وبين ماما وداد بعرض الحائط بل أيضاً بسعادتي بشقاوة دينا وعلاقة الإخوة بيني وبين مدحت الشقيق الأكبر وزوجته، لقد نجحت علا في أن تجعلني أهرب وأترك لها ميدان المعركة وأتجه لميدان المعركة الحقيقي الذي أنا أهل له.

الحرب تعالج كل المشاكل

شهر سبتمبر من عام ١٩٧٣ خلاله وصلت التدريبات العنيفة إلي أشدها، لقد أصبحت برتبة الرائد منذ عدة شهور ووكل إليّ قيادة وحدة عسكرية تتكون من كثير من التخصصات وكل هذا تم خلال العمل وأثناء التدريبات والمهمة الموكلة لي القيام بالهجوم على العدو في عمق سيناء ولقاء العدو ودباباته لمنعهم من الهجوم على القوات أثناء العبور وهذا العمل يتم لمسافة لا تقل عن سبعة كيلومترات من الشاطئ الشرقي للقناة، لم يكن هذا يسبب لي أي مفاجئة أو دهشة، فهذا حالنا منذ سنوات لكن ما جد هو وصول وحدات من أفرع بعض الأسلحة من خارج نطاق اللواء والفرقة للعمل معي دون باقي الوحدات المساوية لي.

نهاية شهر سبتمبر حضر لزيارتي بموقع وحدتي مساعد "صول" كان يعمل تحت قيادتي قبل أن ينتقل للعمل بمكتب عمليات قيادة اللواء، بعد أن جلس الرجل قليلا انتهز فرصة عدم وجود أحد معنا ولمحت في عيونه بما يرغب الإفصاح عنه ومن تجاربي السابقة معه أعلم أن الله ميز هذا الرجل بالذكاء والفطنة والانضباط إلى حد كبير، كان بعض القادة يعتبرونه مكسباً لأي وحدة يعمل بها وأنا أؤيد تلك النظرة من تجاربي معه لأكثر من عامين ساعدني خلالها كثيراً.

اقترب مني ونظر إليّ بعيونه الخضراء قائلاً:

- سيادة الرائد؛ إنني أشفق عليك من المهمة الموكلة إليك، بل نحن جميعاً بقيادة اللواء نرثي لحالك وحال رجالك، ندعو الله أن يوفقك فيما ستقوم به من مهمة شاقة وفريدة في نوعها، سوف تضع نفسك ورجالك بفم العدو الإسرائيلي.

نزلت عليّ تلك الكلمات نزولا شديداً قاسياً رغم أنني أعلم المهمة الملقاة على عاتقي، ابتسمت له موضحاً بأن الله يوزع المهام علي الناس ولن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا ومن سيقوم بتلك المهمة إذا لم أقم بها؟ أكيد سوف يعينون وحدة غيرى، هل أنا أقل من هؤلاء، اتركها لله.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة؛ فما كنت أخشاه بمفردى تبين لي أن قائد اللواء ومجموعة العمليات المساعدين له ينتابهم نفس الشعور لكن ما يشعرون به أكثر مني لأن لديهم معلومات أكثر مما لدى بحكم القيادة والأجهزة التي تعمل معهم، شعرت بأنني في سباق بين الجبن والتخاذل من جهة والشجاعة والإقدام من جهة أخرى، نفضت كل غبار سيء وصل إليّ من المساعد الذي يعمل بمكتب عمليات قيادة اللواء.

نشبت الحرب بضراوة وكانت وحدتي في طليعة العابرين والمحاربين والمقاتلين الذين أصابوا العدو إصابات شديدة كما أن وحدتي كانت الأكثر إصابة وشهادة ودموية وصل تأثيرها إلي حالي، كانت الخسائر بيننا كبيرة ومنظر الشهداء والجرحى يثير الألم والفزع لمن يراه، لقد مات البعض نتيجة الصدمة العصبية قبل أن يموت نتيجة الإصابة، كان يوماً مشهوداً بيننا ونحن في عمق المدرعات الإسرائيلية التي كانت تحوم حولنا وكأننا نسير في شارع مزدحم بالسيارات وتصب علينا نيران مدافعها الثقيلة ورشاشات أبراج الدبابات المهلكة.

من بقي علي قيد الحياة أخلي للخلف وأنا من بينهم، كان الكثير مصاباً ولم يستطع أحد إخلاءه للمستشفي إلا صباح اليوم التالي، كان النصر حليفاً لنا ولكن التضحية بالجملة كانت أيضاً من نصيبنا سواء من الشهداء أو الجرحى بنسبة كبيرة، أيضاً كان من نصيب وحدتي نسبة كبيرة في الأنواط التي منحها رئيس الجمهورية تعبيراً عن الشجاعة.

نقلت إلى مستشفي المعادي للقوات المسلحة وأثناء قيام الأطباء بإعدادى لدخول غرفة العمليات عدت بالذاكرة إلى ستة أعوام مضت، ستة أعوام بالتمام والكمال، هذا هو الموافق العاشر من أكتوبر عام ١٩٧٣ وهذا هو قسم جراحة المخ والأعصاب، وهذه هى مستشفي المعادي للقوات المسلحة، ما أشبه اليوم بالبارحة، يوم أن شاهدت مدحت ابن ماما وداد في نفس المستشفي وبنفس القسم وبنفس اليوم والشهر مع اختلاف العام؛ كان هذا فى عام ١٩٦٧ أى قبل ستة أعوام، لمعت في عيوني بارقة أمل بأن يعافيني الله من إصابتي ومحنتي تلك.

بعد عدة أيام من إجراء عدة جراحات شعرت بالإفاقة وتنبهت وقدمت لي يد المساعدة إحدي السيدات الكريمات التي كانت تحضر لزيارة مصابي العلميات، كانت السيدة الفنانة عزيزة حلمي والتى زودتها بأرقام تليفون ماما وداد وماما مارى، كنت في شغف لمشاهدة أى أم منهما كي تعوضن قصور أمي التي لم تستطع المجيء لزيارتي لظروفها الصحية.

اليوم التالي هلت عليّ طلعة ماما وداد؛ أمي الحبيبة الرقيقة التي التقت بى ودموعها تسيل وتبتسم أيضاً؛ انحنت تحتضنني، تربت علي كتفي بل قبلت جبهتي نظراً لإصابة رأسي الشديدة، توالي الأبناء مدحت ثم علا ودينا وزوجة مدحت، جلسوا بعض الوقت ينثرون عليّ كل كلمة طيبة أعجز عن ذكرها أو ترديدها لشدة عذوبتها، طلبت إدارة القسم إخلاء المكان لمرور الأطباء المعالجين، استأذنوا في المغادرة وقدموا لي وعداً بتكرار الزيارة.

بعد مغادرة الأطباء عادت الزيارة مرة ثانية وشاهدتها، أم الشهيد وليم أقبلت عليّ باشة سعيدة وجلست بجوارى علي حافة السرير راغبة بمسك يدى التي كانت مربوطة من الحروق الشديدة التي ألمت بى، صاحت فرحة، أخذت بتار أخوك وليم وباقي المصريين اللي عذبهم اليهود؟ خلاص

يا أسامة، بردت نارى علي فقد ابني حبيبي، بردت نار روز وعزيز لما يكبر ويعرف أن المصريين لم يتركوا الثار ولن يستكينوا أبداً، أقبلت روز مرحبة وتحيرت بأى مكان تصافح أو تهدهد لأن جزءاً كبيراً من جسدي مغطي بالشاش أو الجبس، عطرتني ببعض دموع من خلال عينيها الخضراوين الجميلتين وهي ضاحكة مبتسمة بأني قتلت بعض من حرموها وحرموا ابنها وحرموا أم الشهيد وليم من أن يكون بينهم، لقد وفقنا الله كي نرد عدوانهم وننتقم مما سببوه لنا.

ظلت زيارتهم لفترة حتي وصل المقدم عاطف شفيق شقيق وليم وزوجته مهنئين لي بالانتصار علي العدو، كانت ضحكات عاطف تدخل أنني كأنها قطعة موسيقية لموتسارت عبقرى الموسيقي الذى كتب أروع سيمفونية، غادرت الأسرة المستشفي، بعد أن أعيد إليّ الكثير من عافيتي بعد لقاء العائلتين رغم ما سبباه لي من إرهاق للمجهود أو الانفعالات المرحة الطيبة بأن تجد كل هذا الجمع من حولك مهنئين مقدمين كل تحية لما قمنا به خلال المعارك مع الأعداء حتى كلل الله مجهودنا بالنصر المبين.

بعد عدة أيام أقبلت أسرة عم عليوة، شعرت بنبض مصر الحقيقي شعرت بقلب أب الشهيد ممدوح وهو يدعو لي بالشفاء محاولا تقبيل جسدى لأنني بردت نار فراق ابنه وأخذت بثأره من فقده منذ أكثر من ستة أعوام تبارى كل من ابنه وسحر وزوجته في المديح والثناء علي ما قمنا به جلست سحر علي حافة السرير، أشاهد فيها مصر العفية؛ الفتاة الجميلة والتي اصطبغ لونها الخمرى بمياه النيل فأصبح هذا هو حاله اللون النيلي الجميل وخفة الدم والروح العالية وخصوبة النهر التي أودعها الله إلى بنات ونساء مصر.

شعرت بتحسن مطرد بحالتي الصحية مع مرور الأيام مع استمرار توالي الزيارات؛ خلال تلك الزيارات كانت علا تتحدث معي ولا فرق بين حديثها وحديث شقيقتها دينا، لم أعد أهتم فقدُ كنت علي شفا الموت المؤكد خلال الأسابيع الماضية، لا يجب عليّ أن أحمل نفسي فوق طاقتها ولأهتم بحالتي الصحية حتي أنهض ثانية لأكمل العمل الذى قمنا به منذ أكثر من ست سنوات منذ حرب عام ١٩٦٧ ولنترك مشاكل الحب والهجر جانباً فليس هذا هو مكانها وأن ما تفعله معي علا لنَ يقربني منها بل على العكس تماما فأنا مثل العصفور سوف أترك فرع شجرتك وأهاجر مرفرفاً لشجرة أخرى ترغب في استقبالي؛ أما إذا كنتِ توقعين عليّ عقوبة أو حكماً فهذا لن أقبله ولن أرضخ له ووداعا للحب وودعاً لتلك الفترة الجميلة التي قضيتها بين ربوع أسرتك.

•••

الأحداث تتوالي:

بعد أن قضيت حوالي الشهرين بمستشفي المعادى منحني الطبيب المعالج إجازة مرضية لمدة ثلاثة أشهر تتكرر تباعاً لمدة عام، غادرت المستشفي أستنشق عبير هواء النيل وأشاهد النور الذى يضيء بشرة المصريين، لقد كتب الله عليّ ألا أشاهد آثار ما يحدث لمصر خلال السنوات الست ونصف الماضية؛ لم أشاهد آثار النكسة علي شعب مصر مباشرة بل شاهدت بقايا البشر الهائمة علي وجوهها، لم أشاهد آثار وفاة زعيم مصر جمال عبدالناصر، لم أشاهد آثار نصر جيش مصر منذ شهرين أو يزيد، الحمد لله، قلتها بداخلي وأنا أتجول ببصرى من داخل التاكسي الذى ركبته من أمام مستشفي المعادى.

كان السائق ينظر إليّ من خلال المرآة محدثاً لي بعبارات جميلة ندية

كأنه شاعر يتغني لحبيبته، لم تلصق كلماته بفكرى، لكن معانيها التي بقت معي وكأنها مكافأة النصر من شعب مصر والتي قدمت لي من هذا الشاب الذي كان وكيلا لكل المصريين بأن يبلغ كل من شارك في صنع هذا النصر بهذه التعبيرات العفوية المنطلقة من الإحساس الداخلي دون تزييف أو تملق.

وصلت إلي محطة الأتوبيس الذى سوف يقلني إلي بلدتي بالزقازيق أسرع السائق بمد يد العون لي رغم أنني كنت أشعر بأنني بحالة طيبة لكني اعتقدت أنه قام بهذا حينما شاهد رأسي يحيط بها الشاش الطبي وأيضا يداى، شكرته وأخبرته بأنني أستطيع القيام بهذا، ابتسم مداعباً" يعني عايز تحرمني من أن أمسك دراعك اللي حارب وأشاهد البطل اللي انتصر وأشم رائحة النصر من أنفاسك العطرة!!"

نظرت إليه وقلت يا الله؛ لقد فتح باب النصر الإلهام والبلاغة عند المصريين، سبحانه قادر علي كل شيء، أسرع أحد موظفي محطة الأتوبيس بإحضار تذكرة وقدمها لي، هممت بأن أقدم ثمنها فرفض قائلاً: هذا أقل شيء نقدمه لأحد أبطالنا، تبعه سائق التاكسي حينما ناولته مبلغاً من المال، حاولت إقناعه وأخبرته بأنه قطع مسافة كبيرة من المعادى حتي ميدان رمسيس، ابتسم معلقاً:

- البطل مستنال بيا، يا بطل أنا كنت مروح بيتي لأني شغال من الفجر ودلوقتي العصر، والله لما شفت حضرتك قلت لازم أوصلك لبيتك، أقول لك حاجة؛ سيب التذكرة دية وأنا أوصلك الشرقية، دا أنا ابن بلد، إيه شوية فلوس قدام تضحياتكم الغالية.

رفع صوته بنداء، (عظيمة يا مصر) فهلل من خلفه سواء من الباعة أو بعض المسافرين، هكذا وجدت الرعاية والعناية تحيط بى حتي وصلت

إلي مدينة الزقازيق، مجرد توقف الأتوبيس تسابق ممن كانوا معي، أحدهم أوقف تاكسي وآخران قفزا بداخل التاكسي حتي ينالا شرف توصيلي إلي منزلي، سمعت وداع الرجال والنساء والتاكسي يغادر المكان، كادت دموعي تتفطر ثانية من هذا الشعور الجميل لأبناء مصر.

وصل التاكسي إلي الشارع وتوقف أمام العمارة التي بها شقة والدى هبط الشابان يقدمان يد المساعدة، شاهدهما عم محمد البقال فأسرع بترك التموين الذي يتولى صرفه للناس وأقبل مسرعاً لاستقبالي والترحيب بى مقبلاً وجهي مقدماً كل عذر بعدم استطاعته زيارتي بالمستشفي، تركت بعض النساء عبوات التموين وأسرعن ناحيتي وهن يقدمن كل كلمات طيبة مع إعلان أسرتي بتمام وصولي ببعض الزغاريد المفرحة، أطل بعض الجيران فقابلوا المهنئات بنفس الصنيع وأصبحت زغاريد الفرحة تتصاعد من أسفل لأعلى وتهبط من أعلى لأسفل.

هكذا عدت إلى أسرتي ومن خلالهم شعرت بأعظم استقبال مؤثر خاصة أمي التي لم تستطع زيارتي سوى مرة واحدة نظراً لظروفها الصحية وعدم مقدرتها علي السير، توالت الأيام ومازال نبأ عودتي يصل إلي الأحباء فيقبل عليّ البعض للزيارة، شعرت بعدم مقدرة علي مواصلة الحديث رغم أنني كنت أنام حين الزيارة، فقد أوصاني الطبيب بهذا وألا أرهق نفسي حتي يتم التئام العظام المكسورة والجروح والحفاظ علي الجلد الحي الذي بدأ يتكون علي كفي يدى بالإضافة إلى المحافظة على رأسي من أية صدمات أو برودة شديدة او التعرض لأشعة الشمس المباشرة حماية لي من آثار العملية التي تركت فراغاً بعظام الرأس.

مضى حوالي شهران منذ عودتي من المستشفي، أحد الأيام أبلغت تليفونياً من تليفون عم قرني بائع الجرائد بوفاة عم عليوة، تحاملت على

نفسي وتوجهت لتقديم واجب العزاء بين محاولة أبي وأمي منعي من هذا لكني صممت، حضرت مراسم دفن الرجل، كانت أسرته تبكي دموعاً بينما كان قلبي يبكي دماً وألماً، لم يشاهده أحد يوم لقائي به في مدينة بورسعيد يوم الخامس من شهر يوليو عام ١٩٦٧ باكيا فقد ابنه، كان لقاء مؤثراً ومازال نحيبه على فقد ابنه الأكبر ممدوح يطن بإذني.

عدت بعد هذا الحدث حزيناً يائساً، انفض مولد الحرب والتهاني وانشغل الناس بحياتهم، لم يمض أسبوعان إلا وعلمت بوفاة العقيد عاطف شفيق شقيق البطل وليم شفيق، كنت غير قادر علي تحمل تلك الصدمة عاطف كان يمثل لي شيئاً عظيماً، لقد انتشلني من سوء المعاملة بقسم شرطة الوايلي وصفح عني وقدم لى الطعام والشراب، عاطف من قدم قرضاً مالياً وأنا الذى لم أكن أملك مليماً واحداً، عاطف من عاونني لمعرفة اسم وعنوان ماما وداد، عاطف الذى كان يحنو عليّ أثناء علاجي بعد الحرب، كان عاطف روحاً طيبة تمير علي قدمين، كان عاطف كما قالت روز زوجة أخيه قديساً فإذا كان وليم بطلا فإن عاطف قديساً.

شعرت بظلمة الحياة تعود ثانية، تركت القيادة وتدريب الجنود والعمل وأصبحت قليل الحركة خشية علي الإصابات المتعددة التي لحقت بى مازلت مبتعداً عن أسرة ماما وداد، جاءت مكالمة لي من ماما وداد تلقاها عم قرني، وأقبل يزفها إليّ ومعه جريدة هذا اليوم كهدية:

. وداد هانم باعته لحضرتك السلام ويقول يوم الخميس خطوبة أختك علا ومتنساش تيجي بدرى، أنت صاحب بيت، مال عليّ قرنى متسائلاً: لا مؤاخذة ؛هو عم علي "يقصد والدي" مجوز واحدة تانية غير الست والدتك؟

ابتسمت وشرحت له ما تعنيه تلك الجملة، أسعده هذا مقدماً التعبيرات المناسبة من ألف مبروك و عقبالك، هكذا انتهي فصل الحب والهجر

والخصام والكره بيني وبين علا، رغم سعادتي بنهاية تلك المشكلة فقد شعرت بتعاسة من هذا الخبر، لقد ضاعت مني تلك الحسناء الراقية وما يعقبها من فقد أم لن أقابل مثلها.

منتصف شهر فبراير من عام ١٩٧٤ ارتديت بدلة شتوى واتجهت قبل الظهر إلي فيلا دينا، كانت الظواهر تدل علي الحدث من زينات معلقة وباب الفيلا الخارجي مفتوحاً علي مصراعيه، استقبلني البواب وتبعته فكيهة زوجته التي صافحتني واندفعت في البكاء فطلب منها زوجها عدم فعل هذا نظرت إليّ كأنها تخبرني: ليه ده حصل؟ مش كان المفروض أنت تبقي العريس اللي ح نحتفل بيه النهاردة.

لم أكن في وضع يسمح لي بالمناقشة، أسرعت من أمامها، ودخلت الفيلا فاستقبلتني دينا بفرحة عارمة وأطلقت صيحتها الفرحة المرحة تعلم لمن يهمه الأمر بقدومي مكررة: "ماما .. أسامة وصل" وكأن ما وصل هو العريس؛ أسرعت ماما وداد بالحضور والدموع تملأ عيونها، التقينا لقاء الأحباء واحتضنتها بقوة وبكت كثيراً علي كتفي وتبعتها والتف العديد من الفتيات من حولي وتبين لي فيما بعد بأنهن صديقات علا، كن يعلمن بقصة الحب التي تنمو يوماً بعد يوم ولم يشاهدنني قبل هذا؛ علقت إحداهن بصوت مسموع " خسارة يروح منك يا علا".

استقبلني مدحت وزوجته سعاد وأعد الطعام وتناولته مع بعض صديقات علا التي لم أشاهدها، كنت في حالة من التوقع بأن تتصرف معي تصرفا غير ملائم، لكن ما شعرت به من العائلة أو من الصديقات جعلني أترك كل تلك التوقعات جانباً رغم أنني كنت أشاهد بعض صديقات علا ينظرن إليّ نظرات غير محببة أو طيبة.

بعد الانتهاء من الغداء وأثناء شرب الشاى أقبلت فكيهة ودنت من أذني

وأخبرتني بأن الست علا في انتظارك في حجرة المكتب، أدهشني هذا نهضت أتبعها وفتحت حجرة المكتب فشاهدتها تقف ترتدى فستانا جميلا يظهر جمال وفتنة تلك العروس، كانت تنقر بأصبع يدها على حافة المكتب، شعرت أنها في حالة مزاجية غير طبيعية وبالأخص حينما سمعت صوتها حاداً قوياً يأمر فكيهة بغلق الحجرة وعدم السماح لأحد بالدخول.

لم أفكر فيما سوف يحدث لكن كل ما شاهدته وسمعته وشعرت به جعلني في حالة من الخوف أو الخشية بأن تتصرف معي تصرفاً حاداً وسيئاً ثم عاودني الهدوء بعد غلق باب حجرة المكتب ومصافحتها لي طالبة مني الجلوس لأنها راغبة في الحديث معي، نفذت ما طلبت دون أن أقدم لها التهنئة بهذا الحدث، نظرت إليّ نظرتها الفاحصة التي أعلمها عنها واقتربت عيونها من وجهي تحدق في عيوني ثم قالت:

- ليه عملت كده معايا؟ حبيتك ، شوف بأقولها بالفم المليان حبيتك وأنت مقدرتش حبي ده، كنت عايزه أعملك أحسن حاجه فى الدنيا وأفرحك، عمرك ما طلبت حاجة مني وأنا رفضتها بل كنت أنا وماما اللي نعرض عليك الخروج والفسحة، أنت إنسان مغرور ونرجعي مش بتحب إلا ذاتك، تعرف أسوأ حاجة عملتها في حياتي إني حبيتك، كنت فاكرة إنك مش ح تحبني بس لكن تتمني أنك تحلم وتتجوزني لكن تهين كرامتي كده وترفضني بالشكل ده يبقي أنت إنسان مش بتقدر الناس اللي حبتك وسلمتك قلبها ماما استضافتك في البيت الخمس سنين اللي فاتت وقاعد مع بنتين ووثقنا فيك، صحيح ما ظهرش حاجة منك وحشة لكن ظهرت أخلاقك الوحشة لما سلمتك قلبي.

مش بترد ليه؟ مش عارف ترد وإلا لسه مغرور، أنت فاكر نفسك مين؟ والله يا أسامة لولا إني متربية وأنت في بيتنا لكنت لطشتك قلمين عشان

تفوق لنفسك، عارف نفسي في إيه، نفسي أقولك غور من الفيلا ومش عايزه أشوف وشك تاني لكن أنا عارفه أن ماما ودينا ح يزعلوا

***

لم أتحرك ولكن الكلام كان مثل السهام، كان قاسياً علي شخصي مؤلماً لأقصي درجة، لم أكن أتوقع سماع مثل تلك التعبيرات، تجربة حب وفشلت إيه المشكلة، شاهدتها ممسكة بالجرفت كأنها تحاول أن تخرجني من الحجرة، فجأة أقبلت دينا فشاهدت هذا المنظر أغلقت الباب بسرعة وصرخت باكية لما شاهدته وسماعها لصوتها المرتفع من خارج الحجرة.

في تلك اللحظة انسابت دموعي، لقد شعرت بأن ماما وداد دعتني لتلك المناسبة كي يقتصوا مني ولكن سلوك دينا أزال كل هذا، ألقت دينا بنفسها عليّ محتضنة باكية تهدهد علي ظهرى تتحدث بكلمات تدل علي الاعتذار وحبهم لي، أقبلت ماما وداد، شاهدت علا تقف مثل النمر الجسور حانقة ودينا تهدهد عليّ ومازالت محتضنة إياى، دفعت دينا بهدوء ونظرت إليّ نظرة لا أعرف وصفها، نظرة الأم التي شاهدت أحد أبنائها في محنة أمسكت بيدىّ ورفعتهما لأعلي قليلا محاولة تقبيلهما لكني تنبهت بسرعة وسحبت يدىّ وجثوت أرضاً أقبل يديها كما جثت دينا بجوارى تقبل يد الأم الطيبة التي كنا نسمع صوت بكائها مما دفع بعلا للبكاء، وحذت حذونا وأصبحنا نحن الثلاثة نبكي ونقبل يدها والسيدة مازالت واقفة باكية.

شعرنا بأنها لا تستطيع الوقوف، نهضنا وأجلسناها وأحطنا بها والفتيات يجففن دموعها، لم تنظر إليهن لكنها مازالت تنظر ناحيتي ويديها الرقيقتين جففت دموعي السابحة، تنبهت بأن تلك السيدة قد تمرض وأنا الذى شاهدتها منذ أكثر من سبع سنوات حينما قابلتها لأول مرة باكية على فقد ابنها مدحت، أسرعت بالتماسك وأخرجت منديل يدى وجففت دموعها

وحدثتها:

. ليه بتعيطى في يوم جميل زى النهارده؛ نظرت إلى علا:

. مش كنت فاكره ح ييجي يوم وأشوف حد من ولادى يزعلك وكمان دموعك تنزل، أنت اللي فرحتنا ونورت بيتنا بحضورك وحضور مدحت، كده يا علا تعملي في أسامة كده، ده اللي قلت لك عليه امبارح، اوعي يا علا تزعلى أسامة، خسرناه عريس يفضل ابن وحبيب، بكده ح نفقده ابن وأنا مش أقدر أنه يبعد عني؛ كفايه الشهور اللي فاتت؛ ارجوكى يا علا بلاش قسوة، حرام .....

أقبلت علا علي ماما وداد تقبل يدها مقدمة اعتذارها فأشارت ماما وداد ناحيتي، توقفت علا وأقبلت ناحيتي فاضطررت للوقوف صافحتني باسمة ثم ألقت بصدرها على صدرى باكية، لحظتها شعرت بأن الفتاة تعشقني، لقد ارتكبت خطأ كبيرا بترك أذني لهذا المجنون الذي أساء سمعتها أمامي، ماذا أفعل يارب؟ أصرخ وأقول أنا العريس، تنبهت بأن توقفت علا وهى تقول:

. أسامة، كل حاجة قسمة ونصيب، أنت أخويا، مش كده؟ حركت رأسي بما يعني أيوه، طلبت مني كأخ أن أقدم التهنئة لها، تحركت قليلا حتي كدت أن ألتصق بها، وقبلت مقدمة رأسها ثم الخد الأيمن والأيسر ابتسمت تردد .. ربنا يخليك لنا .. ربنا يخليك لنا، أسرعت بترك المكان باكية وأسرعت دينا في أثرها، جلست بجوار ماما وداد التي حدثتني في موضوعات أخري ثم حدثتني عن عريس علا زميلها فى العمل.

جلست علا بجوار خطيبها بين فرحة الأهل والصديقات، كان الشاب وسيماً هادئاً وعلمت من دينا أنه حاصل على ماجستير في الكيمياء ويعمل بمنصب رفيع بالشركة، أى أنه خريج كلية العلوم التي تخرجت منها علا

وأعتقد أن الشاب يكبرني بعدة أعوام.

أقبلت دينا تخبرني بأن علا متجهمة وحزينة من تصرفها معي وطالبتني بأن أتوجه إليهما وأبارك الخطبة وأحدثها ببعض تعليقات كانت تبهجها وتشعرها بالسعادة فتضحك لهذا ظلت تشجعني وتدفعني حتي صعدت وصافحت العريس وباركت له الخطبة؛ قامت علا بالتعارف بيننا ابتسم العريس قائلاً كنت أود مشاهدتك مما قيل لي عنك فأنت فعلا شقيق عظيم وأنا سعيد بهذا، لم اتركهم إلا والسعادة مرسومة على وجوه الجميع وشعرت أن عبئا ثقيلا رفع من علي كتفي.

أشارت إليّ علا بالعودة ومحادثة خطيبها بأنني سأخبره بشيء يدفعه للضحك، ابتسم العريس قبل أن أخبره، قلت: اسمع ياباش مهندس، الحكاية كنا ماشيين أنا وعلا ودينا في ميدان العتبة، شفت يافطة متعلقة علي مبني قرأت اليافطة بصوت مسموع لشقيقاتي علا ودينا بتقول اليافطة " لو .. كان ده .. للبيع" نظر إليّ العريس بدهشة متسائلاً: هو إيه اللي كان معروض للبيع؟ ضحكت علا وأخبرته بأن المعروض للبيع لوكانده ولكن أسامة فصص الكلمات ، عند هذا ضحك الرجل وضحكنا نحن الأربعة مما أدخل البهجة إلى قلب ماما وداد ونهضت تشكرني وتشبعني بكلمات الحب الأموي الذي لا أنساه أبداً.

انتهي يوم الخطبة وتركتهم رغم محاولة الجميع أن نستعيد الأيام السابقة والماضية التي خلت ببقائي ولو ليلة واحدة، اعتذرت لهم وكررت التهنئة للجميع ورافقتني علا حتي باب الفيلا الخارجي وأمسكت يدىَّ بكلتا يديها متسائلة:

. لمه زعلان مني؟ الأخوات بيتخانقوا

. أبدا، زوبعة وعدت والحمد لله ورينا يبارك في هشام وتسعدوا

. يعني لما أجوز، ح تيجي تزرني زى ما بتزور مدحت؟
. مش عارف يا علا؛ فيه فرق بينك وبين مدحت
. أسامة؛ أنا أولي من مدحت، مدحت راجل؛ أنا عايزه يكون ليا اخين بدل واحد .. هززت رأسي
. حاضر يا علا .. من عينيَّ الاتنين
. تسلم عينيك

هكذا فككت يدي من يديها وكنت راغباً بأن تظل ممسكة بها خشية ضياعها وفقدها لكن الحقيقة أنها ضاعت مني، أسرعت في طريقي عائداً للزقازيق كي أنفرد بنفسي، جلست بالقطار وكانت الساعة العاشرة والنصف الديوان لم يكن به أحد سواى فدرجة الحرارة منخفضة والوقت متأخر، مازال رنين صوتها يتردد صداه بأذني:

" ليه عملت كده معايا ، حبيتك ، شوف بأقولها بالفم المليان حبيتك يا ..... إلخ

شعرت أن درجة الحرارة مرتفعة وفككت ربطة الجرافت وفتحت زجاج الشباك قليلا كي يدخل الهواء المنعش وأنا أردد: *" يا نهار أبيض كل ده قولتيه يا علا ، دا أنا راجل فهمي بطيء ، إزاي أفضل ساكت وما بأردش عليها ، إزاي ، إزاي أفضل موجود لنهاية الحفل ، إزاي "* كادت دموع الحزن تعود فتذكرت الأم الطيبة التي تقدم بها العمر، وأصبحت مثل ضيف الشرف في الأفلام المصرية ، يوضع اسمه في آخر العمل ويجلس ينتظر النجوم الذين هم في عمر أبنائه، نعم ماما وداد أصبحت مثل ضيف الشرف لكني أعتبرك النجمة الأولي والوحيدة ولولا إنني أحبك وأقدرك لكنت أهنت علا ولكن الحمد لله إنني لم أفعل هذا، عاد إليّ بعض الهدوء بأن علا أنبت نفسها، واعتذرت وكما يقول المثل عشان الورد يتسقي العليق

عشانك يا ماما وداد فقد غفرت للعليق.

عليق !! كل هذا الجمال وتلك الفتنةُ عليق، لا؛ فعلا علا وردة بنت وردة وضاعت مني سواء عن جهل أو أن الموقف كان أكبر من طاقتي علي التحمل، وعلي كل حال فقد غادرت الفيلا وأنا أحمل كل حب لهم وهم أيضًا يبادلونني الحب بأكثر مما قدمته لهم.

سارت بى الحياة علي درب واحد لا يتغير طوال عام ١٩٧٤، فقد منحت إجازات مرضية طويلة؛ بداية كل شهر أتوجه لمستشفي المعادي للفحص وصرف حصة دواء لاستكمال العلاج ثم العودة والجلوس بالمنزل وقراءة الجرائد وسماع الراديو أو مشاهدة التليفزيون، في بعض الأحيان يقبل أصدقائي لزيارتي ونتمتع معاً ببعض الأحاديث أو الخروج والتنزه في المساء بالمدينة وبأحيائها الهادئة.

قطع هذا السكون اتصال من مدحت يطمئن فيه علي حالي ويخبرني بأن زفافُ علا سوف يتم الأسبوع بعد القادم، موعد الزفاف قبل نهاية شهر ديسمبر من عام ١٩٧٤، وأكد علي حضورى هذا الحفل وتأكيداً من والدته السيدة وداد أو "ماما وداد" قدمت له التهنئة مؤكداً في حديثي بالحضور كانت أمي رافضة هذا اللقاء حرصاً على حالتي الصحية لكني كنت تواقاً للخروج من شرنقة الانطواء التي لازمتني عشرة أشهر على الأقل.

صباح يوم زفاف علا سافرت إلى القاهرة وقمت بزيارة ماما ماري وروز اللتين كانتا في ضيق من تباعدى عنهما، لقد أصبحتا وحيدتان دون رجل يشد من أزرهن بعد وفاة عاطف، قدمت لهما اعتذارى نظراً لظروفي الصحية وبعد أن أمضيت معهما ساعتين غادرت المنزل متجهاً لزيارة أسرة عم عليوة بحي القلعة، استقبلتني الأسرة بالفرحة العارمة والسعادة البالغة وكأنني شخصية مهمة بالدولة مما لفت أنظار بعض الجيران الذين أقبلوا مصافحين مرحبين بوصولي لزيارة أسرتي.

تناولت معهم طعام الغداء وخلال الفترة التي قضيتها أخبرتني سحر

بأن شاباً تقدم يطلب يدها، وهي وأمها تشعران بأنه مناسب وترغب في معرفة الرأي الخاص بي، قدمت تهنئتي على قدوم هذا الشاب بطلب يدها وأنني أشعر بأنه مناسب لكل ما أخبرتني به من معلومات.

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء تحدثت سحر مع أمها بما دار بيننا من حديث وأسعدها هذا طالبة مني الحضور في موعد حددته لي لقراءة الفاتحة، رحبت بهذا وبعد أن طال الحديث وتعدى موعد العشاء غادرت المنزل متجهاً لأحد النوادي المطلة علي النيل لحضور حفل زفاف علا.

التقيت بماما وداد ثم مدحت وديناء كانت السعادة والسرور هو حالهم كان الاحتفال يغص بالمدعوين من الجانبين ولهذا تواريت بعيداً عن العيون، شاهدت علا تجلس بجوار عريسها هشام كالبدر المنير، دعوت الله بأن يبارك هذا الزواج وأن يرزقهما بالذرية الصالحة، مردداً: لن أنسي كل ما قامت به تلك العائلة من لملمة جراحي أثر هزيمة عام ١٩٦٧.

تسللت خارج النادى عائداً إلي الزقازيق دون أن أقدم التهنئة للعروس أو العريس خشية أن يتكرر ما سبق في حفل الخطوبة فقد شعرت أن مجرد ظهورى يبدد سعادة علا ويجعلها متبرمة مني ويدفعها لسلوك لا أتوقعه منها أو من أحد أفراد أسرتها رغم مخالفة توقعي هذا لطبيعة تلك الأسرة الطيبة العريقة.

***

في الموعد المحدد سلفاً حضرت قراءة الفاتحة للعروس الرقيقة سحر وبعدها بعدة أشهر تم الزواج والزفاف وخلال تلك الفترة كانت سحر تدفعني ووالدتها لأن أبدأ حياتي الاجتماعية بعيداً عن علا وما تصرفت به معي حينما أخبرتهما يوم زفاف علا بتصرفها القاسي معي يوم الخطبة وأنني مرتبك وأخشى حدوث ما سبق حدوثه منها.

لم يمض عدة أشهر إلا وأخبرني أبي بتعارفه علي مدير الزراعة والذى علم من حديث المتواتر بينهما بأن لديه فتاة تدرس بجامعة الزقازيق وزوده باسمها واسم الكلية، دفعت بى أمي لمحاولة التعرف علي أخبار تلك الفتاة وإذا نالت وحازت القبول فلنكمل مشوار الارتباط حتي تصبح عريساً ونحتفل بك ونسعد معك.

كأنما كانت الأقدار تساعدني وتدفع بى نحو هذا الارتباط، شاهدت العروس وأعجبني سلوكها وتصرفها، كنت أعتقد بأن هذا الزواج سيتم بأسلوب تقليدى لا مجال فيه للحب والعاطفة، لكن من غرائب الأمور اننى شعرت بحب نحو تلك الفتاة لا يقل عن حبى لكل من نورهان وعلا، كنت أعتقد أن عقلى وفكرى قد أصابه الوهن بعد الإصابة التى لحقت بى؛ لكن تبين لي فيما بعد بأنه مازال يعمل بكفاءة أحسد عليها.

هكذا تحول الزواج التقليدى إلى زواج عن حب واقتناع وهذا شيء هام ومحورى في تكوين أسرة، الحمد لله بعد زواج دام طويلا أشعر بأن الله وفقني في اختيار شريكة حياتي والأقدار توجه الإنسان ونحن لا نعلم عن هذا إلا القليل.

تم الزواج أثناء الإجازة الدراسية بالجامعة بين السنة الثالثة والرابعة وسارت بى الحياة سيرها المعتاد، عدت إلي عمل إداري قريبا من مدينة الزقازيق كما حملت زوجتي، أنجبت ابنتي الأولي قبل الامتحان العملي الذى يعقد آخر العام؛ بعدها أنهت دراستها وتخرجت وأصبحت أباً وقبلها بعام زوجاً والحمد لله.

أحد الأيام طلبت من زوجتي أن نقوم بزيارة القاهرة لزيارة إنسانة عزيزة عليّ جداً، وافقت وقبل الموعد المحدد اتصل بى مدحت وأخبرني بأن زفاف دينا سوف يعقد الخميس القادم، أبلغته بفرحتي وتهنئتي علي هذا وسوف

أحضر برفقة زوجتي ودهش لهذا، لم يعلم أحد من أسرته بهذا ولم أبلغهم عاتبني مدحت وقدمت له اعتذارى، في الموعد تركت طفلتي في رعاية جدتها وسافرت بصحبة زوجتي والتقيت بأسرة ماما وداد التي رحبت بزوجتي كثيراً وأقبلت علا وصافحتها ودار حديث طيب بينهن وحذت دينا حذوهما وسعاد زوجة مدحت، انتهي حفل زفاف دينا وعدت مع زوجتي بنفس الليلة؛ أشادت زوجتى بتلك الأسرة وبالرابطة التي تربطني بهم وأخبرتني بأن كلاً من علا ودينا طلبت منها أن تحافظ عليّ وأن أسامة هو أخانا ونقدره حق قدره ونرغب في تكرار الزيارة مرات عديدة.

هكذا أصبحت رب أسرة وبعد هذا بثلاثة أعوام أنجبت زوجتي الطفل الثاني وخلال تلك الفترة رقيت إلى رتبة المقدم ثم بعدها بأربعة أعوام أقبل الطفل الثالث، سارت الأمور علي حالها كما عقدت العزم علي الهجرة للولايات المتحدة حين جاءت إليّ فرصة لهذا الغرض وأنهيت بهدوء خدمتي بالقوات المسلحة بعد أن رقيت إلى رتبة العقيد، خلال فترة الانتظار للسفر اشتريت قطعة أرض صحراوية بغرض الزراعة أبثها حبي وشوقي لهذا النشاط الذى نبت معي منذ صغرى لما بثه والدى فى حب الزراعة؛ رحمه الله.

حملت أسرتي واتجهت إلي بلاد العم سام، حياة جديدة وأخلاق وسلوك مختلف وطباع بشر تخالف طبائع المصريين ولغة مخالفة، كل شيء مخالف، شعرت أنني أعيش في كوكب آخر لكني تأقلمت سريعاً مع أسلوب حياتهم، ويرجع الفضل الأول في هذا لحياتي العسكرية المنضبطة حيث المجتمع الأمريكي عبارة عن معسكر مفتوح دون زى موحد لكن يحكمه القانون الشديد والعمل الجاد.

كانت الأسرة تحقق نجاحاً كل عام سواء في دراسة الأبناء أو في العمل

الذى أتقلده أو عمل زوجتي والتي لها خبرة فيه مخالفة لما عليه حالي؛ فلم يكن لدى خبرة بهذا العمل ولا علاقة له بعملي السابق فأنا رجل عسكرى لكن بالمجهود والمثابرة حققت الكثير من النجاحات، بعد عامين التحقت ابنتي الكبرى بالجامعة وبعدها بعامين التحق ابني بالجامعة وبعد أن تخرجت الكبرى التحقت الصغرى بالجامعة وخلال تلك الفترة حدثت أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة وتدمير برجيّ التجارة العالمي بنيويورك، انقلب الحال وأصبحنا شبه معزولين ومطاردين، ضيقت علينا الأعمال، أصبحنا مهددين في بيوتنا وأرزاقنا.

خلال تلك الفترة كنت أحصل علي إجازات أقضيها بالقاهرة مع أبنائي كي يشبوا علي حب الوطن ولا ينسوه مثل ما كنت أشاهد الكثير من أبناء المصريين الذين هاجروا لأمريكا وهجروا وطنهم للأبد، كنت ميالا بالعودة لمصر بل كنت متأكداً بأن لو العمر امتد بى وتخرجت صغرى بناتي لعدت على الفور إلى مصر الحبيبة.

أثناء زيارة قمت بها مع أسرتي للقاهرة قمت بزيارة اللواء مدحت أقدم له التعازى في وفاة ماما وداد، وأقدم له التهنئة المتأخرة بترقيته إلى رتبة لواء منذ أربع سنوات وإحالته علي التقاعد منذ شهر تقريباً، جلست معه جلسة طيبة نثرت علينا خلال هذا اللقاء ظلال حنان وحب ماما وداد طلب مني أن أتناول مع إخوته طعام الغداء، ألح الرجل وأضاف كي تقدم لهن التعازي في الأم، وافقته وحددت له موعداً نهاية الأسبوع نظراً لأنه يوم جمعة إجازة رسمية، تقرر هذا وسوف يقوم بالاتصال بشقيقتيه لهذا اللقاء المهم.

في الموعد والوقت المحدد توجهت إلي منزل مدحت لتناول الطعام مع أسرة الراحلة ماما وداد، كنت أتابع مدحت وأعود بذاكرتي إلي عام ١٩٦٧ حينما كان مريضاً طريح الفراش بمستشفي المعادي لا يعلم من أمره شيئاً

يردد أية كلمة يسمعها مثل الأطفال الصغار؛ نظرت إليه وإلي زوجته الرقيقة الجميلة سعاد وأردد " سبحان الله " كان يحيط به ابنتاه "تسرين ونرمين" كانتا مثالا للجمال والرقة وقد حصلتا على كنز الجمال من الأسرة سواء من الجدة وداد أو من العمتين علا ودينا أو من الأم سعاد.

أقبلت دينا ومجرد أن شاهدتني نظرت إليّ مليا ثم إلي شقيقها، كانت بمفردها، اندفعت نحوى ولم تصافحني بل احتضنتني وتردد " الله يرحمك يا ماما .. الله يرحمك يا ماما " ثم بكت قليلاً وعادت للسكون ومازالت ممسكة بيدى بل وجلست مجاورة لي ومازال مدحت ضاحكاً من تصرف شقيقته حتي بعد أن تزوجت وأنجبت، دار حديث بيننا وفيه أثنت دينا على احتفاظي بشبابي وحيويتي وبالطبع استفسرت عن حال أسرتي.

قطع الحديث وصول السيدة علا؛ أقبلت علينا كما هي، شامخة تعتد بنفسها ويسبقها الرقيقة تسبقها ورائحتها الندية من حولها؛ نهضت كي أصافحها؛ توقفت أمامي ثم بسطت يدها مرحبة دون مصافحة وجلست أمامي ترمقني بنظرات هادئة بعيدة كل البعد عن تصرف دينا، مازالت هادئة تحاول استنتاج السر الذي دفعني لتلك الزيارة، لم نتبادل الحديث أصابني الحرج من نظراتها المسلطة عليّ مباشرة، نظرت جهة مدحت ودينا والذى بدى عليهما الضيق من سلوك علا.

لا أعلم كيف عادت بى الذاكرة لأول لقاء تم بيننا حينما توجهت أخبرهم بالعثور علي مدحت ونفورها مني ومهاجمتها لي بضراوة مهددة بإبلاغ البوليس، كانت نفس النظرة الصامتة المتوعدة، اعتقدت أن سبب هذا حزنها على وفاة زوجها، قطع مدحت الصمت بأن طلب مني مرافقته لحجرة المكتب كي يطلعني على بعض الأشياء، تبعته وأنا أتعثر في خطواتي وأكاد أتفجر غيظاً من تلك السيدة؛ وصلنا لغرفة المكتب وأغلق الباب وقال:

- أسامة: لا تغضب من علا، لقد كانت مفتونة بك وهذا لم أعلمه إلا بعد زواجها وزواجك، زوجها هشام رحمه الله كان رجل هادئ لكنه لا يشبع غرورها حيث إنها دائبة النشاط والضحك وهو صامت وكل ما يشغله عمله ولا شيء آخر، فهذا كل طموحه ونسي أو تناسي أنه متزوج وأن لديه بنات وزوجة ترنو للملاطفة والمحادثة والخروج والتمتع بمباهج الحياة؛ كلما ازداد دخلهما ازداد تقتيراً كي يبتاع قطعة أرض يشيد عليها عمارة؛ أهدافه مادية وأهدافها معنوية؛ لذا لم يلتق الزوجان ومن أجل هذا تعتقد علا أنك هدمت معبدها الذى شيدته بأحلامها ومن أجل هذا تعتبرك المذنب فيما حدث لها وهذا اعتقاد خاطئ ومن أجل هذا أرجو أن تغفر لها كل ضيق؛ فأنت قبل كل شيء أخ عزيز علينا وحينما تعرفنا عليك كان تعارف الإخوة وليس تعارف النسب.

أقبلت سعاد زوجة مدحت تخبرنا بأن المائدة معدة، هيا لتناول الطعام، توجهنا إلى المائدة وتعمدت الجلوس بجوار علا، مما أدهشها؛ بل كنت أغرف لها الطعام في الطبق الخاص بها وأشير لبعض الأصناف أقدمها لها، بدأت الابتسامة تتفرج وبدأت شفتاها الرقيقتان تظهران البسمة التي كنت أتطلع إليها، كنت أراقب مدحت الذى كان بادياً عليه السعادة.

انتهى تناول الطعام مع أخوتي وأحبائي، انتهي مع أبناء السيدة الراحلة التي احتوتني بحبها وحنانها وعطفها وكلماتها الساحرة الطيبة، كلما تذكرت ما كنت أعانيه بعد حرب عام ١٩٦٧ وخروجي من تلك المحنة دون مرض نفسي عضال كنت أشكر الله أولا ثم ماما وداد وأخيراً صديقي عادل دعبس زميلي بالوحدة العسكرية الذى كان دائماً ما يمسك بيدى لنخرج معا يبثني الأحاديث الضاحكة المرحة، كنت مثل شخص أجنبي لا يعرف شيئاً عن المكان الذي هبط إليه، وفجأة شاهد أحد أبناء تلك المنطقة يجيد لغته ويقدم

لـه كل عون ومشورة ليسهل عليه الحياة الصعبة، دائماً ما أدعو للاثنان ماما وداد بالرحمة وزميلي اللواء عادل دعبس بأن يكرمه في صحته وأبنائه.

انـشغلت النـساء بـداخل الـشقة سـواء بترتيـب المطـبخ أو بإعـداد مشروب لنا، شاهدت علا قادمة والبسمة على وجهها؛ جلست أمامي مباشرة ومدت إليّ يديها مصافحة ثم نهضت وأمسكت بيدي وسارت حتي وقفنا بشرفة الشقة المطلة على النيل العظيم، استندت بظهرها علي سور الشرفة وحدثتني بكل ذوق وأدب؛ طلبت منى ألا يصيبني الضجر من تصرفاتها لإنها في حالة من الضيق بسبب العمل والأبناء، لم تذكر حالة زوجها ولم أندفع للسؤال فهذا شأن خاص بها وإذا كان مدحت تطوع فأخبرني فهو يعلم قيمتي المعنوية والأدبية لدي أسرته وبالأخص لدى الراحلة ماما وداد.

طـال الحديث بيننـا؛ أحضرت إلينا دينـا مشروب وطلبت منا أن نظل بالشرفة حتي يعيدوا تهذيب وترتيب غرفة الصالون والسفرة، أعتقد أن تلك إحدى الوسائل التي تدفعنا للمصالحة والتحدث على إنفراد، أثناء حديثي مع علا شاهدت بعض دموع بعينيها سرعان ما تخلصت منها بمنديلها وعادت للحديث، شـاهدت نظراتـى مازالـت مسلطة علـى وجههـا الرقيـق؛ ابتـسمت متسائلة: "بتشبه عليا" ؟ ضـحكت لحديثها وأخبرتها بـأن الإنسان لا يشبه على أحد يسكن بقلبه، أعادت نظراتها إليّ ثم قالت:

ـ أسامة ، ح أقول لك كلام لا يجب أن تقوله سيدة متزوجة لشخص غريب أشرت إليها معترضاً فضحكت، وأعادت ترتيب كلماتها، يعني شخص كان فيه بينها وبينه استلطاف!!

ـ استلطاف يا علا؟ كل اللي كان بينا استلطاف، علي كل حال أنت بتقولي عن مشاعرك وخلي مشاعرى بالداخل

ـ إيه اللي بتقوله ده، ح نرجع للي فات، المهم يا أسامة أنا مش بأنسي

الأيام الجميلة اللي فاتت وكل ما افتكر ما حدث بعد تعرفنا عليك بشهر وحالة السعادة اللي كانت في الفيلا أشعر أننا كنا عايشين في حلم، يمكن أنت متحسش بالإحساس ده لأنك رجل وثانياً لأنك كنت بعيد فترات طويلة في جبهة القتال لكن الشعور ده كان معانا أنا وماما ودينا، ماما كانت تقول باقي كام يوم لما أسامة ياخد إجازة؟ كانت بتحسبها باليوم وفي نفس يوم الإجازة تحسبها بالساعة، ماما وأنا وأختي كنا بنبقي في حالة عصبية سيئة حينما كنا نسمع عن المعارك مع الإسرائيليين وكانت ماما وهي بتصلي بتدعي لك باسمك وباسم مامتك وباسمها؛ أيضاً بتدعي لباقي الشباب أن ربنا يحميكم.

شفت إزاى كنا في وضع سعادة بعد أربعة شهور بفقد الأخ الوحيد وربنا بعتك لنا ونورت بيتنا ونورت قلبي، قلبي اللي عمره ما حب سوى حب الفنانين كما هي عادة البنات في سن المراهقة، قلبي انفتح عليك لكن أنت قفلته من غير احم ولا دستور حتي ما فكرتش في أحاسيسي، طيب شاورني خد رأى، اعتبرني أختك؛ لكنك قفلت كل حاجة؛ وبقيت مكشر وإحنا مش عارفين ليه وعشان إيه وماما تعمل تحقيقات كتيره معانا وتسأل مين زعل أسامة؟ أنا مش راضية عن اللي زعل أسامة، ح أعمل إيه؟ سكت وخلاص، ضاع الحلم وضاع الحب الأول وضياع الحب الأول شيء صعب جداً أنت مجربتوش؛ لو جربته مكنتش عملت اللي عملته.

عند هذا الحد تبدلت الأوضاع بعد أن أزالت علا القشرة الرقيقة التي تكونت بفعل الأعوام علي جرح حبي الأول؛ ظهرت الدموع بعيوني مما دفع بها للاعتذار، وأنها لم تقصد اهانة؛ لم أصمت؛ بل واصلت زرف الدموع وضعت يدىَّ علي حائط الشرفة أستند عليها؛ شاهدتني سعاد زوجة مدحت فأقبلت مسرعة تنظر إلى علا نظرة عتاب ولحق بها مدحت وساعدوني

للدخول من الشرفة والجلوس بالانتريه المريح حاولت منع الدموع لكنها مازالت تنهمر، شحب وجه علا ونظر الجميع إليها بضيق، عادت إليهم ذكرى يوم الخطبة وما فعلته معي أمام دينا.

جففت دموعي وقدمت شكرى لعلا بين دهشة الحاضرين مرددا .. أنا جربت الحب الأول وجرحني هذا الحب ليس ممن أحببتها ولكنه حرمانى منها إلي الأبد، بدت الدهشة علي الجميع، كأنهم يطلبون تفسيراً وتوضيحاً أوضحت لهم قصة حبي الأول مع نورهان والجميع يستمع بإنصات رغم أن دينا لم تتمالك نفسها من الضحك حينما ذكرت أن الدكتور أندريا خلع ضرسي لاعتقادى بأنني المريض المنتظر ورغم البسمة علي الوجوه من تلك المفارقة إلا أنهم لزموا الصمت حتي انتهيت من روايتي، شعر القوم بأنني إنسان مسكين وطعن حبه في مهده وما حدث بيني وبين علا هو محاولة ملء فراغ ولكن الفراغ لم يكن مناسباً في المشاعر لمن حاول ملئه.

أقبلت عليّ النساء الثلاثة يهدهدن على كتفي ورأسي واحتضنتني علا من جانبي، أمسكت برأسي ورقبتي وتهزني ناحيتها مرددة .. متتزعلشى يا أسامة .. كلنا أخواتك .. كلنا بنحبك.

انتهي الغذاء العاصف كما قال مدحت وعلقت سعاد زوجته بأنه كان يوم الاعترافات والتسامح بين الإخوة كما علقت علا .. لقد فقدتك حبيبا لكني احتفظت بك أخاً وصديقاً، تبدل الحديث للشئون العامة وأحوالي بأمريكا وأحوال أسرتي ورغبتهم بأن يتعرفوا على أطفالي.

قدمت شكرى للمضيف وزوجته سعاد وشكرت علا ودينا بمشاعر الإخوة وأنا أصافحهن وأردد: أنتما من رائحة أمي الحبيبة وداد مما دفع بهن للبكاء علي روح الأم الغالية التي ظلت سيرتها العطرة بيننا بعد عشر سنوات من وفاتها، كانت قوية التأثير رغم طيبة قلبها وصوتها الواهن.

كان الوداع مؤثراً وغادرت العمارة فاستقبلتني نسمات النيل العاطر وسرت محانياً للشاطئ لفترة طويلة حتي شعرت بتخدير عام في أوصالي ومازال صوت علا يطن بأذني " *نورت بيتنا ونورت قلبي ، قلبي اللي عمره ما حب ؛ قلبي انفتح عليك لكن أنت قفلته من غير احم ولا دستور حتي ما فكرتش في أحاسيسي*" .. كنت أردد بداخلي ، ياه يا علا يعني مافيش حب لزميل بتاع الجامعة .. إيه اللي حصل في الدنيا؟ مالها اتلخبطت كده ليه؟ طيب لو كنت أجوزت علا مكنتش اجوزت الست المحترمة الطيبة اللي عايشه معايا علي الحلوة والمرة، لا أعتقد .. كلها أقدار وربنا بيحرك الأحداث زى ما بيحرك الهواء كي تسقط الأمطار هنا ولا تسقط هناك.

كنت في كثير من الأحيان أشعر بأن الله سوف يعاقبني على كل تلك العلاقات الإنسانية التى تمت بيني وبين كل من نورهان وعلا والتى كانت السبب في المشاكل والضيق الذى ألم بهما، كان هذا الاعتقاد مؤثرا علي شخصي معتقداً بأن الله سيوقعني فى زواج تعيس فاشل، وكأن الله يعلم بحالي وصدق نيتي وحمايتي لأعراض كل من تعرفت عليهن فمنحني الزوجة المخلصة الجميلة والتى تتمتع بالدين والعلم وحسن الأخلاق.

لقد كانت زوجتى هى المكافأة السماوية للحفاظ علي منهج الله وإتباع أوامره والسير علي منهج افعل ولا تفعل، كانت المنحة قيمة والجائزة عظيمة ولن أطيل فى هذا لكن كما يقول العامة كل يوم أبوس" ايدي وش وضهر " لأن الزوجة الصالحة خير حسنة يلقاها الرجل في الدنيا.

شبح من الماضي

مضى عامان على هذا اللقاء الأخوى الممتع؛ شعرت خلال تلك الفترة بأن ذرية ماما وداد تنهج نفس نهجها الطيب الرقيق، لقد شعر ابنها وبنتيها أنني أكن لأمهم كل حب وتقدير مثل حبهم لها، شعروا بمدى الإخوة والحب الصادق المختزن بقلبي وعواطفي الهائمة حباً بهم وأن سحابة العاطفة بيني وبين علا التي خبت واختفي وهيجها لا يجب أن تدمر العلاقة الأساسية والسامية التي بدأت بيننا.

خلال الإجازة التالية قررت الذهاب لزيارة مدحت وأسرته، علمت بأن إحدى بناته تزوجت، توجهت لأحد محلات الحلوى الفاخرة بميدان الجيزة كي أتخير هدية تناسب الحدث وصاحبه، مجرد أن دفعت الباب الزجاجي الداخلي ومطالعتي للمعروضات استقبلتني رائحة الحلوى مشفوعة بتأثير المكيف وشاهدت ما لم أتوقع رؤيته من قبل.

شاهدت سيدة رقيقة جميلة بالعقد الخامس من عمرها تسير في الممر بصحبة شابين في بداية الثلاثينات من عمرهما، توقفت السيدة وبالتالي توقف الشابان، كما توقفت والدهشة هى حالي، هل هذه السيدة التي أشاهدها أمامي هى التى كنت أعرفها أم أنها شبيهة لها، خطوت خطوتان في اتجاهها وأشرت بإصبعي نحوها؛ تصرفت السيدة نفس تصرفي ونطق اللسان بما يعلم حيث أخبرته الذاكرة بالماضي البعيد:

. قالت : أنت ..

. قلت لها : أنتِ" ، تكمل:

. ممكن تكون أنت أسامة؟ أجيب:

ـ فعلا أنا أسامة وهل أنتِ رابحة؟ ضحكت بين دهشة الشابين فأسرعت تشير ناحيتي لمزيد من التعارف للشابين قائلة: هذا عمو أسامة الضابط الذى ساعدني في العودة من سيناء؛ حيث كنت يا سليمان طفلا صغيراً وحين تعود بى الذاكرة منذ ذلك التاريخ أقدم له ولجنوده كل شكر وتقدير أما هذا الشاب الوسيم فهو صالح بن المرحوم عامر، رحب بى الشابين أشارت لي رابحة بالجلوس كى نستكمل بعضاً من الحديث نستعيد خلاله ذكريات مضي عليها ثلاثة وثلاثون عاماً، اعتذر لي الشابان ولأمهما بأن نأذن لهما بتركنا حيث إنهما مرتبطان بموعد مهم وهما يطمعان بالجلوس وسماع ذكرياتنا الجميلة! لكن الموعد أزف ولنا لقاء آخر.

غادرنا الشابان؛ بعدها ضحكت رابحة بعد أن وضعت يدها علي فمها وهى تعيد كلمة أحد أبنائها "الذكريات الجميلة" آه لو علما أبنائي ماذا فعلت أمهما لكان هناك رأى آخر.

ضحكت لهذا وأخبرتها بأن لكل جواد كبوة، أمسكت بيدي بكلتا يديها طالبة مني ألا أعيد ما حدث من أمور سيئة، أخبرتها باسماً بأنها كانت أياماً جميلة لوجود تلك الجميلة الرائعة بصحبتنا ومازالت تحتفظ بحيويتها وشبابها وكأنني تركتها بالأمس، تشير بأصبع يدها على فمها بصوت "هس .. كفاية فضايح".

تنبهت وأخبرتني بأنها شاهدت الحاج جويلي زميل الانسحاب حينما حضر العام الماضي مع بعض أبنائه لشراء بعض أغراض لهما من هذا المحل وقد زودها برقم التليفون الخاص به، تساءلت: هل أنتِ تترددين على هذا المحل؟ أجابت: أسامة، أنا أعمل بهذا المحل منذ خمسة وعشرين عاما استطعت خلالها الإنفاق علي أبنائي سليمان وصالح ابن الفقيد عامر زميلك في الانسحاب، وكما تشاهد فقد تخرج الاثنان وأصبحا شابين رائعين

وأن الله حليم ستار وعليك ألا تفضح جرمي وما حدث معك أو مع الدفعة وبالأخص عامر، لقد حصل عامر علي جزائه بالموت وأنا حصلت على عقابي بالسهر والتعب كي أنفق علي أبنائي وكلت يداي وقدماي بالعمل بتلك الشركة التي بدأت العمل بها من عاملة نظافة بدورة المياه ثم رقيت وعملت بنظافة أواني إعداد الحلوى ثم انتقلت للعمل بالمطبخ أمام لهيب النار وفي نهاية المطاف عملت كبائعة وقد رزقني الله بالمال؛ لكن الحياة كانت صعبة قوية التأثير علي أم صغيرة تحمل طفلين دون مساعدة من أحد لولا أن الله وقف معي بعد أن علم بحالي وبعد أن استغفرت الله وتبت والتزمت بالصلاة ودعوت بأن يغفر لي كل خطيئة لقد كنت مخطئة وأنت علي صواب؛ كنت دائماً ما أتذكر صمودك أمامي وأنا التي أعلم ما منحه الله لي من كنوز الجمال والفتنة والإثارة ومن أجل هذا حاولت أن أخفي كل شيء مثير بعد هذا الحدث حتي لا أندفع في هذا التيار الفاسد وعليّ أن أقوم علي تربية أبنائي من مال حلال بذلت في الحصول عليه الكثير من الجهد والعرق وسوء معاملة أصحاب المال للفقراء من أمثالي.

ـ أسامة؛ أرجوك أن تعتبرني أختا لك، وأن تقوم علي زيارتي، فأنا سيدة ضعيفة وقد امتد بى العمر وانشغل الأبناء وقريباً سوف يتزوج الاثنان، هل توافق علي زيارتي؟ أجيب :

ـ أكيد يا رابحة، سوف أقوم علي زيارتك كي أمتع عيوني بهذا الجمال وأمتع آذانيَّ بهذا الصوت.

ضحكت ودفعت يدي مرددة، خلاص، كفاية، فات الميعاد ويقينا بعاد.

غادرت المحل برفقة رابحة؛ أشارت لسيارة تاكسي، توجهت بها إلي عنوان سكنها بحي فيصل المجاور لشارع الهرم بعد أن زودتني برقم التليفون وعنوان المنزل ووصف تفصيلي كي أتعرف علي سكنها؛ أيضاً

زودتني برقم تليفون جويلي زميل الانسحاب، بعد أن غادرتني رابحة وقفت مثل تمثال رمسيس وكدت أنسي ما أتيت من أجله فعدت للمحل واشتريت ما أتيت من أجله متوجهاً إلي زيارة أخي الأكبر مدحت وأسرته.

هذا اللقاء غير المتوقع فتح أمامي نافذة عريضة، فقد علمت رقم تليفون وعنوان رابحة كما علمت رقم تليفون جويلي وأكيد يعلم عناوين باقي الجنود الذين شاركوني انسحاب عام ١٩٦٧ ، هذا هو بداية الخيط، كنت راغباً بسرعة التأكد من دقة رقم تليفون الجويلي فقد دفعني الشوق لرؤيته وباقي زملاء الحرب والانسحاب، أسرعت الخطي بعد زيارة مدحت وأسرته السريعة مغادراً المنزل رغم محاولته أن أظل كي يتصل بشقيقتيه حتى أساعد علا على الخروج من أزمتها التى لازمتها منذ وفاة زوجها رغم مضي تلك الفترة الزمنية، لم أكن راغباً في مشاهدتها حزينة حتي لا أشعر بأنني شاركت ولو من بعيد في تلك المشاعر التي أثرت علي تلك السيدة، فأنا لم أنس كل دقيقة وثانية طيبة قضيناها معاً سواء في الفيلا أو خارج الفيلا نمرح ونضحك بكل براءة، لقد عوضتني علا عن كثير من الأحباب الذين فقدتهم في الحرب أو من فقدتها بالهجرة الإجبارية إلى خارج الوطن وأقصد نورهان.

اليوم التالي اتصلت برقم التليفون التي زودتني به رابحة، جاء الصوت من الجانب الآخر مستفسراً عن المتحدث، أذناى لا تخطئان هذا الصوت صوت ظل معي ثمانية وعشرين يوما لمدة أربع وعشرين ساعة لا نسمع إلا أصواتنا ولا نشاهد إلا أنفسنا فكيف تغيب الحواس عن تلك الشخصيات المتغلغلة في المشاعر والأحاسيس، أخبرته بمن أكون؛ سكن لفترة راغباً في إعادة التعريف، أعدت كلماتي ولم أكملها حيث صرخ سعيداً بالتليفون مردداً كلمات كثيرة طيبة ولم يكملها؛ فقد غلبته دموعه وأشجانه حيث عادت به

الذكري إلى تلك الأيام العصيبة.

طالبني بزيارته واعتذرت لأنني سأغادر القاهرة بعد أيام ثلاثة إلي الولايات المتحدة، أخبرني بأنه سوف يأتي إلي لقائي صباح الغد إذا وافقت على ذلك، رحبت به، بالمساء كنتُ مسهدا وأثناء الليل تعود بى الذاكرة لأتذكر هذا المقاتل الأسطورى وكيف أصبح عليه حاله الآن أقبل جويلي صباح اليوم التالي باش الوجه يسجد لله تضرعاً وشكرا بأنني بخير، ظل يجالسني ساعتين وأخبرني خلال هذا اللقاء بأن باقي الزملاء بخير وسوف يرتب لقاء يجمعنا بإجازتي القادمة.

مضت الأيام وأنا أكافح مع أسرتي بهذا البلد أمريكا كبيرة المساحة والمخالفة عن طبائعنا في كثير من الأمور لكنها تمتاز باحترام القانون وبالشعب الطيب الذي ركز كل همه علي العمل والإنتاج والتمتع بما كسبه من عمله؛ فالحياة مضمونة العائد ولا خوف من ترك عمل فالبدائل متوافرة أمامه ولهذا فهو لا يخشي الفقر أو الحاجة، انعكس كل هذا على أسرتي ووفق أبنائي بدراستهم، ظلت الأيام تكمل السنوات حتي بدأت تباشير بداية تحقيق الأمل بتخرج أولي بناتي من الجامعة عام ٢٠٠٠ تبعها حصول الأسرة علي الجنسية الأمريكية، أصبحت مسألة وجودى بأمريكا مسألة وقت وانتهي من تلك الرحلة والمغامرة التي قمت بها مع أسرتي، لقد كانت رحلة في منتهي الخطورة لكن الله كان معنا وسلم خطانا ووفقنا برحمته وحمايته لنا مع الأخذ بالأسباب بأننا لم نكل أو نمل وظللنا نكافح تلك السنوات الطوال.

ثلاثون عاماً من الكفاح

سافرت إلي القاهرة في إجازة مع أسرتي كالعادة وخلالها قررت زيارة رابحة والاطمئنان عليها؛ في اللقاء السابق منذ عامين طلبت مني بأن أقوم على زيارتها حين حضورى للقاهرة؛ فلا يجب عليّ إهمالها فقد عشنا عدة أيام صعبة أثناء الانسحاب وأكلنا عيش وملح، اتصلت بها تليفونيا وأجابت حيث كانت الدهشة حالها وفي منتهي السرور وزاد من سرورها أنني أخبرتها بأنني نويت زيارتها بمنزلها فرحبت على الفور.

اشتريت هدية تناسبها وتوجهت لشارع فيصل بمنطقة الهرم واستطعت بمعاونة الناس بالمنطقة الاستدلال علي عنوان بيتها، طرقت الباب وقامت بفتحه فشاهدتني وأطلت الفرحة من ثغرها الجميل مرددة بعض عبارات الشكر والثناء والمديح المناسبة لتلك الزيارة، جلست بداخل شقتها وعلمت أن هذا هو بيتها وقد شيدته من ثلاثة طوابق حسب إمكاناتها كي يتزوج به الأبناء، تقيم بالدور الأرضى وولداها يقيمان بالدور الأول العلوى والثاني كما علمت أنهما تزوجا ولكن ظروف العمل جعلتهما يسافران، سليمان يعمل بجنوب سيناء؛ حيث عاد ثانية لموطن والديه أما صالح فقد حصل علي عقد عمل بالخليج واصطحب زوجته، أصبحت رابحة تقيم بمفردها.

لم تكن رابحة تخشي الناس؛ فالحي التي تقيم به أشبه بالأحياء الشعبية مثل السيدة زينب والحسين وباب الشعرية والناس من حولها أصدقاء ومعارف وإمكاناتهم المادية بسيطة ولهذا كانت بيوتهم متواضعة مقارنة بالأحياء الراقية، جلست بعض الوقت معها، نهضت وأسرعت كي تعد طعاما يليق بتلك المناسبة، طلبت منها أن تستريح ولنكلف الجنود بإعداد الطعام، ضحكت من حديثي وأتبعته ببكاء مما دفعها للاحتماء

بصدرى باكية علي مرور الأيام وفقد الصحبة والعشرة الطيبة والشباب وبالتالي الصحة، هدأت من توترها؛ كنت أهدهد على ظهرها مداعباً لها ببعض كلمات لا أستطيع الحديث بها إلا لشخصية مثل رابحة، جلست واستعادت زمام أمرها وبعد أن تناولنا الشاى سألتني إن كنت قد أتيت هذا اليوم من أجلها أو إنها زيارة عابرة.

أعدت حديثي بأن هذا اليوم خاص بها وسبق أن أخبرتك بهذا في بداية الزيارة، ابتسمت ونهضت وطلبت مني اللحاق بها إلي المطبخ وبدأت في إعداد الطعام؛ حيث كنت أقدم لها يد المساعدة بناء على توجيه منها، بعد أن تم إعداد الطعام وضعته على النار وأمسكت بيدى وعدنا نجلس ننتظر كي يتم النضج، نظرت إليّ تحدثني بأنها ترغب بالفضفضة لك فأنا أعتبرك ستر وغطا على كل أحوالى، أشرت إليها بأن هذا صحيح.

قالت رابحة: بعد أن فارقتكم بشرق قناة السويس في هذا اليوم العصيب بوفاة عامر بتلك الطريقة المؤلمة على النفس وبعد أن فقدتكم وأنتم خمسة شباب يافع قوى وكنت أمني نفسي بأن يقف أحد معي وبالأخص أنت سرت برفقة أحد مساعدى الضابط الذى أتي على أصوات الانفجار، كنت أتبعه وأنا شبه محمومة ولا أعرف ما هو طريق الخلاص وبدايته ونهايته.

لقد فقدت الأمان والسلوى حيث كنت أرافقكم وأنا أعلم مقدار خشيتكم علي شخصى وطفلي وأعلم بأن هناك رجالاً ستة سوف يبذلون كل ما في استطاعتهم لحمايتي ومساعدتي وكنت أعتقد بأن هذا سوف يمتد إلي غرب القناة والتوجه إلى مدينة الزقازيق للقاء زوجي بالسجن لكن الأمور تبدلت وتغيرت بسرعة غريبة، كنت أتبع مندوب الضابط الذي كان يسير متجهماً كارهاً تلك المأمورية التي أبعدته عن زملائه وخشيته من لقاء الإسرائيليين بمفرده.

سرنا حوالي خمس ساعات تحت أشعة الشمس الحارقة وشعرت بأن جسدي يحترق، وأن طفلي سوف تصهره حرارة يوليو الشديدة، طلبت منه أن نحصل علي راحة فرفض حتي مجرد الحديث معي، كانت هناك مقارنة بينه وبين رجالك المهذبين المخلصين، تحاملت على نفسي حتي وصلت إلي منطقة شمال مدينة القنطرة شرق التي يسيطر عليها الإسرائيليون وشاهدت العديد من الرجال والنساء متجهين إليها.

أشار إليّ المرافق بأن أحذو حذوهم وسوف يعود من حيث أتي خشية أن يشاهده الإسرائيليون حينئذٍ سيطلقون عليه النار ويقتلونه، ودعني وسرت بمفردي حتي التحمت بجموع العابرين فسمحوا لي بالعبور بعد أن تركت أغراضي وحماري وكلبي والماعز والغنم حتي قفص الدواجن الذى كان يمدني بالبيض، هكذا سطوا على كل ما معي وشاهدت الآخرين حالهم مثل حلي وقال أحد الشيوخ "الحمد لله نفدنا بجلدنا من أولاد الحرام دوول".

غرب القناة كانت هناك جمعيات اجتماعية خاصة بالذين تضرروا من الحرب تستقبلنا وتوجهنا إلي مناطق تسكين بالجمهورية بمحافظات مختلفة كانت أكبر محافظات تسكين هي محافظة الشرقية وهكذا وجدت نفسي متجهة إلى تلك المحافظة حتي وصلنا إلى قرية مجاورة لمدينة الزقازيق وبإحدى المدارس التي أعدت كي تستقبل أمثالنا حصلت على حجرة وغطاء ومرتبة صغيرة وبعض المهمات من ملابس خاصة لي ولطفلي.

كل أسرة كانت تحصل على فصل دراسي أما الأسر الكبيرة العدد فكانت تحصل علي فصلين أو حجرة كبيرة، كان هناك مطبخ يعد الطعام ونحصل عليه جميعاً مثل ما يحدث بالمعسكرات كما كانت دورات المياه معدة لمثل تلك الحالات، قضيت يومين أستنهض الهمم كي أقوم علي زيارة زوجي خلال هذا حصلت مني المشرفة الاجتماعية على اسم زوجى؛ أحد الأيام

جاءتني المشرفة التي تبحث في أحوال المهاجرين لتحصل مني على معلومات كي تسجلها كما هو متبع.

أخبرتها برغبتي القوية بزيارة زوجي المسجون بسجن الزقازيق، تعهدت لي بأنها سوف تذلل كل عقبة في سبيل تحقيق رغبتي تلك، بعد عدة أيام أقبلت باشة الوجه لتخبرني بأنه من باكر يمكنني زيارة زوجي وسلمتني تصريحاً لهذا الغرض محدداً به الأيام التي أتمكن خلالها من زيارته بالسجن العمومي.

صباح اليوم التالي اتجهت بمعاونة نفس المرشدة إلى مدينة الزقازيق هناك توجهت إلى السجن وجلست أنتظر قدوم الزيارة الخاصة بى بعد أن سلمت المسئول التصريح الخاص بزوجي، شاهدت زوجي مقبلاً خلف الأسوار الحديدية، اتجهت إليه باكية واستقبلني بدموع التأثر والألم يحادثني بأنها أيام سوداء مضت عليه وهو لا يعلم حالي وحال ابنه وشاهد ابنه من خلال القضبان وقبله بصعوبة، نظر إليّ متسائلاً:

. طلباتك يا رابحة؟

- مش عارفه أجولك إيه، جدامك خمس سنين لما تطلع ودى مدة كبيرة ضحك باسماً وقال:

. الخمس سنين بجوا ١٣ سنة لأنه أنضاف عليهم سبع سنين بحكم بجضية تانية وهي تهريب سلاح ومجاومة سلطات يعني لو فضلت علي جيد الحياة ح أخرج سنة ١٩٨٠ ، يكون سليمان عمره ١٧ سنة وده وجت طويل عليكي يا بنت الناس في الظروف الصعبة دية.

. رأيك إيه يا عيد؟

- أديلك حريتك وخدى جرشين وربنا يجويك علي حملك ولو خرجت ومكنتيش مجوزه نرجع لبعض تاني، لكن أحرمك من تعيشي زي باجي

النسوان ده صعب ومش أجدر أتحمله وأنا مش عارف بتعملى إيه بعيد عني والشيطان شاطر وإنت صغيرة وحلوة، إيه رأيك؟

. خلاص يا عيد أنا موافجة

. أنتى طالج وح أبعت لك عن طريج السجن بورجة الطلاج، بتدمعى مش وجته، اسمعيني لأن الزيارة جربت تنتهي، ح تروحي لواحد اسمه حمدان بالزاوية الحمرا جريب من مصنع الألمنيوم؛ هناك تتعرفي عليه وتجولي له "البلح النهارده بكام " بس وهو ح يجوم بالواجب، تاخدى منه اللي حيديه لكي ومش توريه وشك وابعدى عنهم لأنهم متراجبين من الحكومة بدل ما رجلك تدخل معاهم وابننا يتلطم في الملاجئ، فاهمه؛ أشرت له بتحريك رأسي؛ فى تلك اللحظة دفعنا الحرس للخارج وأغلق عليهم باب الرحمة وظللت أقف بعض الوقت مع العديد من النساء والأطفال نبكي الزوج الغائب خلف الأسوار الحديدية.

***

مواصلة الكفاح

بعد عدة أيام ساعدني الشيخ سماحة المقيم معنا وتوجهت إلي حي الزاوية الحمراء بالقاهرة والقريب من كوبرى القبة، هناك سألت عن حمدان وشاهدت في وجوه من تحدثت معهم نظرة التشكك والخوف، تشجع أحدهم متسائلاً نقوله مين، أخبرته بأنني زوجة الشيخ عيد، صمت قليلاً وتركني بعد أن طلب مني ومن الشيخ البقاء وعدم التحرك من مكاني خطوة واحدة وطلب من أحد غلمانه مراقبتنا، بعد قليل أقبل وأشار إليّ بأن أتبعه وطلب من الشيخ الانتظار سرت خلفه بين حوارى ضيقة لا أثر لبشر بها؛ توقف أمام باب منزل وطرقه بطريقة معينة وفتح الباب، شاهدت شابا أشار إليّ بأن أتبعه تبعته إلى الداخل فشاهدت رجلا مهيباً يجلس ويحيط به بعض

أعوانه، وقف مرحباً في استقبالي وأشار إليّ بالجلوس.

بعد قليل أحضر أحدهم كوبا من الشاى وقدمه لي وشكرتهم وأخبرته بأنني في هذا اليوم أصوم كعادة الناس إثنين وخميس؛ سألته: هوه البلح النهارده بكام؟ ابتسم ثم نهض واختفي عدة دقائق وعاد واقترب مني وناولني لفافة قائلاً: دى وصية الشيخ عيد ولو احتجت أي حاجه أهو أنتِ عرفتى المكان وكل اللي حصل وشفتيه وسمعتيه انسيه لمصلحتنا جميعاً، خليكى في همك وتربية عيالك، فاهمه؟

شكرته وغادرت المكان والتقيت بالشيخ سماحة وغادرنا المكان وأنا أتوجس خيفة بأن يقبل البوليس ويلقي القبض عليّ ولا أعلم مصير طفلي سرت مع الشيخ وتوجهنا إلي محطة القطارات عائدين إلي الزقازيق ومنها إلى مكان الإيواء التي قررته الحكومة.

أوصلني الشيخ حتي باب حجرتي ودخلت وألقيت بنفسي من الإعياء والإرهاق والخوف، بعد قليل حضرت جارتي وسلمتني طفلي فاحتضنته مقبلة كل جزء به، بعد قليل خلد الطفل بجوارى وأنا مازلت أنتقض مما حدث فى هذا اليوم متسائلة: ليه كده يا عيد؟ يعني ما فيش شغلانه محترمة وبعيدة عن مخالفة القانون وكنا عشنا حياة سعيدة وأسرة محترمة الله يسامحك دفعتني لمخالفة ربنا وحملت حرام وسأعذب دنيا وآخره.

فضضت اللفافة وشاهدت بها أوراق بنكنوت من فئة العشرة جنيهات حاولت عدها لكني كنت مرهقة فتركتها للصباح وقررت وضعها بدفتر توفير البريد خشية السرقة أو الضياع، صباح اليوم التالي نهضت أحسن حالا وتناولت طعام الإفطار مع سليمان ثم غادرت الحجرة متجهة إلي مكتب توفير البريد، في البداية عرقلوا فتح دفتر لي لعدم وجود إثبات شخصية معي، أشار إليّ الموظف بأن ألجأ إلى مكتب رعاية المهجرين.

قضيت اليوم بأكمله بمكتب رعاية المهجرين حتي انتهي المسئول من كتابة استمارة تحقيق شخصية وقدمها لي وأرفق بها خطاباً موجهاً إلي مكتب استخراج تحقيق الشخصية يخبره فيها بأنني من المهاجرين وبناء علي التعليمات يجب استخراج البطاقة وتسهيل كل الأمور أمامي.

بالفعل اليوم التالي لم يُعقد الموظف المسئول أي شيء بل تسلم الصور الشخصية وكانت قديمه نسبياً وأعطاني إيصالا بالحضور بعد باكر لاستلام البطاقة، كنت أتحرك وأنا أضع اللفافة حول وسطي وأخشى أن تفقد مني أو أن يهاجمني أحد اللصوص لاعتقادى بأنها أموال حرام والحمد لله لم يحدث هذا حيث كانت الحالة التي أنا عليها وطفلي سيئة من ملابس قديمة ومهلهلة تعلوها القاذورات لعدم النظافة.

هذا هو اليوم الموعود؛ فقد تسلمت البطاقة وأصبحت لي شخصية رسمية؛ بتلك الورقة توجهت لمكتب التوفير ونظر إليّ الموظف مرتاباً في حالي والمبلغ الكبير الذي رغبت بوضعه بالصندوق، حادثته بكل ثقة وبلهجة أبناء سيناء بأننا من المهاجرين، وجمعت كل مدخرات عائلتي وأتيت لوضعه فهل ستساعدني أو أتوجه للشرطة للشكوى، انتفض الموظف وأدرك بأنني أحمل أموالا سليمة، وأنني لن أخشي الشرطة بل سوف أستعين بها.

أقبل مدير المكتب وطلب من الموظف تسهيل ما حضرت من أجله مضيفا "مش كفاية الغلب اللي هيا عايشه فيه" هكذا قام الموظف بمرجعة المبلغ وأخبرني بأن جملته عشرون ألف جنيه، هل المبلغ صحيح؟ أشرت إليه بصحته وغلبتني الدموع وتعاطف معي الناس " مرددين ربنا ح يعوض عليكم ويرزقكم وآخر قال تلاقي المبلغ ده ميساويش ربع الحاجه اللي باعوها لكنها الحرب، دايما بتوع سينا في وش المدفع ربنا معاكم ".

غادرت المكتب وأنا أحمل دفتر توفير به عشرون ألف جنيه لم أمسكها بحياتي حتي أبي لم يتسلم مبلغاً كهذا طوال حياته، أسرعت وتيرة الأيام وآلام الحمل بدأت تدق علي أجنابي وكنت أترنح أثناء وجودى بمساكن الإيواء وتجمعت السيدات من حولي وسارت الأيام الباقية مثل التي قبلها بداية شهر مارس حملتني النساء إلي المستوصف وتمت عملية الوضع بين رعايتهن وحب الجميع وعلي المولود الذي بشرت به بأنه ذكر فأطلقت عليه اسم صالح حتي ينصلح حالنا وينصلح حالي ونسبته إلي والده عامر الذي أفاض في أحاديثه معي عن أسرته واسمه بالكامل وعمله قبل التحاقه بالجيش.

لم يعرقل أحد استخراج شهادة ميلاد المولود، فالوضع لم يكن يسمح بهذا كما علمت النسوة بأن المولود قتل أباه أثناء العودة من سيناء؛ فقد أطلق عليه الإسرائيليون النار مما دفع بالمشرف على المعسكر بصرف منحة مالية للمولود ابن الشهيد، هكذا لملمت جرح العلاقة التي تمت بيني وبين عامر، لا أعرف هل أخطأت أم لا ولكن ثق بى يا أسامة؛ لقد كنت في أشد الاحتياج لرجل، لقد كانت ظروفي صعبة وكنت أتصرف مثل أى إنسان أصابته الحمى، الحمد لله ربنا ما يرجعها ولا تقابلها أى ست، يارب يصون الجميع ويحميهم من ذلة الزنا فعذاب الضمير لا ينتهي أبداً.

منذ بداية إقامتي بهذا المكان وأنا راغبة بتركه والهرب منه بأبنائي لقد تجمعت كل مساوئ البشر من سرقات وخيانات واغتصاب وعراك لفظي وبدني مع سماع أصوات وألفاظ بذيئة، كنت أخشي علي نفسي فأنا سيدة جميلة صغيرة العمر أعيش مع طفلي دون رجل، في البداية كانت آثار الحمل لا تدفع الرجال لمغازلتي لكن بعد الولادة بعدة أسابيع عدت إلي رونقي وجاذبيتي مما دفع ببعض الرجال لمحاولة لفت نظرى بأسلوب فج

واضح سيء، عرضت الأمر علي الشيخ سماحة الذى كان الحامي لي بعد الله، بعد شهور قليلة أخبرني بأنه سوف يرحل للعيش مع ابن شقيقه وزوجته اللذين كانا يعيشان في مساكن إيواء المهاجرين بمنطقة قريبة منا وبسبب سوء الخلق والتصرفات السيئة بين جيرانه بحث عن سكن مناسب وعثر علي شقة في حي إمبابة بالقاهرة.

أصابني هذا بضيق؛ فالذى يقوم علي حمايتي والدفاع عني سوف يرحل فطلبت منه ألا يتركني، وافق واصطحبني مع أطفالي إلى إمبابة، هناك استطاع ابن شقيقه أن يوفر لي سكناً عبارة عن "دكان" فارغ أقمت به وكنت أشارك سيدة عجوزاً دورة المياه بأسفل المنزل، بحثت عن عمل ووفقني الله بالعمل بحضانة أطفال كخادمة أقوم على نظافة الدار من مسح وكنس الدار بالإضافة إلى نظافة دورات المياه الخاصة بالأطفال.

رغم مشقة هذا العمل إلا أنه أسعدني حيث كنت أصطحب أطفاليّ إلي الدار معي وأعود بهما آخر اليوم كما كنت أعتمد أنا وأطفالي علي طعام الدار في وجبتي الفطار والغداء، تحسنت حالتي نسبياً واستطعت استئجار شقة مواجهة لشقة ابن شقيق الشيخ سماحة؛ هكذا وجدت نفسي بين حب وحماية الناس الذين يتمتعون بالحب والحنان التى كنت أفتقده.

مضت عليّ بتلك المنطقة أربعة أعوام وأصبحنا في عام ١٩٧١ أخبرني الشيخ سماحة بأنه سوف يشترى قطعة أرض كي يقوم بناء منزل متواضع عليها ويحضر زوجته وابنتيه اللائي يقمن عند شقيق زوجته بمدينة دمياط، تشجعت وأخبرته هل من الممكن مرافقته ومشاهدة قطعة الأرض وافق على رغبتى تلك، بالفعل رافقته وشاهدت الأرض الزراعية المتاخمة لشارع الهرم والتي أطلق عليها بعد ذلك شارع فيصل.

كانت بها بعض المنازل المتواضعة وقليلة العدد، اشتريت قيراطا من

الأرض؛ حيث كانت تباع المساحات بالقيراط وليس بالمتر، كانت الأرض مرتفعة الثمن في ذلك الوقت حيث دفعت ثمناً لها يتعدي ١٢٠٠ جنيه وتسلمت الأرض وبدأت في الشروع بالبناء، بمساعدة والد أحد أطفال الحضانة والذى يعمل مساعد مقاول أخبرني بعد أن شاهد قطعة الأرض إنه يقترح أن أقوم علي بناء ١٠٠ متر وترك المساحة المتبقية والتي تقدر بثمانين متراً كحديقة أو حوش واقترح أيضاً بأن يضع أساس ثلاثة طوابق وانزعجت لهذا ولكنه أشار إلي أبنائي بأنهما بعد سنوات قليلة سوف يصبحان مستعدين للزواج.

كانت جملة المبلغ التي يمكن أن تنهي بناء دور أول بأساس ثلاثة طوابق تكلفته ١٥ألف جنيه، تشجعت فقد ربح المبلغ الذي وضعته بدفتر التوفير منذ أربع سنوات وأصبح يقترب من ٢٣ألف جنيه؛ دفعت ثمن الأرض وبالتالي بحسبة بسيطة وجدت أنه بعد بناء المنزل سوف يتبقي معي سبعة آلاف جنيه.

بدأ المقاول في البناء وكان الرجل يتمتع بإخلاص في عمله، أنهي بناء المنزل في حوالي ستة أشهر وتسلمته بين الفرحة والسعادة فقد أصبحت أمتلك منزلا خاصاً بى وبأبنائي وعليه باب حديدى يحميني من ضربات القدر، انتقلت إلي المنزل وظللت أعمل بنفس دار الحضانة حتي أصبح أبنائي بالمدرسة الابتدائية؛ خلال هذا عرض عليّ أحد آباء الأطفال بأن أعمل لديهم بمحل حلوى كبير بميدان الجيزة والراتب سيزيد عما أحصل عليه بمقدار ٥٠%.

هكذا وجدت نفسي أعمل بمحل حلوى، العمل التي كلفت به بمجال النظافة؛ وكنت أتمتع بتذوق بعض الحلوى التالفة والتي لا تصلح لتقديمها للعملاء مما أسعد أبنائي حينما كنت أقدم لهما تلك الحلوى، سارت بى

الأمور سيراً حسناً ووقف الله معي كما سار أبنائي في دراستهم بطريقة مرضية مما أسعدني، شعرت بنمو أجسادهم وتقدمهم في الدراسة، وأن الحياة تسير بنا سيراً حسناً كما أن هاجس الخوف مما ارتكبته في الماضي من أخطاء تلاشي فدفعني هذا للتقدم والعمل.

نهاية عام ١٩٨٩ تخرج ابني سليمان من كلية التجارة ويعده بعامين تخرج ابني صالح من كلية العلوم وتقلد الاثنان عملا طيباً؛ سارت بنا الحياة على خير وتزوج الاثنان منذ سنوات قليلة؛ أحدهما يعمل بإحدى الدول العربية والآخر يعمل بجنوب سيناء وكما تراني الآن أحيا بمفردى على أطلال الذكريات ومن أهمها ذكرى الانسحاب معك ومع جنودك الأوفياء الشجعان رغم فترتها الزمنية البسيطة إلا أنها كانت مهمة ولم أنسها أبداً.

بدت الدموع تظهر في عينيها وهي تنظر إليّ وتخبرني:

. أسامة .. عايزه حاجة، تخوفت وأشرت لها بألا تفكر بالماضي، ضحكت وهى تشير إليّ قائلة:"روح وإنت بقيت كهنة .. أنا عايزه أشعر إنك أخويا .. ممكن؟ "

. كل شيء ممكن لو التزمنا بهذا الاتفاق وتلك المشاعر

. صدقني؛ أنا ملتزمة من يوم حادثة عامر، تخيل مفكرتش في جواز أو أى علاقة، حكاية عامر كانت نهاية البداية السيئة اللي بدأتها

. الحمد لله، خلاص، إحنا أخوات

. ربنا يخليك .. اقتربت مني ووضعت رأسها علي كتفي وأنا مازلت متخوفاً من الماضي، بعد قليل شعرت بأن جسدها ينتفض، دفعت بها قليلاً ونظرت في وجهها حيث كانت تبكي بكاءً حزيناً ودموعها تتساقط بشدة كان منظرها مثيراً للشفقة، هدهدت على كتفها وأعدت رأسها علي كتفي محاولا طمأنتها ومازالت باكية؛ رغبت بأن أخرجها من هذا الشعور وكان لابد لي من عمل

شيء ما يدفعها للضحك، وقد كان، حيث ملست علي شعر رأسها مردداً:
ـ دا أنتي لسه حلوه يا بت .. دفعتني بعيداً ضاحكة محاولة تجفيف دموعها يخرب عقلك، مش لسه متفقين إننا أخوات، خلاص نسيت، ياه على الرجالة وغلب الستات معاهم!!

تبادلنا الضحكات ونهضت تكمل إعداد الطعام وأشارت إليّ بما يعني اقترب وقدم يد المساعدة، شمرت عن ساعدىَّ ووقفت قريباً منها أقدم يد المساعدة تحت إشرافها، ظل هذا الحال لأكثر من ساعة، جلست لتحصل علي بعض الراحة ثم نهضت وأنا أتبعها وغرفنا الطعام في الأطباق جلست أمامها أتناول طعامي وعادت بى الذاكرة لأكثر من ثلاثين عاماً مضت نحن الاثنين منفردين ونتناول طعامنا بكل احترام وتقدير فلقد أصبحنا إخوة وسبحان مغير الأحوال ما بين سيدة متمردة فلت زمامها إلي سيدة رقيقة طيبة تحلم بأن تنهي حياتها علي الخلق القويم وإتباع منهج الله بين البشر فالحلال بين والحرام بين، ولا يصح إلا الصحيح.

اقترب الوقت من الغروب وشعرت بأنني بحاجة للانصراف وشاهدت وجهها راغباً بالراحة، اعتذرت لها وأنني سوف أغادر منزلها، وقفت تودعني وتنظر في عينىَّ وتردد:

ـ متنسانيش، متنسانيش، أنا عايزه أخويا جنبي على طول .. اقتربت منها وطبعت قبلة على قمة رأسها مهدهداً عل كتفها.

ـ دايما ح أكون جنبك وأول ما أرجع من أمريكا ح تلاقيني قريب منك.

ـ تفتكر ده يعملك مشاكل مع مراتك؟

ـ ماتفكريش في الحكاية دية، كأني ح أقوم بزيارة عوض الله صديقي

ـ يخرب عقلك، كل اللي قدامك ده وتبقي عوض الله، الله يسامحك .. ضحكت من حديثها.

- كله أخوات، عوض الله ورابحة .. كلنا أخوات .. مع السلامة يا رابحة وسلمي علي أولادك لما يقبلوا علي زيارتك.

- حاضر .. حاضر .. روح رينا يكرمك في أولادك .. وفي كل خطوة سلامة .. لا إلاه إلا الله.

- محمد رسول الله.

غادرت المنطقة وأخذت سيارة تاكسي عائدًا إلى منزلي وأنا أردد .. سبحان الله .. يهدى من يشاء

***

لقاء من الماضي

أثناء وجودى بالولايات المتحدة كنت من حين لآخر أتذكر اللقاء الأخير مع رابحة وأشعر بابتسامة عريضة لما وصل إليها حالها، أكرر بأن الله لا ينسي عباده ويغفر لهم ما قاموا به من أخطاء وذنوب، أنه الغفور الرحيم، سبحانك ربي، ظللت علي هذا الحال عامين كاملين كنت أحادث رابحة من أمريكا كل شهر مرة واحدة لمدة دقائق كانت تسعد بها وتبكي وتردد " رينا يخليك .. رينا يخليك "

نهاية عام ٢٠٠٤ وشهر ديسمبر وعدت من أمريكا بزيارة طويلة نسبياً تستمر شهرين، الفترة الأولي منها لحضور حفل زفاف ابني طارق علي فتاة مصرية اختارها عقله قبل قلبه وكان اختياره موفقاً فهى سليلة الحسب والنسب وقام والداها على تنشئتها النشأة الصالحة، أقيم حفل الزفاف بأحد فنادق القاهرة الفاخرة، وقد وجهت الدعوة للعديد من إخوتي في الحياة بالإضافة إلي إخوتي الأشقاء.

حضر الحفل مدحت وزوجته سعاد وعلا وابنتها ودينا وزوجها وسحر وزوجها وروز وابنها عزيز وزوجته وطفلاه الصغيران كما حضرها محمد

فوزى الذي كان يخدم معي بالجبهة ورغبت بإرسال خطاب معه إلي فيلا دينا كي أخبر علا بأنني قررت الحضور بالإجازة القادمة وإحضار والدىَّ وقراءة الفاتحة كخطوة أولي في طريق مستقبل حياتنا وتتويجاً لحبي لها ولأسرتها ولأمي الحبيبة ماما وداد ولكن ما بثه من معلومات عن علاقته بها أثناء الدراسة بالمرحلة الجامعية أطاح بكل خططي وحبي واستبدلته بالشك والريبة وهكذا تحول الحب إلي البغض بكلمة بسيطة لم نتحقق منها وكأن حديث الإفك وما حدث لرسولنا الكريم لم نتعلم منه الدرس وسرنا علي نفس المنوال؛ لقد غلبنا الشيطان بوساوسه التي لم تنتهي.

أشرت إلي محمد فوزي جهة علا أثناء تحركها بداخل الصالة وطلبت منه التعرف علي حبيبته القديمة، لم يتذكرها، أوضحت له ببعض ما أخبرني به، لم يتنكر ما قاله في الماضي، ضغطت عليه بالمعلومات التي بثها في عقلي وقلب حياتي الهانئة إلي تعاسة دائمة حتي أنهتها حرب أكتوبر مثلما أنهت أسطورة الجيش الذي لا يهزم، صمت قليلاً وتذكر وقال إنه كان يمازحني وأنه كان زميلا لشقيقها مدحت أثناء الدراسة بالمرحلة الثانوية، أخبرته بأن كل ما قاله عن أسرتها وعنها صحيح أخبرني بأن تلك المعلومات عن الصديق فقط، ولكنه لم يشاهد علا ولم يتعرف عليها من قريب أو بعيد.

كدت أصرخ به وألقي عليه باللوم لتلويث سمعة فتاة شريفة طاهرة حتي لو بالحديث الخاطئ الذي أخبرني بأنه يقصه علي شخصي كي يشجعني ويدفعني لتكليفه بالمهمة، أخبرته بما خلفه حديثه من تصرفات قلبت ميزان حياتي، قدم اعتذاره وكاد أن يبكي سوء فعله، كنت ألاحظ خلال حفل الزفاف أن البسمة لم تطل علي شفتيه ولازمه العبوس رغم محاولة زوجته إخراجه من تلك الحالة.

انتهي حفل الزفاف وبعده بيومين صاحبت زوجتي برحلة للأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، هناك شكرت صاحب البيت المعمور واستغفرت عن كل ذنب اقترفته وجال بخاطري حادثان مهمان، الأول رابحة وما حدث لها من تبديل وتغير أصلح من حالها واقتربت من الله فأنار لها طريق الهداية والرشاد، وأصبحت الصديق والأخ لها بعد أن كنت عدوها الأول ونحن بسيناء وظروفنا أصعب من أن يتحملها البشر الأسوياء.

الحادث الثاني ما حدث لعلا علي يد شاب مستهتر يلقي بالكلمات الطائشة فأظلم حياتي التي كانت مضيئة بفضل علا وأمها وأشقائها، لقد نزع مني هذا الكاذب جنة الأحلام والحب التي كنت أرفل بها، أسرة طيبة مكونة من أربعة أشخاص تضفي على شخصي بكل حب وعطف وحنان ما أجملها وما أنبل هذا الشعور، بل كانوا يقدمونني عليهم سواء لصغر سني أو لظروف الحرب التي كنت وقودها مع آلاف الشباب المصرى الذي شاء القدر بأن نكون نحن حماة الوطن والإسلام، لقد حرمني من هذا الحب واستبدل حياتي بحياة أخرى طيبة لكن هل يعلم الإنسان ما يخبئه القدر كنت أستعيد نظرات ماما وداد الحزينة وهى تنظر إليّ كأنها تلومني على ما فعلته بابنتها الرقيقة الرشيقة، كيف تفعل هذا بحبيبتي علا ابنتي الكبرى وكيف تطلق دموعها بعد أن كبت فرحتها وبهاءها، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، ياه يا محمد فوزي، ليه عملت كده؟ مش حرام، استغفرت الله فقد هدأ الله من خاطري وأصبحت أنا وعلا وأسرتها إخوة بعد فراق الأم الحنون كأنها تركت وصيتها بأن نظل إخوة إذا لم يكن في الاستطاعة أن يرفرف الحب والزواج على قلبيّ علا وأسامة الحمد لله وقد أصبحت علا من أشد الصديقات لزوجتي حباً وعطفاً؛ لقد اعترفت لزوجتي بكل ما سبق ولم تأخذ عليّ أى شيء حيث قالت لي هذا ما سبق من تعارف ولكن ما بعد الزواج

فهو من حقي، لقد أصبحت أخا لعلا وهى الأخرى أخت وصديقة؛ قلت الحمد لله وأعدت تكرارها مرة أخري شاكراً الله علي هذا الحب الذى تمكن من أن يعود بطريقة أخرى غير الطريقة التي رسمها أبناء آدم، فالله يعلم خبايا النفس وهو المرشد والموجه.

عدت من الأراضي المقدسة أحسن حالا وبعد أن حصلت علي حمام الطهارة الذى طهرني من كل شائبة وكل وسواس خناس وكل دفعة شيطان وغمر الله جوارحي بالسكون والطمأنينة؛ عدت وقضيت أياماً قليلة لم أبخل خلالها بالقيام بالواجب الأخوى نحو رابحة التي استقبلتني علي باب المنزل بالفرحة والسعادة وقد ألقت برأسها علي كتفي باكية وأنا أضحك من تصرفها وكيف يكون استقبال الأخ بعد طول الغيبة بتلك الطريقة، تنظر إليّ قائلة:

- أسامة، ربنا يخليك ، محدش بيفتح عليّ باب البيت غيرك إلا لما الأولاد بيحضروا لإجازات لكنها قليلة، عايشة لوحدي مع الذكريات، آه على الوحدة؛ ربنا ما يكتبها على حد، اخدتنى في الكلام، ح أقوم أجهز لك أكلة كويسة، أمسكت بيدها راغبا بأن تجلس ولا تضيع الدقائق القليلة في إعداد طعام، راغباً بأن أطمئن علي حالها وأن أشد من عزيمتها وتمسكها بأهداب الدين والفضيلة.

قضيت الوقت الذى استطعت ادخاره من الساعات المتبقية على نهاية إجازتي مع رابحة وسألتها عن أحوالها وكأخ عرضت عليها مبلغاً من المال كمساعدة؛ نظرت إليّ باسمة "وقبلت يدها وش وضهر" وشكرت نعمة ربنا عليها وأنها مازالت تعمل كما تبقي من رصيد زوجها مبلغاً معقولا يدر عليها عائداً شهرياً والله حماها من الأمراض وعوضها بالصحة والعافية، تردد كلمة الشكر لله كما تواظب على الصلاة والعبادة كما غمرتها الفرحة عندما أخبرتها بأنني أديت فريضة الحج، وقررت بأنه في أقرب فرصة سوف تقوم

بتأديتها مع أحد أبنائها.

كنت أنظر إليها وأنا دائم التفكير وأسترجع ذكريات الماضي، كانت أمامي نساء ست دائما في خيالي بخلاف زوجتي، هناك دائماً نورهان القلب الحي الذي مازال ينبض ولكن صاحبه غائب شحماً ولحماً وصوتاً هناك روز زوجة الشهيد وليم والتي ترملت في بداية حياتها وهناك علا الحبيبة التي ذبلت قصة حبنا في أشد عنفوانها ولم تكن هي المخطئة بل يتحمل الخطأ محمد فوزي كما ألوم نفسي فكان من الواجب عليّ أن أصرح لها بما سمعت لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، هناك دينا شقيقة علا وهناك سحر ابنة بابا عليوة الأب الحزين والذي تجرع الحزن علي فقد ابنه حتي قابل ربه، وهناك اللعوب رابحة التي أصبحت قريبة من الله فأعطاها الله من فضله، كنت أتحدث بأن تلكم النسوة من بنات مصر؛ هن حفيدات نفرتيتي وكليوباترا وغيرهن من أمجاد مصر العظيمة، في النهاية إذا وغي الشر إنسان سرعان ما يعود لرشده فمصر بها الأزهر منارة العالم الإسلامي ومصر استضافت السيدة مريم وطفلها عيسي النبي الكريم، مصر ولد بها النبي موسي ونشأ بها النبي يوسف ومصر استقبلت إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وبعده النبي يعقوب والد النبي يوسف، ومصر التي صلي بها الرسول محمد بن عبدالله ركعتي شكر بعد عودته من رحلة الإسراء والمعراج في الوادى المقدس طوي حينما علم من جبريل حامل الوحي بأن تلك المنطقة كلم فيها موسي ربه، إذاً؛ لا يجب أن تتملكني الدهشة حينما أشاهد المنحرف قد عاد إلي طريقه بسرعة واستجاب له الله وساعده .. أكرر .. الحمد لله.

يوم من الأيام

صدر كتابي الأول الناس والحرب وقرأه العديد من أبناء الشعب المصري من الجنسين لكن ما قرأه بشغف هم من تحدثت عنهم وبالأخص النساء اللائي وردت أسماؤهن المستعارة بالكتاب، فقبل نشر الكتاب حصلت على موافقة شفهية منهن ووافقن شريطة أن ألتزم بنص الأحداث مع إغفال الأسماء الحقيقية لهن مراعاة للسرية الواجب أن يتبعها أى مدقق لحدث شخصي، بل حصلت على موافقة اللص فوزى خضر الذى قابلني بميدان العباسية وتسبب في دخولي قسم الشرطة وكان بعد الله المتسبب في أحداث كثيرة حدثت لي.

فلو لم يسرق فوزى خضر أو دبوس الشاب الذى غادر سيارته الفيات بميدان العباسية ليحصل منه على جنيه لما قبض عليّ واقتيد معي إلى قسم الشرطة وبالتالي لم أكن التقيت بشقيق البطل وليم شفيق وبالتالي لما تعرفت على أمه ماري وزوجته روز، كما لم أتمكن من معرفة عنوان ماما وداد التي أقلتني وأنا لست قادراً على السير وبالتالي لم أكن قد تعرفت على أبنائها مدحت الذى كان من الممكن أن يظل قابعاً بالمستشفي أعواماً وأسرته تحيا في حزن مستمر كما لم أكن التقيت بعلا الجميلة وحدثت تلك الأحداث وأيضاً لم أكن قد التقيت بشقيقتها دينا.

بفضل لقاء اللص حدثت تلك الأحداث المتتالية وقد يكون القدر قد قدرها لحكمة لا يعلمها الإنسان في حينها، لأنها كانت أحداثا غاية في الأهمية وبسبب تلك الأحداث استطعت الخروج من دوامة الحزن القاسي الذى تعرضت له بعد حرب عام ١٩٦٧ كما وافق اللص فوزى خضـــــر بأن

أتحدث عما قام به معي وهذا ليس اسمه فقد ابتدعت هذا الاسم حتي لا أقترب من شخصه من بعيد أو قريب.

بعد نشر الكتاب حدثت ردود أفعال إيجابية علي محتواه والبعض منها كان سلبياً، لقد تركت رقم تليفوني ورقم الموبايل نظراً لعدم وجود دار نشر وافقت علي نشر الكتاب فقمت بكل ما يجب عليّ القيام به من استخراج رقم الإيداع والاتفاق مع المطبعة ودفع التكلفة المادية والتوزيع، لقد تحملت كل شيء من أجل أن يصدر الكتاب وها قد صدر فأتت نتائجه سريعة حاسمة.

كان التأثير الواضح والكبير قد أتي من جهة السيدة علا، فقد نشرت السبب الرئيسي في عدم استكمال العلاقة بيننا، لقد عاتبتني عتاباً شديداً وألقت عليّ بكل كلمات نقد واضحة أو مبهمة وكانت تردد .. هذه حياتي فإذا سمعت أو علمت بأن هناك شخصا ما يكيل إليّ كلمات أو عبارات لا يجب أن تقال فكان يجب عليك الدفاع عني أو تتركني لأقوم بهذا لكن أن تستكين بهذا الوضع غير المشرف لهو شيء محزن يقلل من قيمة الإنسان.

لم تفلح معها كل محاولات التصحيح والتوضيح بل إنها استعانت بزوجتي في هذا المجال ووقفت زوجتي بجوارها وكأنني إنسان غير واضح أو مخلص لمن أخلصوا لي ووقفوا بجواري، كانت الانتقادات كثيرة ولم أجد لدى من الشجاعة أن أجيب علي تلك الاتهامات بأنني سرت في نفس طريق الشائعة، وصدقت كل ما قيل لي وكان يجب عليّ ألا أصدق إلا ما أسمعه أو أشاهده بنفسي والذى كان مخالفاً لكل ما قيل جملة وتفصيلا.

شعرت علا وشقيقتها بأنني تسببت في إدخال الحزن إلي قلب الأم الرقيقة الطيبة وداد وشعرتا أيضاً بأنني إنسان غير واضح ومباشر وكأن السيدات وجدن الفرصة للانقضاض علي شخص يحاولن تصفية حساب قديم معه، كنت في حالة من التردد بأن أفصح بما جال في خاطرى رغم

أنه مكتوب ولكن الكتابة شيء وأن تعيد التصريح مباشرة شيء آخر ولهذا صمت وتركتهن يرددن الاتهامات الظالمة بتأييد من زوجتي ولا أعلم سبباً لهذا؟ هل لأنها تخشي المستقبل بأن أتصرف معها بنفس التصرف السابق مع علا.

هدأت واستكنت لفترة وشعرت بأن كلا من علا ودينا تتجاهلني في المناسبات وكل علاقتهن بى تدور مع زوجتي التي كانت تبلغني تحية علا أو دينا في مناسبات الأعياد وشهر رمضان، آثار هذا حفيظتي وقررت تجاهل تلك التصرفات ومضي علي هذه الأحداث ما يقارب الأربعين عاماً مردداً "الستات مش بتنسي المشاكل وكل يوم تقلب فيها" لكن ما جد عليّ في هذا الشأن أن اتصلت بى قارئة لتخبرني بأن البطلة بالرواية علا اسمها الحقيقي ..... وذكرت الاسم الحقيقي وأنها كانت زميلة لها بالعمل والتى كانت تروى لها الأحداث التي كانت تجمع بيننا خلال الإجازات ولم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأخبرتني بها وفي النهاية أسمعتني بعض عبارات تقلل من قدرى لتخاذلي أمام تلك الشائعة مرددة: " أسامة .. أنت بطل بالحرب جبان في الحب"

كان هذا أقسي انتقاد حدث لي، عدا ذلك فكان الكثير من الفتيات الصغيرات بالمرحلة الجامعية أو حديثي التخرج يتصلن بى راغبات في محادثة طنط علا وحينما أتساءل من تكون طنط علا يخبرنني الموجود اسمها بالرواية، أتساءل: هل قرأت الرواية يؤيدن هذا ..... كنت في دهشة فقصة علا طغت على بعض الأحداث التالية، وظل البعض معتقداً بأنها مازالت مستمرة بل وتزوجتها وهن راغبات بالحديث معها.

البعض اتصل يلومني علي عدم زواجي بعلا وكان من الواجب عدم السير خلف الإشاعة حتي لو كانت صحيحة فقد اختارتك وألقت بكل

تعارف أو نبضة حب بسلة المهملات وكنت أنت صاحب النصيب الأوفر وفزت بقلبها وعقلها رغم بداية التعارف القاسية ورغم هذا كنا نشعر بأن علا تغدق عليك حباً أكثر من المعتاد وقد وضح هذا من طريقة سرد الأحداث دون تعمد منك والأكيد أن الفتاة نفذت تعهدها منذ أول لقاء بأن ما أتيت تخبرهم به من العثور علي شقيقها حياً لسوف تكافئك بالمقابل مكافأة لن تستطيع رفضها، والغريب أن تلك التعليقات كانت من الرجال حتي وقت قريب، تركوا نقد أى شيء في الكتاب، كانت تلك السقطة الوحيدة لي أمامهم.

ظلت علاقتي بعلا باردة لفترة زمنية أعتقد أنها تخطت العامين وكل ما أعلمه عنها تخبرني به زوجتي أو شقيقتها دينا أو شقيقها الأكبر مدحت تبدل الحال حينماَ علمت علا بأنني مريض أعاني من التهاب بالجيوب الأنفية أثر على سمعي واتزاني، كنت ملازماً الفراش لفترة طويلة ودفعها هذا لمحاولة الاتصال بى فلم أستطع تمييز صوتها وكلماتها مما دفعها للحضور لزيارتى، نظرت إليها ولسان حالي يردد ما أشبه اليوم بالبارحة، لكن البارحة كانت منذ خمسة وثلاثين عامًا خلال حرب أكتوبر أما الآن ونحن في نهاية عام ٢٠٠٩ وتقوم علي زيارتي بالمنزل وكأنها عثرت علي الفرصة المتاحة لعلاج ما بيننا من خلل من سوء تصرفي حينما سمعت عنها وشاية الجندى زميلي بالعمل.

أشرقت علا في سماء حياتي ثانية، وهذا أسعد زوجتي؛ حيث كانت تعلم مقدار سعادتي بأصدقاء مرحلة الحرب وبالأخص علا وشقيقتها دينا فحينما كنت أشاهدهن أعود بالذاكرة إلى الأم الطيبة ماما وداد التي لا أغفل عن زيارة قبرها كل عام في ذكرى وفاتها وفي بعض المناسبات وفي إحدى تلك المناسبات وجدت علا هناك بمفردها وأنا بمفردى؛ جلسنا أمام قبر

الراحلة وهنا اقتربت مني علا تتساءل:

. تفتكر ماما شيفانا دلوقتي؟

. أيوه، أمال .. إحنا جايين هنا ليه .. أمسكت بيدى وهى تردد:

ـ خلاص يا ماما .. متزعليش من أسامة .. ربنا يرحمك .. جبتي لنا أخ تاني غير مدحت .. ثم انهمرت الدموع بغزارة من عينيها لم أكن أتوقعها وأنا أعلم أنها شديدة التماسك.

كنت أردد بأن تلك الأسرة قدرتني وأحبتني بكل كيانها، ولم أستطع أن أستوعب حجم وقيمة هذا الحب والعطف، فما زال الأبناء والبنات الثلاثة يقتربون مني ومن أسرتي حتي اختلط الحابل بالنابل وأصبح "أنكل مدحت وطانط علا وطانط دينا ينافسون إخوتي وإخوة زوجتي في الحب والألقاب والسّير المتبادلة أثناء الحديث بين أبنائي.

ضحك ولعب وجد وحب

شهر أكتوبر من عام ٢٠١٠ وفيه يحتفل الشعب المصري بانتصار أكتوبر المجيد لكني أحتفل احتفالاً مضاعفاً أو مزدوجاً، ففي هذا الشهر يقع يوم ميلادى، بل من حسن الطالع أن يوم ميلادى هو يوم السادس من شهر أكتوبر وبالتالي أصبح هذا الشهر هو شهر الفرح والسعادة بالنسبة لي.

كانت القوات المسلحة في طليعة أجهزة الدولة للاحتفال بهذه المناسبة ومن أجل هذا انكبت وسائل الإعلام علي لقاء بعض رموز من حارب وحضر الانتصار كي يتحدث عن ذكرياته خلال تلك الفترة، كان لي نصيب في هذا حيث التقيت بالعديد من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

نهاية هذا الشهر يوم الحادى والثلاثين من أكتوبر اتصلت بى الإعلامية مني الشاذلي مقدمة برنامج العاشرة مساء من قناة دريم الفضائية كان الغرض ليس التحدث عن انتصار أكتوبر لكن الحديث عن أحد أشهر أبطالها وأحد رموز العسكرية المصرية في العصر الحديث الفريق سعد الدين الشاذلي، أحد القادة المهمين والذى كان يمر بظروف صحية حرجة مما استدعي رئيس الدولة للاطمئنان علي صحته.

طلبت مني المذيعة أن أتواجد للحديث عن القائد والذى عاصرته لفترة طويلة نسبيا ولأهم فترة خلال الإعداد للمعركة وسير المعركة ذاتها والتي كانت أحد أساطير الحروب بالعصر الحديث، بالفعل كان اللقاء ممتعا حيث التحدث عن شخصية محورية مصرية والإشادة والتمجيد بعيداً عن النقد والتجريح الذي طال الكثير من رموز مصر في مجالات متعددة.

بعد الانتهاء من البرنامج الذي أذيع علي الهواء مباشرة تلقيت العديد من رسائل الإشادة من قادة زملاء لي بحسن الحديث موضوعاً وأسلوباً كانت تلك الاتصالات تتم علي جهاز التليفون المحمول الخاص بى حيث كنت عائداً من مدينة الإنتاج الإعلامي بمدينة السادس من أكتوبر في اتجاه الغرب من القاهرة متجهاً إلى منزلي بمدينة الرحاب على الطرف الشرقي لمدينة القاهرة والواقعة علي طريق السويس، تجاوزت الساعة الواحد من صباح اليوم التالي، كنت عائداً مرهقاً من الإعداد والحديث ومشقة الطريق رغم أن القناة وفرت لي سيارة ذهاباً وعودة.

في المنزل استقبلتني زوجتي بالترحاب وكانت سعيدة ومسرورة لما قمت به وللحديث عن بطولة الرجل دون أن أقحم نفسي في مجال البطولة الواهمة التي يبدع الكثيرون بالزج بأنفسهم في أعمال وهمية وهم لا يعلمون عنها أى شيء لكن صاحب العمل هو من تحدثت عنه، بعد أن استبدلت ملابسي ألقيت بجسدى المنهك على السرير ورحت في سبات إلى صباح اليوم التالي؛ فى الصباح غادرت ابنتي وزوجتي المنزل وبقيت بمفردي ومازالت أغط في نومي؛ أيقظني صوت جرس الموبايل.

نهضت وأحضرت الموبايل ونظرت في الشاشة لأري من أزعج نومي لكن شاهدت جملة مكتوبة "رقم غير معروف" ، أجبت علي السائل تنامي إلى أذني سماع صوت نسائي يردد:

. أسامة ، أسامة .. أجيب

. ايوه أنا أسامة، مين بيتكلم؟

. أنا نورهان

. ايوه، عايزه إيه يا نورهان

. أيزاك "عيزاك" ، إزيك

. الله يسلمك، نورهان مين؟

. نسيت نورهان؟

. لا والله بس مش فاكر

. نورهان هبيبتك بتاعة الزقازيق!!

. الحمد لله إن مراتى مش موجودة، يا ست أنا مش عارف حبيبة بالاسم ده

. أنا نورهان أندريا، فاكر لما البابا خلع ضرسك في أول يوم زرت فيه بتنا فاكر أسامة، أنت هبيب كلبي أسامة " وفاصل من البكاء أعطاني الفرصة كي ألتقط أنفاسي"

ـ اردد .. نورهان أندريا، ده معقول ، بعد ٤٣ سنة أسمع صوتها وأنا في بيتي بالسرير مستريح وأنا اللي لفيت على مكاتب البريد كي أحصل على عنوانها بأيرلندا، قطع صوتها هواجسي ومشاعري.

ـ أسامة ؛ أنا أملت "عملت" كل هاجه علسان أهصل علي إنوان بتاعك وركم تليفون، أهبك كتير أسامه

. وأنا والله بأحبك كتير يا نورهان ومش نسيتك أبدا

. أسامه، أنا كررت نزول كاهره أول سنة جديدة، أيزه أكابلك "أقابلك" ونرجع بعض ذكريات هلوه بتاع زمان، آيزه روه سوف زقازيق بعد فترة طويلة نفسي أسوف كل هاجه، تاريخ، أسامة؛ أنت تاريخ زي أبو هول!!

. أهلا وتشرفي في أي وقت

. أسامه، أنت بكيت "أصبحت"/جوز عجوز" وإلا لسه سباب؟

. أنا عجوز يا نورهان وسني بقي ٦٦ سنة، ح أبقي شباب إزاي هو أنا زي سيدنا نوح.

. أنا إفتكرتو إنك لسه سباب، أنا سويه سباب لكن نفسي أسوفك، أنت مس تسيب اهلامي من يوم سفر، أنت كابوس دايما في هلم.

. الله يسامحك

. مرسي كتير، أنت هلو هبيب كلب "قلب" أسامة، ح أقول باي عسان روه سغل وأكلمك قبل ما أجي بأسبوع

. مع السلامة يا نورهان

***

انتهت المكالمة وجلست بعض الوقت ثم غفوت قليلا ونهضت منشرح الصدر، فقد شاهدت حلماً جميلا، أردد، اللهم اجعله خير، ياه يا نورهان بنت حلال والله، تعبتي نفسك وجيتي في الحلم، ياه.... توقفت قليلا أستعيد ما حدث صباح اليوم، هوه حلم وإلا علم؟ أنا فاكر إني كلمتها، ايوه كلمتها أضحك من نفسي، كلمت مين يا مسطول، مشوار امبارح هد حيلك؛ روح نام .. صحيح .. أريح شويه، ألقيت بجسدي المنهك علي السرير ثم تنبهت بأنني سمعت الموبايل وقرأت رقم غير معروف، نهضت وأحضرت الموبايل وشاهدت عبارة "رقم غير معروف" صحت .. حصل والله حصل .. ينهار أبيض .. نورهان رجعت ليا بعد ٤٣ سنه .. ياه علي الدنيا الصغيرة الضيقة، مين كان يصدق الحكاية دية، ياه يا نورهان دا أنا تعذبت كتير لسفرك لكن الله سلم وبعت ليا زميلي عادل وماما وداد وأولادها، ربنا عمل ليا عزوه وعيله وصحبه عشان يعوضني شويه عن بعدك، يارب؛ ربنا يساعدك زى ما ساعدني أنا متأكد من الحكاية دية لأنك إنسانة طيبة وبنت حلال وبتحبي مصر.

ظهراً أقبلت زوجتي ومن فرحتي وانفعالي أخبرتها بالمكالمة وما جري بشأنها، نظرت إليّ وتركتني وعادت بعد قليل تحمل كوب عصير ليمون وقرص اسبرين وأعطتها لي فأخذتها ولم أسألها عن السبب، سمعتها تردد:

- بالهنا والشفا، الإسبرين والليمون ح يضيعوا الهلوثه، كفايه تليفزيون ولف

أنت كبرت علي الجرى ده وبناخد منه إيه، كفايه وحافظ علي صحتك أنظر إليها بدهشة وأردد بداخلي، أنها لا تصدقني مش مهم؛ المهم إنني متأكد بأني سمعت صوتها وبكاءها وسوف تحضر بعد شهرين من الآن بالتمام والكمال.

مضت الأيام ولا حس ولا خبر كما يقول المثل العامي؛ تشككت فيما سمعت واعتقدت بأنها هلوسة انتابتني علي الكبر لحبي لتلك الفتاة أو السيدة الآن؛ ليس هذا الحب بغرض الزواج فكما تقول الأغنية الشهيرة "كل شيء راح وانتهي " لكن اللى بيننا منتهاشى يا نورهان، ياه؛ هل من الممكن أن يطير الخيال بعقلي لتلك الدرجة وأعتقد بأنكِ تحدثت معي من الخارج بعد غياب ٤٣ عاماً؟ مش معقول!

يومياً أقلب في أرقام الهاتف المحمول لعلي أعثر علي جملة رقم غير معروف دون جدوى، أيقنت أن زوجتي تعلم أكثر مني بما يدور بفكرى وعقلي، تنهدت مردداً ياه على الحب العذري اللي يعمل بالإنسان كل هذا؟ يسمع ويعتقد ويضع جملاً وخيالات من الماضي البعيد، هل نورهان ذات تأثير قوي علي شخصي لتلك الدرجة؟ تنبهت بأن نورهان ليست السبب فيما يحدث؛ فأنا المتسبب الرئيسي؛ فمازال حب علا ودينا وروز وسحر بل رابحة بقلبي وعقلي وكياني وتهاجمني ذكراهم من حين لآخر؛ لقد منحني الله حب الناس والاحتفاظ بصداقتهم وحبهم ولا أرغب في فقد أحد، حتي جنودى الذين رافقوني أثناء الانسحاب الدامي خلال حرب عام ١٩٦٧ ظللت علي علاقة بهم حتي توفاهم الله واحدا بعد الآخر، إذاً هذا ليس بحب بين رجل وامرأة؛ لكنه حب غرسه وطبعه الله بداخلي وسيظل معي ولن أتنازل عنه وبالتالي لن يحل محله الحقد والكره والبغضاء.

هذا يوم سعيد بحياتي، رن جرس التليفون المحمول، شاهدت العبارة التي

شاهدتها في السابق واعتقدت وقتها أنها من خيال وهلوسة عقل ضعفت ذاكرته لتقدم العمر "رقم غير معروف" أسرعت متلهفاً لأجيب وجاء الصوت النادي الذى مازال يهز مشاعرى ووجداني:

. أسامة .. أنا نورهان

. أهلا نورهان، كنت منتظر مكالمتك

. صهيه "صحيح" أسامة .. لسه فيه سوية هب في كلب هبيب أسامة؟

. إيه يا نورهان، لسه أوى، دا قلبي كله حب في حب

. سكرا كتير، عملتو هسابات أجي مصر ونتكابل سوا .. سوا

. تعالي وملكيش دعوة، أنا ح أنتظر عند المطار

. أسامة، أنا جيتو كاهره يوم يناير واهد ٢٠١١ ساعه ٢ زهرا صالة وسول رقم تلاته

. أنا من قبلها بأسبوع ح أكون نايم جنب المطار

ـ ليه هبيب تعملتوا كده، تتعب، وإلا أنت خايف إن زوجه سديده عليك وتطردك بره منزل

. لأ مش قصدي لكن من حبي فيك

. آه، فهمتو كصد، أنت تهس بنار هب زى هالي "حالي"؟

. ايوه، عايز أول ما أشوفك أستقبلك بالأحضان

ـ هلوه، بالأهضان زى عبدالهليم يكول، بالأهضان يا بلادنا يا هلوه بالأهضان، مضبوط أسامة

. مضبوط ونص

. إيه نص

. مش مهم؛ مضبوط بس؛ من غير نص

. أسامة، انا هأقضي في كاهره سبعه يوم وأرجع تاني زيورخ بسويسرا عسان

سغل، لازم سغل عسان أكل عيس، مضبوط

. آخر مضبوط

. هأسيبك دلوقتي وأكول زى بعض فلاهين بالزقازيق " العواف"

. الله يعافيكي يا حلوه يا نورهان

. الله، كلام مصر جميل، أهب مصر وناس مصر وأسامة ابن مصر

. وأنا أحب أحلي بنات زيورخ

. لا لا مس تكول كده، كول أهب بنات مصر، أهب بنات سرقيه وزقازيق أنا ولدتو بزقازيق، ومثل يكول الرجل تدب ما تره ما تهب مضبوط.

. والله مضبوك يا بنت عم أندريا

. الله أسامة، مس سمعتو كلمه زي دي من كبل ما أسافر؛ بنت عم أندريا دي معناها أنكل أندريا مضبوط

. آخر مضبوط

. كبل ما آجي بإتنين يوم أعملتو اتصال بأسامة هبيب عمر عسان لقاء بمطار.

. حاضر وأنا في انتظارك

. إلي لقاء أسامة ، Happy nice day

. إجعدى بالعافيه

. جميل أسامه، فكرتني بمدام بواب كانت تكول كلمه زى دى للمرهومه الماما

. باي

. ألف باي عليكي

***

هكذا تأكد لي بأن ما سبق وسمعته هو حقيقة وأن زوجتي رغبت بأن

تجعلني مهزوزاً مشوش الفكر، آه علي الغيرة، لكن غيرة علي إيه مش هيا قالت عني إنني خلاص بقيت كهنة، فيه واحده ست ح تغير علي جوزها الكهنة، صحيح، ما فيش، لما أروح أبلغها عشان تعمل حسابها وتيجي معايا المطار نقابل نورهان بنت عم أندريا.

تحدثت معها مؤكداً علي أنني سمعت وتأكدت أن نورهان هيا اللي كلمتني، وكلمتني تاني من عشر دقايق، جايه مصر في أول يناير، عندهم إجازة من الشغل و....

- أنا مش عارفه أقولك إيه؟ مش كفايه الستات والبنات اللي بيتصلوا بيك عشان إعجابهم بكتبك وأنا مش بأتكلم، مش كفايه إخواتك البنات اللي هما مش إخواتك وأنا برضه ساكتة، مش كفاية .....

جلست صامتاً وقد اعتلي الغضب وجهي واحتقن باللون الأحمر وسمعت طشاش ووش بأذني وظللت على هذا الحال لفترة وخلال هذا شاهدتها صامتة، غادرت الحجرة وبعد قليل سمعتها تتحدث مع شخص ما تليفونيا، ثم صمت الحديث وبعد قليل سمعت جرس الموبايل يرن فأسرعت وأفقت من غيبوبتي المؤقتة لأرد علي نورهان اعتقادا مني بأنها تريد محادثتي ثانية، نظرت فلم تكن الجملة المعهودة "رقم غير معروف" لكن قرأت اسم علا:

. أهلا علا

- أهلا أسامة .. مزعل مراتك ليه؟ مراتك دى ما فيش أعظم منها وإنت تستحقها بس راعي شعورها، مش كده، رايح تعرفها بحكاية نورهان، كنت قابلتها من بره بره وتسافر وخلاص وإلا أنت عايز تعزمها في بيتكم؟

. أيوه؛ عايز أعزمها وكنت عايز مراتي تيجي معايا نستقبلها بالمطار.

. مش معقول، أنت عارف الأجانب، يمكن تحضنك وإلا تبوسك وتبقي ليلتك

طين، بلاش، وأنا هدأتها وطيبت من خاطرها وعرفتها أن حكاية نورهان دي زي أى حكاية معايا أو مع دينا أو سحر، موضوع عابر وأسامة بيحب الناس، خلاص روح طيب خاطرها.

. حاضر يا علا

بالفعل نفذت اقتراح علا وطيبت من خاطر زوجتي التي صفحت عني وأخبرتني بأن الغضب غادرها، وأنت حر في استقبال أصدقاء وأحباء مرحلة المراهقة وأنها تثق بى، وأنها عرفاني وعشرة أكتر من تلاتين سنة، قلت الحمد لله ؛ كنت أردد هذا بداخلي وبأنها سيدة عاقلة ومش زى بعض الستات المندفعات اللائي أسمع عنهن الآن.

***

عدت يا يوم مولدي

ليلة رأس السنة كانت الأفكار والآمال تطوف بعقلي، ماذا سوف يحدث حين اللقاء بيني وبين نورهان؟ أفكار كثيرة ورغم هذا عقدت العزم بألا أترك مشاعري تسبح إلى مالا نهاية، فمازال الشرق يتمتع ببعض التقاليد والتي لا تسمح بعناق بين رجل وسيدة أمام الجميع خاصة في هذا العمر، قد يعتقد البعض بأنني مراهق كبير.

أعددت لوحة كتبت عليها اسم نورهان وعلقتها على لوحة خشبية بيد حتي تتعرف عليّ ، مازالت الذاكرة تعود بى إلى الوراء، لقد مضي أكثر من اثنين وأربعين عاماً علي الفراق، خلال تلك الفترة تخلي عني الشباب وحل محله الوهن والتجاعيد ولا استطيع تنكر ملامح وجهها النضر الجميل، هل مازالت ندية البشرة بيضاء الوجه والبسمة تعلو الشفاه؟ لا أعتقد؛ فقد حل محلها الكثير من تضاريس الزمن القاسي علينا نحن الاثنين، إذاً من أجل هذا كتبت على الورقة التي كنت أحملها اسمها باللغتين العربية والإنجليزية هي الدليل كي نلتقي بعد تلك الفترة الطويلة.

نهضت صباح يوم السبت الأول من شهر يناير من عام ٢٠١١ واستعد لهذا اللقاء وكلي طموح ورغبة به خاصة أن زوجتي أكرمها الله سمحت لي بهذا عن طيب خاطر، جلست أشاهدت برامج التليفزيون الصباحية، كان الخبر الأول صادماً عنيفاً، لقد انفجرت سيارة ملغومة أمام كنيسة القديسين بالإسكندرية وحصدت أرواح الكثير من أبناء وطني الأقباط أثناء فرحتهم وصلاتهم لله بأن تكون سنة خير وسعادة عليهم وعلى مصر وطناً وشعباً أشاهد الصـــــور المرسلة من موقع الحادث، صور رهيبة بكل المقاييس

انفجار ولا يعلم آثار تلك الانفجارات إلا من عاصر تلك الأمور، وأنا واحد ممن شعر بهذا خلال الحروب مع العدو.

خيم الحزن علي الأسرة وكنت أشد حزناً علي هذا وما يعقب هذا من آثار سلبية علي الوطن، ماذا يحدث لهذا البلد الأمن؟ ألا يكفي الناس به مشقة الحياة والضيق الذي ألم بنا، الكل في حالة من التوتر لأسلوب الحياة التي نعيشها وللانتخابات النيابية السيئة بكل المقاييس، لم تكن انتخابات نزيهة مشرفة بل انتخابات دنيئة مزيفة ومما زاد من نقمة الناس أن أجهزة الحكومة خرجت علي الناس تخبرهم بنزاهة ما حدث.

في الموعد غادرت المنزل متجهاً للمطار للقاء الحب الأول وإلي لقاء الصفاء البشري بين الناس، كنت أردد: لقد ألم بى الحزن حين غادرت مصر يا نورهان والآن يملؤنى الحزن بعد عودتك وطول غياب، ماذا يخبئ القدر لكلانا؟ وقفت مع جموع المستقبلين من الأقارب والأحباء وظهر الوجوم على وجوه الجميع مما حدث منذ ساعات قلائل، وكان هذا بادياً أيضاً علي أجهزة الأمن التي كانت تدقق في كل إنسان وكل سيارة وكأننا من قمنا بالحادث ولسنا من أصيب به.

أشاهد بعض المسافرين قادمين ويلتقون بالأهل من خلال الدموع سواء الفرح بالوصول أو لما سمعوه من وكالات الأنباء عن الحدث والحديث كنت أدقق النظر وكلما شاهدت سيدة جميلة أكاد أفزع إليها مردداً "نورهان" ولكني أتوقف حينما أشاهدها تلتقي مع آخرين، ظللت على هذا الحال وفقدت الأمل بأنها استطاعت المجيء أو أن أجهزة الأمن بالمطار منعت دخولها، خلال هذا كانت نظراتي تنطلق إلى داخل صالة الوصول تعلو قامات القادمين، فجأة شعرت بمن يحرك اليافطة من يدي، عدلت من اتجاه نظري وشاهدتها تقف أمامي لا يفصلنا عن بعض سوي عدة سنتيمترات.

سقطت اليافطة من يدي ولم أدر بما حدث سوي عناق قوي ودموع ساخنة مؤثرة شعرت بها من تأثيرها على من حولي مرددين "يخرب بيت الغربة" ، أمسكت بيدها كأنني أخشي ضياعها مرة ثانية ولن يصبح بالعمر متسع لانتظارها أعواما أخرى، سرت معها ونظراتنا تتحدث وقلوبنا تردد كل معني للحب والسعادة، شاهدت أحد عمال المطار يلهث خلفنا يدفع بيده عربة تحمل الحقائب مردداً بصوت متحشرج:

ـ يا ست يا خواجايه .. شنطك .. تنبهت نورهان ونظرت إليه وشكرته بكلمات بسيطة بينما نفحته ببعض النقود التي تدل على سعادتي فأجزل لي الشكر والثناء.

غادرنا صالة الوصول ونحن ندفع عربة الحقائب أمامنا، لا نتحدث نظرات فقط، وقفت فجأة ثم نظرت إليّ تتساءل:

. أنت أسامة هبيب؟

. ايوه والله يا نورهان

. أنا هنا بالكاهره

. أيوه والله يا نورهان

اندفعت ثانية تبكي بكاءً مراً مؤلما على نفسي فلا يعلم مقدار ما قاسته سواي، اندفعت بداخل صدري تضرب بيدها الرقيقة على ظهري مرددة "ليه خلتيهم يمسوني مع البابا والماما .. ليه مس عملتوا هاجه .. كنت منعتهم .. أسامه يفرط في هبيب أمرُ عمر ".

طيبت من خاطرها وأعدت وضعها لتقف أمامي نتبادل النظرات التي ترويها دموعنا، جذبتها ناحيتي ثانية فقبضت علي ظهرى وملابسي بكل قوة وتردد .. مس تهليهم "تخليهم" يمسوني تاني أسامه "بليز" please .. عسان هاطر هبيب نورهان .. مس تسيبهم يعملوها تاني .. ثم بكاء ..

توقفت عن البكاء تنظر فيمن حولنا وترد .. أسامه أيزه أبوس كل مصريين هنا! أجبتها:

- اليوم مش ح يكفي بوس الناس دية وكمان شفايفك حتتهري بوس، خليها لحد تاني، ابتسمت وسارت بصحبتي تردد " بالأهضان يا بلادنا يا هلوه بالأهضان"

توجهت برفقتها إلي سيارتي وحملت حقائبها ووضعتها بحقيبة السيارة جلست بجواري ومازالت تنظر إليّ ، وضعت يدها اليسرى علي بطني وتردد:

- أسامة .. أنت بقيت فات Fat "سمين"

- العمر يا نورهان .. تبتسم وتنظر إليّ بطنها وهى تشير

- سوف .. أنا مس فات أسامة .. مضبوط؟

- فعلا أنت لسه حلوه

- صهيه "صحيح" أسامة

- صحيح ونص

- إيه نص؟

- صحيح من غير نص .. ضحكت، سألتها إلي أين نتجه، أجابتني إلي جاردن سيتي حيث ستمضي تلك الليلة مع صديقتها زينات، تردد، فاكر أسامة الفيلا اللي جت ليا فيها وعملتوا فسحه سوا سوا؟

- أيوه فاكر

- نروه هناك

- حاضر

سرت بالسيارة ومازالت تدقق النظر في شخصي ثم تحدثت:

- أسامة؛ ليه مس تبص ليا زي ما أنا أبص لك؟

. لو عملت زيك ح نعمل حادثه

. صهيه، شاهدتها تتطلع إلي جموع الناس وهى تردد:

. أسامة ، فيه واهد مظاهره

. لأ ، بتسألي ليه؟

. سوف ناس وعربيات كتيره في سارع، سيء مس متعود عليه في كايرو

. الناس زادت، يعني كتير

. إيه سبب؟

. الرجاله بيحبوا الستات بتوعهم ونازلين خلفه، يعني بيجيبوا عيال كتير

. هب معناه أبناء كتير

. أيوه

وصلنا بصعوبة إلي الفيلا وهناك قام حارسها بفتح الباب الحديدي ودخلت السيارة تتهادي علي الممر الداخلي، أسرع الحارس وضغط علي الجرس الداخلي وشاهدت سيدة جميلة بالعقد السادس تهبط بعض الدرجات وأسرعت تلتقي بنورهان وتبادلتا العناق والكلمات الأجنبية ثم أشارت إليها قائلة:

. فاكره يا زينات أسامة هبيب؟

صافحتني السيدة باسمة وهى تردد:

. إلا فاكره ، أسامة كان ح ينهار يوم سفرك، بيحبك كتير .. نظرت نورهان إليّ وهى تردد:

. أنا أهبه كتير، مس أنساه أبدا، هتي بعد زواج، أسامة كان هلم بتاع سباب صغير.

جلست بعض الوقت وكانت نورهان ترغب بأن أظل معهما وأتناول طعام الغداء لكني فضلت بأن أتركها كي تستريح من عناء السفر، وافقت

على هذا وتم الاتفاق على التوجه لزيارة مدينة الزقازيق بالغد لمشاهدة الأماكن التي مازالت تتذكرها، قمت بوداعها ووداع السيدة زينات صديقتها.

***

صباح اليوم التالي توجهت إلي فيلا السيدة زينات وهناك التقيت بها وبنورهان، جلست معهما بعض الوقت تناولنا خلاله مشروباً ثم ودعناها وركبنا السيارة في طريقنا إلى الزقازيق، كانت نورهان راغبة في أن نستخدم الطريق الزراعي رغم إنها لم تشاهد الطريق الصحراوي ولكنها رغبت في مشاهدة الناس والمزروعات والخضرة التي دائماً ما تحن إلي الريف المصري.

فى مدخل مدينة الزقازيق لم تتعرف على كثير من المباني والهيئات ولكنها تعرفت علي بعض الأماكن التي لم تتغير وبالأخص مبني المحافظة وشارع الجناين التي كانت تسكن به، ركنت السيارة جانبا وهبطت منها تنظر بكل إعجاب إلي العمارة التي تأثرت بعامل الزمن لكن نورهان لم تشاهد إلا الماضي، كنت أحدق في نظراتها والتي لم تتحرك بعيداً عن العمارة وبالأخص شرفة الشقة والعيادة وحجرتها الخاصة.

كنت أشعر بأن قلبها يحدث ذاك الجماد متسائلاً: هل رغبت في رؤيتي مرة ثانية؟ تركتني وتوجهت إلى دكان صغير لإصلاح الساعات وألقت على صاحبه التحية، كان رجلا في مقتبل الخمسين من العمر وتبين فيما بعد بأنه ورث هذا المحل عن والده الأسطى لمعي، بعد أن ألقت عليه التحية سألته إن كان يتذكر طبيب أسنان سكن بتلك العمارة منذ زمن وغادرها للخارج، صمت الرجل قليلا ثم علق قائلاً: أيوه الدكتور أندريا، أنا فاكره لما كنت بأجي لأبويا المحل، ياه فينك ياعم أندريا؛ تصدقي إنه كان راجل ابن حلال رغم إنه خواجه ومش علي الملة بتاعتنا لكنه طيب، يا ما عالجني

وعالج إخواتى الكبار من غير ما ياخد ولا مليم من أبويا.

والله فكرتينى يا ست هانم بالأيام الحلوة دية، دنيا!! لكن أنتِ بتسألي عليه ليه؟ أجابت والدموع تغطي العينين الجميلتين، أنا نورهان بنته؛ صمت الرجل قليلا ثم أسرع وأحضر كرسيا لها مرحبا بها طالبا منها الجلوس ولم يهتم بوجودي ثم غادر الدكان وعاد حاملا زجاجة صودا ليمون، نظرت إليّ نورهان كأنها تستعيد أيام مضت منذ ٤٨ عاماً حينما أحضرت لها ولصديقتها سهام زجاجتين صودا ليمون.

تنبه الرجل لوجودي فقدم اعتذاره وأسرع بإحضار كرسي من المحل المجاور وزجاجة صودا أخري لي، بعد قليل وأثناء الحديث مع صاحب محل إصلاح الساعات شاهد سيدة مسنة تسير علي مهل فنهض وحياها واصطحبها إلى داخل المحل وأشار إلينا بأننا نسأله عن الدكتور أندريا طبيب الأسنان الذي كان يقيم بتلك العمارة وهاجر منذ أكثر من أربعين عاماً.

تنهدت السيدة ثم قالت:

. أندريا ده راجل طيب، هوه اللي كان بيعالج شناني وأنا عروشه، فين أيامك يا أندريا؟

لم أتمالك نفسي من الابتسام وحدثتها بأن الدكتور أندريا افتتح عيادته في عام ١٩٤٥ وليس أيام هوجة عرابي حينما توجهت لطبيب أسنان، لابد أنه شخص آخر كان يعالج أسنان أحمد عرابي أو الخديو توفيق، نظرت إليّ بكثير من الضيق وقالت:

ـ أيوه أنت التمرجي بتاعه أنا فكراك يا واد صميدة، يخرب عقلك لسه عايش؟ ثم وجهت الحديث لنورهان وهى تشير إليّ وتخبرها بأن الواد صميدة التمرجي كان يأخذ منها عشرين تعريفه "عملة تساوي أقل من

نصف مليم" كرشوه كي أجعلها تقوم بالكشف قبل باقي الزبائن مما أضحك نورهان وصاحب المحل، ظللنا نتسامر لفترة ونستعيد أيام زمان وبالأخص حينما كانت الحالة المادية للكثير من أبناء الشعب سيئة وفقراء والبعض منهم يسير حافي القدمين مما جعل الدكتور أندريا يرفض تقاضي أجرا من هؤلاء ويتحمل نفقات العلاج بما فيها الأدوية.

قدمنا الشكر للسيدة العجوز وصاحب المحل وسرنا على الأقدام بشوارع المدينة ثم تذكرت جبرائيل وسألتني عنه ولم أستطع أن أقدم لها جواباً شافياً ومن ثم توجهنا إلى محل عمه بشارع نورالدين وهناك سألنا أحد الرجال والذي تبين أنه ابن العم وأرشدنا إلي منزله، هناك التقت نورهان بزوجته "اليا صابات" والتي تعرفت على نورهان حيث كانت بالمرحلة الثانوية ولكن تسبقها بعامين، تبادلت السيدتان الأخبار والمعلومات وحينما علمنا بوفاة جبرائيل منذ عامين حزنا كثيراً عليه فقد كان شاباً طيباً وهو الذي أرشدني إلى موقع نورهان بالكنيسة قبل سفرها نهاية عام ١٩٦٧كما أنه الشاب الذي اعتقد الدكتور أندريا بأنني هو مما دفعه لخلع الضرس.

طلبت مني نورهان أن تلتقي بصديقتها سهام جارتي بمنزل الأسرة والتي كانت السبب الأول بتعارفي علي نورهان حينما أقبلت لزيارتها والتقيت بها بمدخل العمارة التي نقيم بها، كنت أعلم من شقيقها بأنها تقيم بالقاهرة ولا أعلم عنوانها أو رقم تليفونها، ثم طلبت مني أن نلتقي بالفتاة صاحبة قرص عسل النحل، قدت السيارة وتوقفت بها أمام قرية "شيبة" التي كنا قد التقينا بها هناك، شاهدنا بعض الشباب والتف حولنا الأطفال الذين كانوا بكثرة سألنا عن الفتاة أو السيدة وظللت مع نورهان نحاول تذكر اسمها حتي اهتدينا إليه، ضرب أحدهم يده بقمة رأسه وقال لأصحابه: الناس جصدهم ستي فاطنة أم حسن، رحب بنا الجميع وساروا بصحبتنا من خلال حواري

القرية الضيقة حتي توقفوا أمام منزل حديث البناء، ضرب أحدهم بيده علي باب المنزل وصاح منادياً:

- ستي فاطنة، يا ست، سمعنا صوت سيده يطالب الجحش الذي يزعق بخفض صوته ونظرت من شباك بالدور العلوي متسائلة:

. خبر إيه يا وله؟

. حدانا ضيوف عايزينك

. منين يا وله؟ أوعي يكونوا من المجلس المحلي أو من الحزب الوطني

. لا يا ست، دول باين عليهم خواجات

. خواجات!! وح أعرف الخواجات منين يا وله؟ دا أنا عمري ما رحت جنينة الحيوانات!! .. قطعت عليه الحديث:

. مساء الخير يا حاجه فاطنة

. يسعد مساء يا خويا، تفضلوا ، جوم يا وله يا محروس وهش الغنم عشان مش يتلخبطوا مع الخواجات ومنعرفهمش من بعض!!

جلسنا مع الحاجه فاطمة وبدأت معها حديث الذكريات وتبين لنا أنها تمتلك ذاكرة قوية جدا وتذكرتنا وتذكرت كل شيء حتي أنها عاتبت نورهان بأنها لم تخبرها بموعد الفرح وحينما علمت بالظروف الصعبة التي واجهناها اعتذرت وقبلت نورهان، أشارت إلى أحد الأحفاد بإحضار أكواب اللبن الطازج مما أسعد نورهان وقبضت على يدي مرددة:

. بتفكرني بأيام زمان

شربنا اللبن طيب المذاق كما حاولت أن تحضر لنا عسل النحل بالشمع فقدمنا الشكر إليها واعتذرنا فلم تعد الحالة الصحية قادرة على تحمل مثل تلك الأطعمة ويكفينا اللقاء وكوب اللبن الساخن، قضينا برفقتها حوالي الساعة ونهضت معنا الحاجة فاطمة مودعة حتي مجرى مياه الري والتي

التقينا عندها أول مرة، لوحنا لها بالتحية وركبنا السيارة وأثناء تحركنا كنت أشاهد لمحات مضيئة في عيون نورهان وأصبحت مثل طفلة صغيرة فقدت اللعبة المفضلة إليها ثم عثرت عليها بعد فترة طويلة من الزمن وأصبحت تلهو بها سعيدة.

تنظر إليّ من حين لآخر والسعادة هي حالها بل كانت تقفز وهى جالسة بداخل السيارة مرددة:

. رجعتوا تاني للأصل، أهبك أسامة، أهبك كتير قد ألف مليون هب؛ كويس ألف مليون هب؟ كنت أضحك من تعبيراتها الرقيقة الجميلة التي كانت تذكرني بالأيام الماضية منذ عدة عقود حينما كان الشباب الغض هو حالنا وأقل شيء يسعد قلبينا.

قطعنا طريق العودة إلي القاهرة وأثناء الطريق تبادلنا ذكريات ما بعد الفراق، شرحت لها كيف لم أتسلم خطاباتها وأن المسئولين تحفظوا علي كل خطابات واردة من الخارج ولهذا فقدت الاتصال بك، أيدت حديثي لأن كل صديقاتها حدث معهم نفس ما حدث لي، شرحت لي كيف مرت بهم الظروف وكيف أنهم لم يشعروا بالراحة في أيرلندا ومن أجل هذا غادروها في العام التالي متوجهين إلي سويسرا الجميلة، ظلت بها وأنهت تعليمها هناك وتخرجت وعملت ثم مرض والدها ولقي ربه بعد هذا بعام ولحقت به أمها بعد هذا بخمسة أعوام، ظلت وحيدة تبحث عن الحب المفقود وتبين لها استحالة العثور عليه.

التقت بزميل لها من أصول سورية فتعلقت به حيث يتحدث العربية وقالت: كنت أتذكرك حين اللقاء وحين الحديث بل شرحت له ما كان بيننا وتعاطف معي وتزوجنا رغم أنه بروتستنتي وأنا أرثوذكس لكن الديانة أو الهوية لم تكن عائقاً في تلك البلاد الراقية فالإنسان هو الأهم والمشاعر

والتعامل هو صمام الحياة بينهم، تزوجنا وبعد هذا بعام أنجبت ابنتي الوحيدة ياسمين وظللنا في كفاح وقرر زوجي زيارة وطنه فقد تعدي العشرين عاماً منذ غادرها حيث كان تواقا لزيارة والديه وإخوته، هناك ألقي القبض عليه ولم يعد ولا أعلم عنه شيئاً حتي العام الماضي حينما تبدلت الأوضاع السياسية نسبياً هناك وعلمت من أحد أصدقائه بأنه لاقي ربه بسجن "المزه" شديد القسوة من التعذيب وسوء الحياة.

لقد أصبحت وحيدة بعد أن تزوجت ياسمين منذ عامين، هاجرت إلي الولايات المتحدة، كنت ومازلت تواقة إلى مصر وإلي لقاء أسامة، كنت أخشي عليك أن فارقت الحياة من الحروب التي دارت بين وطني مصر وعدوها إسرائيل، كنت في كل صلاة يوم الأحد أدعو الله أن ينجيك من أثر المعارك ولم أعد أعلم كيف أتصل بك، فصديقتي سهام سافرت مع زوجها إلي إحدي البلاد العربية ولم تعد أسرتها تقيم في المنزل التي التقيت بك فيه لأول مرة.

سارت بى الحياة وها أنا قد بلغت الخامسة والستين وقد أصبحت علي المعاش بحكم القانون والحمد لله فأنا أمتلك منزلا رائعاً ومزرعة ريفية تدر علىَّ مبلغاً من المال كما أن دخلي من المعاش يعطيني الأمان المادي وعشت ثلاثة أشهر علي ذكري الحبيب حتي قبيل أن أكلمك بيوم حيث كنت أهوي مشاهدة برامج التليفزيون المصري حتي أستعيد الوعي الثقافي والاجتماعي التي ولدت عليه، شاهدت برنامج العاشرة مساء والمذيعة تقدم الضيف العميد أسامة الصادق.

أصابني التوتر والانفعال ولم أستطع أن ألاحق أنفاسي السريعة وأنا أمني نفسي بمشاهدتك وأحث المذيعة علي الانتهاء من التقديم حتي أشاهد الحبيب إذا كان هو هذا الشخص، فالاسم الأول والأخير صحيح والمهنة

أيضاً لكن المشاهدة مطلوبة، وحينُ سلطت عليك الكاميرا ، صرخت ووقفت أقفز لأعلي مرددة، هذا هو، إنه هو، خمدت فرحتي بضع ثوان كنت أنتظر أن أسمع صوتك، فالصوت لا يتبدل بمضي الأعوام، تحدثت .. إنه أسامة حبيبي، لا أستطيع أن أنسي طريقة حديثه المرحة الضاحكة المتفائلة وبسمته الطيبة ونظرته الجانبية لمن يحدثه من النساء خجلا واحتراماً لهن كنت قد صورتك بقلبي وعقلي وأفاد الاثنان بأنه أنت.

استمتعت بالحديث وبالمتحدث وانتهي البرنامج وأنا شبه سابحة في عالم ماض جميل، عالم اللقاء والتمتع بسماع أغنيات أم كلثوم، تذكرت أغنية فريد الأطرش "عدت يا يوم مولدي" فعلا لقد عاد يوم مولد حبي لك وحبك لي، يوم التقينا لقاء الغرباء علي باب المنزل ليلا بالظلام ثم اللقاء الثاني بشارع المكاتب بالزقازيق وتلاه بعد ذلك لقاء .. ولقاء ودفعت ثمناً لهذا بنزع ضرسك من سوء فهم أبي لسبب حضورك، كنت دائماً ما أشعر بأنك ضحيت من أجلي وما أجل الحب بأن يضحي المحب للحبيب.

حاولت معرفة رقم تليفونك واستعصي عليّ هذا، اتصلت بالملحق الإعلامي المصري بالسفارة وسبق أن تعرفت عليه وعلى أسرته، طلبت منه أن يساعدني في هذا وطمأنني بأنه سوف يبذل كل ما في وسعه، بعدها بساعتين اتصل بى يبلغني رقم تليفونك المحمول حيث اتصل بقناة دريم الفضائية وحصل عليه ولم يعارضوا طبعاً لأن السفارة في سويسرا تطلب ذلك.

الساعة تجاوزت الواحدة والنصف صباحاً بتوقيت زيورخ أي الثالثة والنصف بتوقيت القاهرة، وأكيد كنت تغط في نومك، أجلت الاتصال للصباح، لم أنم ولم يغمض لي جفن ما بين السعادة والفرحة وما بين عدم تعرفك عليّ أو أن الرقم خطأ، تبدل الحال بين تلك الأفعال والنزاعات

الإنفعالية وأنا في حالة من التوتر.

صباحا اتصلت بك وحينما لم تعرفني ازداد خوفي رهبة لكن صوتك لا أنساه وقلت في نفسي لقد فقد ذاكرته، لكن الإنسان دائما ما يتذكر ما يحدث بالماضي وبالأخص المفرح والمبهج ومن أجل هذا ظللت أقرب لك الأحداث حتي عرفتني وسمعت صوتك الفرح بالتليفون، أنهيت المكالمة والتي لم أتذكرها حتى الآن؛ كيف بدأتها وكيف انتهت؟ كانت سرابا جميلا طاف من حولي صباح هذا اليوم الأول من شهر نوفمبر من عام ٢٠١٠ ، إنه يوم محفور في ذاكرتي حتي الآن وسوف يظل إلي الأبد.

***

وصلنا إلي فيلا صديقتها زينات التي رحبت بنا وشعرت بمدي السعادة التي بدت واضحة على وجه نورهان، جلسنا بعض الوقت وتناولنا مشروبا استعداداً لتناول طعام الغداء، اعتذرت بأنني سوف أغادر المكان وأتناول الطعام مع أسرتي، بدا الوجوم على وجه نورهان وتحدثت:

- أسامة ، أنا كلت "قلت" لك سبعه يوم بتوه "بتوع" الهبيب، كبل "قبل" وبعد سبعه يوم بتوع أسرة وزوجه، دا إتفاك، ليه تخلف إتفاك هبيب؟

- حاضر يا نورهان، ح أفضل ونتغدى سوا .. ظهرت الفرحة على وجهها وصفقت معلقة:

- من زمان مس سمعتوا كلمة نتغدي سوا .. آه .. أيام جميلة .. مس كده زينات؟

- فعلا أيام جميلة يا نورهان واليوم اللي بيعدى مش بترجع حلاوته تاني مهما كانت الأسباب والظروف لأن اليوم ده كان له عمر وزمن واللي جه بعده له عمر وزمن أكبر من اللي فات، الشباب ما فيش أحلي منه.

- سامع أسامة ، صديقه أزيزه تكول سباب "شباب" ما فيس أهسن منه

أقبلت السيدة التي تعمل لدي زينات تخبرنا بأن المائدة معدة كي نتناول طعامنا، توجهت للحمام واغتسلت وتوضأت، وأديت صلاة العصر فقد اقترب موعد صلاة المغرب، جلست أمام نورهان أستعيد بعض ذكريات الماضي البعيد، كنت أتطلع إليها ومازالت صورتها الأولي بخيالي، لم تتغير كثيراً إلا من بعض عوامل الزمن فقد تعدت الستين من عمرها لكنها مازالت ندية بريئة، من حين لآخر تنظر إليّ نظرات رقيقة باسمة وكأنها أصبحت مثلي تحاول استعادة أيام ماضية، أيام الشباب الغض البريء بينما المضيفة تنظر لكلانا نظرات سعيدة بأن استطاعت إدخال البهجة والفرحة إلي قلوبنا.

أنهينا تناول الطعم وجلسنا بعده لفترة زمنية نتناول مشروباً دافئاً يبعد عن قلوبنا برودة البعد والغربة، لم تكن برودة الهجر والفرقة فقد كان البعد مفروضا علينا نحن الاثنين وخارج قدراتنا ولهذا كان كل واحد منا يفكر؛ هل لو لم يكن هناك فرقة مفروضة لتغيرت الأحوال لتصبح أفضل وأيسر؟ هل كان من الممكن أن يجتمع الشمل تحت سقف واحد مثل أي اثنين تحابا بإخلاص وسعادة دون أن يعطي أحد الطرف الآخر شيء مادي يندم عليه بعد ذلك.

غادرت الفيلا علي وعد بلقاء بعد باكر نظرا لأنها سوف تتوجه لكنيسة الأرمن لأداء الصلاة ولقاء بعض الأحبة من الأرمن الذين علموا بوصولها ويرغبون بلقائها.

توجهت إلي منزلي وهناك التقيت بزوجتي وسألتني عن انطباعي لهذا اليوم مع صديقة الصبا وأخبرتها بكل ما دار وحدث، شعرت بأنها راضية ثم فجأة طلبت مني أن أقوم بدعوة نورهان علي الغداء بعد باكر حينما علمت مني بأن باكر سوف تصبح مشغولة مع أبناء وطنها، وافقت سعيداً رغم دهشتي ولكن كل شيء أصبح الآن من المحتمل حدوثه.

ليلا اتصلت بى علا وتحدثت معي في أمور عامة وأخبرتني بأنها أقنعت زوجتي بدعوة نورهان لمنزلها تقديرا لمشاعري علي أن تصبح نورهان صديقة للأسرة كما أصبحت كل من علا ودينا وسحر وروز أصدقاء وقد اقتنعت زوجتي بهذا كما أخبرتني علا بأن زوجتي منذ ساعة مضت دعتها وباقي إخوتها وباقي الأصدقاء لحضور تلك المأدبة مما أشاع البهجة في نفوس الجميع.

اليوم المحدد توجهت إلي لقاء نورهان واصطحبتها لزيارة المتحف المصري ومنطقة آثار الأهرامات، وهناك كانت سعادتها بالغة بأن تعود لطريق الذكريات وتذكرت والديها وطفولتها وبداية الشباب حينما كانت الأسرة تقوم علي زيارة تلك الأماكن الأثرية المهمة، كان يوما شاقاً وفي بدايته أخبرتها بدعوة زوجتي لتناول طعام الغداء معا بصحبة مجموعة من السيدات الرقيقات التي جمعتني الصدفة والأحداث بهن على أثر هذا تمت صداقة وإخوة بيننا خلال أحداث الحروب المتعاقبة.

كانت تستمع لحديثي صامتة، والفرحة تطل من عيونها الجميلة، وافقت علي الدعوة واتصلت علي الفور بالتليفون المحمول تبلغ السيدة زينات بتلك الدعوة والتي أسعدها هذا حيث كانت راغبة بأن يحيط الجميع بنورهان كي تشعر بحب ودفء الشعب المصري لها؛ فهي مصرية ولدت علي أرض مصر وعاشت بها عقدين من الزمان.

توجهت بصحبة نورهان إلى منزلي وهناك كانت زوجتي في استقبالها وتبادلت السيدتان القبلات والكلمات الجميلة وارتفع الصوت من خلال الضحكات التي تميز أحاديث ولقاءات السيدات عادة، فوجئت نورهان بمجموعة السيدات اللائي كن في استقبالها، تبادلت معهن العناق والترحاب والتعارف كما صافحت مدحت شقيق علا، نظرت إليّ نورهان نظرة خاطفة

والبسمة الفرحة تطل من عينيها بما يعني ما هذا الاستقبال الرائع.

بعد قليل كانت مائدة الطعام معدة وجلسوا جميعاً من حولها ونظرت نورهان إلي أصناف الطعام المتنوعة الشهية وألوانها المتباينة، وشمت رائحته الذكية كما قامت كل سيدة بإعطائها نوعاً من الطعام حتي امتلأ الصحن الخاص بها ما بين ضحكاتها وشكرها وتمنعها بأن هذا كثير ولن تستطيع تناوله لكن الكرم المصري دائماً ما يطغي علي الاحتفالات واللقاءات الطيبة.

كانت فترة الطعام بمثابة منبر للاحتفال والحديث، وشجع من استمراره بساطة الضيفة وسلاسة حديثها وتجاوبها مع الجميع كما أن لهجتها الأجنبية أضافت بعداً آخر علي اللقاء الذي استمر أكثر من ثلاث ساعات أثناء حديث متبادل بيني وبين علا أثناء رفع الأطباق من على مائدة الطعام أسرت في أذني مرددة:

. حلوة يا أسامة، بتعرف تنقي وتختار .. أجبتها

- مش أحسن منك .. طلت من عينها بسمة سعادة وفي الوقت نفسه غير مقتنعة بما قلت فطالما هذا كان حالي فلماذا تخليت عنها.

بعد الغداء والجلوس والحديث الممتع اصطحبت نورهان كي أقوم علي إيصالها إلى حي جاردن سيتي وحدث وداع بينها وبين جميع الحاضرين أثناء الطريق كانت صامتة والتفاؤل والبسمة هو حالها ثم قطعت صمت الطريق بأن حدثتني بكل كلام طيب مرددة:

- أسامة ؛ كنت فرهان كتير، آيز أبكي ، مس سفت زي كده بره مصر مصر هيا كل هاجه هلوه في هياتي، أسامة توافق إني آجي عملتو زيارة كل سنه جديد؟

. بكل سعادة وكلنا ح نكون في انتظارك، الكل ح يكون مبسوط أنه يشوفك

تاني وتالت، أنت محبوبة يا نورهان.

. مهبوب من كل ناس وإلا من أسامه بس؟

. من كل الناس وطبعا مني.

. أسامة، صحيح لم يتهقق هلم زواج لكن تهقق هلم لقاء، وده سيء كبير مس هنسي زيارة لمصر، أنا سعدتوا بزيارة ولقاء أهباب أعرف بعضهم ومس أعرف البعض، سكرا كتير هبيبي وإلا مس أقدر أقول كلمه زي دي؟

. قولي إلي أنتي عيزاه، كلنا بنحبك يا نورهان

وصلنا إلي الفيلا بجاردن سيتي وهناك انتهت الزيارة واللقاء بوداع نورهان بين البسمة والفرحة وبين الحزن لسرعة نفاد الزمن واحتضنتني وهى تردد ربنا يعيد لقاءاتنا تاني.

هكذا عادت نورهان بعد تلك الزيارة الخاطفة السريعة وبين لقاء الحب الأول الذي تظل ذكراه ماثلة أمام كل حبيب لحبيبه مهما كانت الظروف المحيطة به مع إهمال النتائج؛ لأن كل شيء قسمة ونصيب كما يقول المثل العامي.

شعرت زوجتي بأن لقاء الأحبة مضافا إليه لقاء نورهان بأنه كان لقاء طيبا ولم تشعر بأسى أو بأي شيء يضايقها؛ بل أخبرتني بأنها حينما شاهدت نورهان تعلقت بها كما أسفت لما حدث لأسرتها من مغادرتهم مصر وطنهم والغربة التى لحقت بهم التي تنتاب أبناء مصر ونحن الذين جربنا هذا أثناء وجودنا بالولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث كانت قلوبنا وعقولنا مرتبطة بهذا الوطن ولم ننسه أبداً.

***

اليوم التالي قررت زيارة رابحة كي أقص عليها لقاء الحب الأول وكي أطمئن علي حالها، كنت أشعر أنها صديقة بل شقيقة، وأن الله دائماً ما

يغفر الذنوب وقد اعترفت بذنبها ولم تعد إليه مرة أخري أو تكرره؛ كانت دائماً ما تردد بأن من دفعوها لهذا سوف يلقون العقاب وكانت تقصد والدها أولا ثم زوجها وزوج خالتها.

وقفت أمام باب منزلها الحديدي فشاهدته مغلقاً وهذا غير طبيعي أثناء النهار، دققت علي الباب عدة مرات دون مجيب، بعد قليل أقبل رجل أشيب الشعر كبير السن، سألني عن حاجتي فأخبرته بأنني جئت لزيارة السيدة رابحة كي أطمئن عليها، نظر إليّ مليا ثم قال:

ـ البقية في حياتك؛ ظللت صامتاً لفترة وأنا غير مستوعب الكلمة ثم تساءلت:

. يعني إيه؟

. الله يرحمها، لاقت ربها راضية مرضية

. أردد .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. هيا كانت مريضة؟

. أبدا ، كانت صحتها جيدة وكنا معاها في موسم الحج منذ أكثر من شهر وبعد أن انتهينا من إجراءات الحج والعمرة وطواف الوداع قررت بأنها سوف تبتاع بعض هدايا لأبنائها وأسرهم قبل التوجه للمطار في طريقنا للعودة صباح اليوم التالي تأخرت عن موعدها فتوجهت زوجتي لحجرتها تنادي عليها دون مجيب، اعتقدنا أنها توجهت للشراء بمفردها لكن حينما سألنا مسئول الفندق عنها أخبرنا بأنه لم يشاهدها تغادر الفندق حتى الآن، عدنا ثانية ندق علي الباب دون مجيب، عدنا لمسئول الفندق وأخبرناه فأقبل معنا وأحضر مفتاح الحجرة الاحتياطي وقام بفتح باباها وطلب من زوجتي أن تدخل لتشاهدها هل هى موجودة أو غادرت في غفلة منه، عادت زوجتي مسرعة تخبرنا بأنها مازالت بسريرها وحاولت إيقاظها دون مجيب.

أسرع مسئول الفندق وأحضر إحدي السيدات العاملات ودخلت مع

زوجتي وعادا ثانية يخبروننا بالخبر الصادم، الحاجة رابحة لاقت ربها هكذا انتهت حياتها ودفنت بمكة المكرمة مع الشهداء والصحابة وأولي العزم ومن سبقوها من الحجاج الذين لاقوا ربهم بتلك الأرض الطاهرة عدنا بمتعلقاتها واليوم التالي لوصولنا اتصلت بابنها صالح الذي أقبل مسرعاً وعلم بالخبر الحزين، ظل يزرف عليها الدموع ويردد مآثرها نحوه ونحو شقيقه سليمان، أقمنا لها مأتماً كبيراً وكان أهل الحي هم جميعاً من يستقبلون من قدم لتقديم واجب العزاء.

جلست قليلاً علي باب المحل المواجه لمنزلها وطيب الرجل من خاطري ولكن شدة المفاجأة كانت قاسية عليّ ، قدمت الشكر له ولبعض جيرانه وغادرت المكان عائداً إلي منزلي وأنا أردد " إنا لله وإنا إليه راجعون" وتذكرت حديث الرسول الكريم حينما قال: يعمل المرء عملا من أعمال أهل الجنة وقبل أن يقابل ربه يعمل عملا من أعمال أهل النار فيدخل النار .. ويعمل المرء عملا من أعمال أهل الدنيا وقبل أن يلقي ربه يعمل عملا من أعمال أهل الآخرة فيدخل الجنة " هكذا رابحة التي دخلت الجنة بعد أن قامت بتأدية فريضة الحج ، وزيارة بيت الله الحرام وأدت الصلاة به وسعت بين الصفا والمروة وزارت قبر الرسول المصطفي وزارت الروضة الشريفة وجاء نداء ربها إليها أن اقبليّ عليّ يا أمة الله وأبشرك بجنة عرضها السموات والأرض.

الحمد لله أن كانت الخاتمة مضيئة وترحمت عليها، فلقد غفر لها الله ما تقدم وما تأخر من ذنب.

***

هكذا انتهت أيام من عمري وتلك العلاقات الإنسانية الشفافة الكريمة التي تخبرنا بأن تلكم النسوة سرن علي درب العفة والطهارة مقتديات بمن

سبق من نساء مصر والمبشرة إحداهن بالجنة وهى آسيا زوجة فرعون التي طلبت من ربها أن يبني لها قصرا بالجنة وهي التي حمت وراعت موسي عليه السلام وهو طفل وحمته من أذي زوجها الفرعون.

جلست في منزلي أردد .. الحمد لله وشكرا لك يا ربي ودائما أنت معنا ونحن جميعا في حماك ورعايتك ... والسلام عليكم ورحمة الله.

تمت بحمد الله

فهرس الكتاب

- نبتدى منين الحكاية ٥
- كيف بدأت الصداقة بيننا ١١
- القرار ١٧
- الحب لحن جميل ٢٧
- مايو من عام ١٩٦٧ ..... ٣٩
- شرف للعسكرية المصرية ٤٣
- لقاء غير متوقع ٤٩
- شيطان أم ملاك ٥٥
- انفض الجنود من حولي ٦٥
- حقائق وأسرار ٧٣
- فوق الشوك مشانى زمانى ٨٣
- أيام صعبة للغاية ٩٧
- عودة الروح ١٠٩
- وداع لا أعلم كيف تم ١٢٣
- يوم من عمرى ١٢٩
- قبل أن يغلق الله بابا ١٣٥
- حديقة الحب تنمو ١٤٧

* تطور الأحداث ١٥٣
* الحرب تعالج كل المشاكل ١٦٣
* الرسو على الميناء ١٧٩
* شبح من الماضي ١٩١
* ثلاثون عاما من الكفاح ١٩٧
* يوم من الأيام ٢١٥
* ضحك ولعب وجد وحب ٢٢١
* عدت يا يوم مولدي ٢٣١

*****

مؤلفات الكاتب:

* الناس والحـــرب .. الطبعة الثانية مــايو ٢٠٠٩
* رسالة إلى الرئيس .. الطبعة الثانية يونيــو ٢٠١٠
*نُص نقـــل .. الطبعة الثانية يولـــيو ٢٠٠٩
*مُسافرٌ زاده الخيال... الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
*حُورية بين النخيل .. الطبعة الثالثة نوفمبر ٢٠١٣
* الحب والحرمـــان .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣
* همســات مصرية
* صوت المــلاك
* بنت الباشـــا .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣
*بُثينـــه
* عابد المصـــرى
* لقاء في الطـــائرة
* العصـــفور وأنا
* رجاله ورق للبيـــع .. ملهاة
* أيام من عمـري .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣
* فـــهد اللـــيل * نـــور العيـــون
* رحلة الألف يوم .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٢٠١١/٧٢٤٠